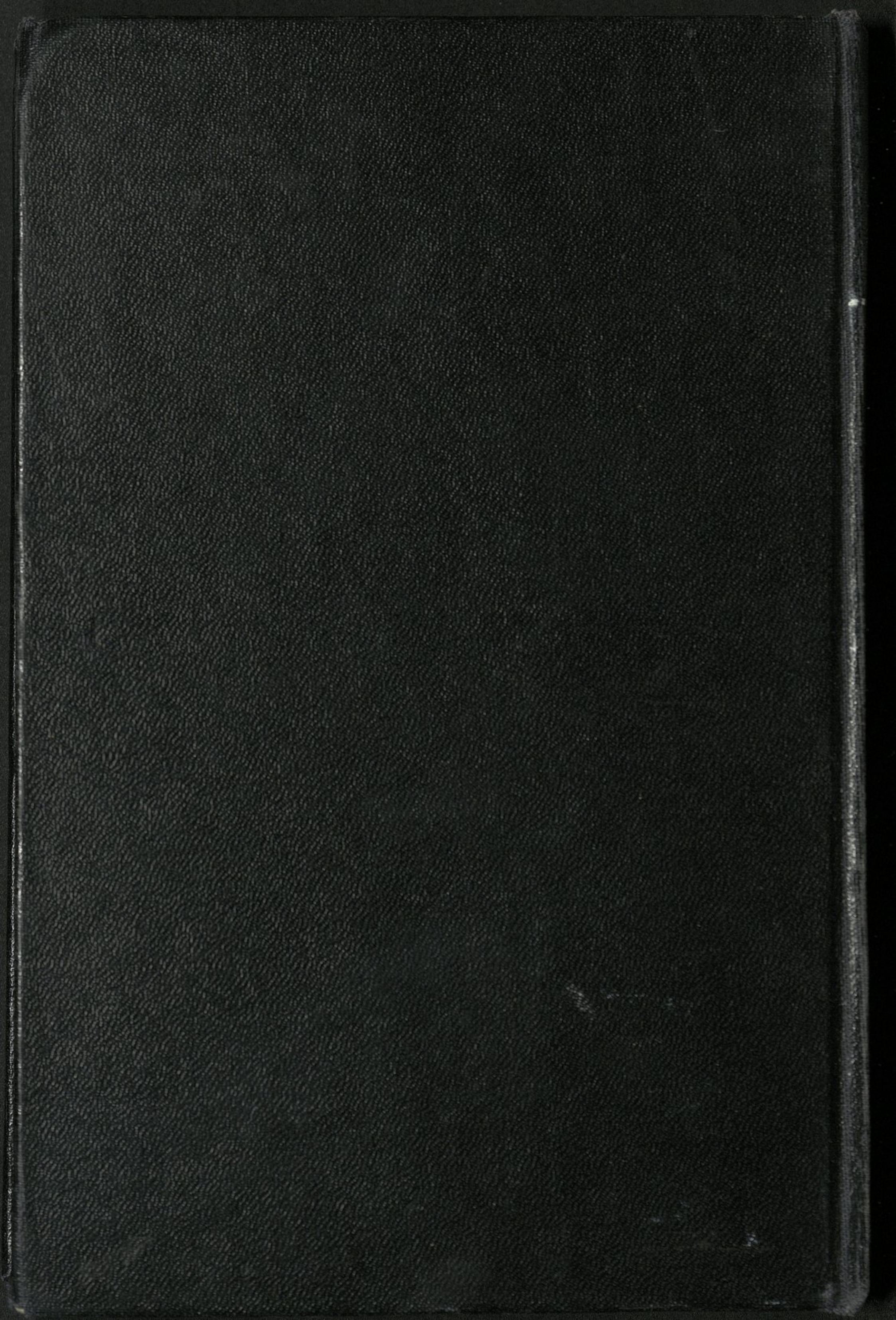


المرأة في التاريخ والشرائع

هدية المؤلف الى مكتبة الجامعة الأميركية في بيروت
محمد جميل ١٩٢١/١١/١



المؤلف

محمد جميل بيهم

طبع في بيروت سنة ١٣٣٩هـ (١٩٢١م) ✡ حقوق الطبع والترجمة محفوظة



مقدمة

اسباب التأليف

=١=

ما فتىء البشر منذ عهدهم في الاجتماع يحومون حول انصاف الافراد الضعيفة، والاخذ لها من القوية؛ فوضعوا لذلك قوانين تمشوا عليها، وجروا بها، فترقت برقيهم. ولكن البشر غفلوا حتى حين، عن انصاف الجماعات بعضها من بعض؛ فاستمر قويها يستعبد ضعيفها، سياسياً، واقتصادياً، واجتماعياً.

هوذا الابيض يسترق الاسود، والرجل يستعبد المرأة، والغالب يتحكم في المغلوب؛ ولا قوة تردع هذه الجماعات، حتى حسبت ان لها في ذلك حقاً شرعياً، وطبيعياً.

ان العصور لم تخل من المصلحين من رجال الدين او غيرهم؛ لم تخل من اولئك الذين يبلغون في بصائرهم الى حيث لا تصل ابصار اقوامهم. ولا جرم ان ينكر بعض هؤلاء ما عليه حال الجماعات من الفوضية؛ ولكنهم مع ذلك، كانوا جرياً على قاعدة «خاطب الناس على قدر عقولهم» يقتصرون على التوصية بالضعيف، ايا كان، امرأة، او رقيقاً، او حيواناً.

حتى اذا نضج التمدن الحديث، متسنياً له ما لم يتوفر لدواه من تقريب الابعاد، والجمع بين شتات الافكار، وناهيك في جعل المعارف عامة، لا تختص بها جماعة، او طبقة، تنبه الى فكرة انصاف الجماعات بعضها من بعض: فحرر الارقاء، واصلح شؤن العمال، واهتم

في مساواة المرأة بالرجل ، فضلا عن محاولته اخيرا عقد جمعية تكون للامم بمثابة محكمة الافراد .

وكان الفضل في ذلك للديموقراطيـة التي كان يطمس ظلها على الافراط في الميزات الاجتماعيـة ، ويقرب بين مستوى الطبقات .

ثم جائت الحرب العامة مؤيدة المبادي الديموقراطية ، فاثرت تاثيرا ما كان ليتم بمئات السنين : وكما ان مصائب الحرب العظمى اعدت افكار العالم لنجاح مشروع جمعية الامم ؛ فأن جهاد المرأة في اثناء ذلك ، الذي برهن على كفائتها وغيرتها ، مهد السبل لفكرة تحريرها ومساواتها .

وما كان ظهور البلشفية بعد الا ليخدم الديموقراطية ؛ بله القضيـة النسوية حتى ان روسية المعروفة بالاريستوقراطية لما تباشفت ، منحت المرأة من الحقوق السيأسية ، ما لم تتسامح به من قبل الدول العريقـة بالديموقراطيـة .

ولم تستثن الامصار العربية من تاثير الحرب عليها . بل كان في جملة مفاعيلها ان ادخلت القضية النسائية في طور جديد ، حتى لقد بلغت فتاة مرتبة المطالبة في الحقوق السياسية . وما عهد اقتراح احد اعضاء المجلس السوري ببعيد .

بيد انه لا تزال في الاقطار العربية كافة ، اكثريـة مطلقة تنكر الاصلاح النسوي ، ويبلـغ التطرف من فريق منهم في ذلـك ، انهم يجفون ان سفوا بكتابة عن المرأة ، حتى كأن اسمها عورة .

ولذلك امست افكار الامة العربية مرتبكة متضاربة بشأن سلوك المرأة وتربية الفتيات ، وهي بين افراط وتفريط .

فاشفقت على مستقبل الامة ، ومصير الام ، اذا لم ينعقد رأي عام ،

على اصالة ، في كيفية تلقي واستقبال التمدن الحديث .

وحق لنا ان نشفق على مستقبلنا ، اذا فكرنا في قوة تغلب الافكار التي تصبح روحاً عامة ؛ ثم اذا رجعنا الى التاريخ ، ورأينا كيف ان روح الحضارة العربية ، يوم كانت حضارة العالم ، اكتسحت اوروبة ؛ ولم تقو على دفعها الكنيسة المسيطرة .

وما الدنيا الا دار دول ؛ وهذا اليوم هو يوم الغرب ؛ فما ترى يدفع روحه عن الشرق ؟

اندع السيل يطمو علينا ، فيطمس على كل اعلومة من اخلاقنا وتقاليدنا القومية ؟ ام نعدّ له جداول ، نسيّره فيها حسب مصلحتنا ، فنستقي منه حاجتنا ، وندع الفضلة في سبيلها ؟

لا يختلف في هذا اثنان ، فلذلك ورغبة في التنشيط لعقد رأي عام في مسألة المرأة ، اقامت على تحريك القلم ، آملا ان افيد ، من حيث استنهاض همم اكفاء الكتاب للتأليف في هذا الموضوع ، وايفائه حقه .

قاعدة تألبفنا وتقسيمه

= ٢ =

قال ارنست لو كوفه « طالما احتاج الانسان الى الالتفات للوراء للنظر في جلاء امامه »

بلى ، ان الماضي مصباح المستقبل ، فكما انا اذا عولنا على انزال فرد منزلا ما اجتماعياً عمدنا الى ماضيه ، سابرين فيه استعداده ، فما احرانا

اذن، متى عولنا على ان نبت رأياً بشأن جماعة ان نرجع الى درس تاريخهم.

ولذلك، لما كان تاريخ المرأة لا يزال موضوعاً بكرا، طمعت فيه، ليس سدا لهذا الفراغ فحسب، بل خدمة للكاتبين النسائيين، ومن ثم ليكون نبراساً لنا في حكمنا بعد، بالمسألة النسوية العربية.

على اني قدّرت اهمية هذا الموضوع، لا سيما وان تاريخ المرأة العربية عاماً، والنهضة العربية الحديثة خاصة، لم يزل في عهد التأسيس؛ بل لانه سبيل لم يسلك بعد

قدرت ذلك، وعرفت ان هذا البحث بحاجة الى كتّاب اكثر مني كفائة، واوسع وقتاً، ولكني التمست الجرأة عليه، مما املته من القراء الكرام، بان يكون لي عندهم كفارة عن تقصيري، في مشاغلي التجارية، ومما رجوته في هذا من تنشيطي القديرين على الاقدام لايفاء البحث حقه.

ذلك ما بث في نفسي النشاط، فأقدمت على وضع سلسلة من الكتب في موضوع المرأة؛ كل كتاب منها حلقة كاملة، ومستقلة في بحثها، واسمها، ولكنها مرتبطة بالسلسلة العامة؛ سلسلة المسألة النسوية، فوضعت حتى الان ثلاثة كتب:

(١) المرأة في التاريخ والشرائع

(٢) المرأة في حضارة العرب

(٣) المرأة في التمدن الحديث، وبالنهضة العربية الحاضرة

تظهر منها الان الحلقة الاولى، فيتلوها الاثنتان الباقيتان. ثم نردفهن في كتاب رابع بجمع راينا الخاص في المرأة، يكون نبراسه الماضي، ونوره الاعتبار، ومبادئه المقابلة

وما بحثي في ذلك وان كان موضوعه المرأة، بمقتصر على المسألة النسائية؛ بل هو في الحقيقة تاريخ عام في تطور الامم ومدنياتها

مطمحنا الاصلاحي
ازاء الدين
= ٣ =

ما زالت الابحاث النسائية الاسلامية ؛ تحوم حول الدين ، حتى استوفت حقها ، من هذا الوجه . فلذلك عولنا على ان نكتفي بما كتبه الباحثون بهذا الشأن ، وبما جاء في كتابنا هذا الاول

على انا كنا نود ان لا نتعرض للأبحاث الدينية ابدا ، لولا ان كلامنا التاريخي في هذا الكتاب تطلب ابداء احكام الاسلام اسوة ببقية الشرائع ، معرفة لتأثيرها الاجتماعي ؛ وليكون تمهيدا لما سيأتي عن المرأة في حضارة العرب .

غير انا مع ذلك جرينا في البحث الديني غير مجرى معظم الكتاب :

اولا : في تطرقنا الى مسائل المرأة الاجتماعية والمدنية ؛ غير مقتصرين على الطلاق ، والحجاب ، وتعدد الزوجات .

ثانياً : في اجتنابنا محاولة تطبيق احكام الدين على نظريات التمدن الحديث ، كما يفعل فريق من الناس ، حتى ليخرجوا الدين عن اصله .

درج على ذلك التطبيق كتاب الفرنجة في عصر النهضة Renaissance ، واقتدى بهم الباحثون المسلمون في الاصلاح النساني ، وقليل ما هم ، حتى لم ينج قاسم امين بك الكاتب الجريء من ذلك ؛ فانه لما الف

« تحرير المرأة » لم ير بدا من سلوك هذا السبيل مراعاة للزمان والمكان ؛ فتطلب اقناع الناس من حيث انه ليس ثمة في دعوته ما يخالف الدين .

ولكنه لما لم يجد له في هذه الخطة شافعاً ، بل توجهت اليه الانتقادات والمثالب ، وامسى كالغريق لا يخشى من البلل ، كشف عن ارائه القناع في كتابه « المرأة الجديدة » عاقدا النية على انشاد الحكمة حيث وجدها ؛ وها كم قوله عن الحجاب :

« متى تقرر ان المدنية الاسلامية القديمة هي غير ما هو راسخ في مخيلة الكتاب الذين وصفوها بما يحبون ان تكون عليه لا بما كانت حقيقة عليه ؛ وثبت انها كانت ناقصة من وجوه كثيرة ؛ فسيان عندنا بعد ذلك ان احتجاب المرأة كان من اصولها ، او لم يكن . وسواء صح ان النساء في ازمان خلافة بغداد ، والاندلس ، كن يحضرن مجالس الرجال ، او لم يصح ، فقد صح ان الحجاب هو عادة لا يليق استعمالها في عصرنا . »

اما انا فلما كنت بمقام المؤرخ ، فاذا ما الممت باحكام الاسلام النسوية ، فاني اثبتها حسبما صحت لديّ طبقاً ، غير محاول الاستنتاجات البعيدة ، لمطابقة التمدن الحديث ؛ فلا اقول مثلا : ان الاسلام لم يثبت الحجاب ، وانه هو ادنى لتحريم الطلاق ، وتعدد الزوجات ، منه للاباحة . لا اقول ذلك تشيعاً للقائلين بالحجاب والتعدد ، بل ضنا على الدين من التحور ، ولاني اعتقد بضرورة انشاد الاصلاح من غير هذا الباب ؛ وهل خير من التجدد منفذاً للاصلاح ؟

لقد تنبأت الاديان بالتطور المتصل في الكون ، وقدرت ان التقاليد التي تشيع بين امة في زمن ما ، لا تلائم كلها غيرها بعد مئات السنين

بتأثير اختلاف الافكار، وتباين مراتب الرقي؛ وتنبهت الى مغبة الجمود، وما يؤدي لانفضاض الناس من حولها؛ فلذلك رخصت للبشر، على اشكال مختلفة، مراعاة روح التطور؛ والاخذ في الاصلح

وأن الاسلام، الذي جعل اجماع المسلمين على امر هو رابع اصول الدين؛ والذي اعتبر الحكمة ضالة المؤمن، كان من قواعده «تتغير الاحكام بتغير الازمان» و «المعلول يدور مع العلة وجودا وعدماً.»

فلذلك عدلنا عن خطة فريق المطبقين من المؤلفين، راجين الاصلاح من رخص الدين هذه؛ وسواء بعد، اصح لدينا استعمال الشيء في القرون الاولى؛ ام لم يصح، فنحن في كل عصر بحاجة الى انشاد الحكمة، والاخذ بالانسب الاصلح.

ديباجة هذا الكتاب

= ٤ =

ان موضوع تاريخ المرأة جديد عندنا بل لدى كل الامم جمعاء؛ فقد كان التاريخ من قبل ينحصر ضمن دائرة اخبار الافراد والدول، وحوادث الايام ولا يتعرض للمرأة الا عرضاً.

ولكن لما عني المؤلفون بالتمدن الحديث في البحث عن حقوق الافراد، وتبيان علائقها في الجماعات، جرت اقلامهم الى حقوق المرأة فاسترسلوا فيها حتى كاد هذا العصر ان يعرف بعصر المرأة

على ان تاريخ المرأة بالوجه العام، لا يزال ناقصاً لقلة عناية الامم السالفة في تدوين اخباره. وهو وان ترقى ترقياً محسوساً منذ القرن التاسع

عشر . م . على اثر توفر العناية في التنقيب على الآثار القديمة؛ انما بقي مهملا بتاتاً عند العرب

وقد لاحظ البحاثون في تاريخ المرأة تطور العلاقة العائلية، وجريانها على اشكال . فقسم فريق منهم عهود البشر حسب ذلك التطور الى ما يأتي

اولا : عهد الامومة : وهو عهد البشر الاول حينما كانت الام مصدر النسب ومرجع العائلة

ثانياً : عهد الابوة : عهدهم الثاني حينما تحول النسب للاب واسندت اليه السيطرة والرئاسة

ثالثاً : عهد الذات : عهدهم الثالث لما شرعت في هذا التمدن تنحل الرابطة العائلية ، وبات كل من افراد العائلة : رجالا ونساء يتكل على ذاته .

وقد اضاف بعضهم الى ذلك عهدين سموهما عهد الانتقال : (فالاول) بين عهدي الامومة والابوة، وقد عد فيه كل من المصريين، والبابليين والاشوريين، ولا تزال اثاره لدى كل من قبائل الهند الامريكية، والافريقية؛ (والثاني) بين عهدي الابوة والذات، عد فيه كل من الامبراطورية الرومانية، وعصر الاقطاعات باوروبة؛ ونحن نضيف الى ذلك، عصرنا الحاضر : عصر النهضة العربية الحديثة.

فعلى هذا التقسيم في عهود البشر جرينا في هذا الكتاب، مهملين ذكر عهد الانتقال الثاني، وذلك (اولا) لان كلا من بحثينا فيه عن الرومانية، وعن النهضة العربية الحديثة، كان وجيزاً لا يحتمل التقسيم؛ فادمجناهما في عهد الابوة تبعاً لبقية اعصر الرومان والعرب؛ و (ثانياً) لان كلامنا عن التمدن الحديث هو ايضاً على جانب من الاختصار لا

يقبل التجزئة، فادخلناه كله في عهد الذات؛ مكتفين في الاشارة هنا الى ذلك هذا وما كان اسهابنا في الكلام عن المرأة في الجاهلية بهذه الحلقة الا على قصد ان يكون مقدمة متناسبة مع البحث عن المرأة في حضارة العرب، الذي يشغل كل الحلقة الثانية .

ولما كان ما اوردناه في هذا الكتاب عن المرأة في حضارة العرب، وفي التمدن الحديث، والنهضة العربية الحديثة، هو لمحة عن الحلقتين التاليتين المختصتين بتلك المواضيع، فلم نجد حاجة هنا لذكر مساندها ومصادرها

وبعد، فكما انا سنطوق جيد الحلقات التالية في بعض هدايا افاضل الجنسين، فانا نقلد هذا الكتاب بالمقالين التاليين .

(١) احكام الجاهلية : للاستاذ الشيخ هاشم الشريف : امين الفتوى

(٢) المراة في امريكة : للسيدة كاتشبرز سيلي : دكتور فلسفة

وللاستاذ من علماء الاسلام الاعلام، والسيدة من نائلات اكبر الالقاب العلمية في جامعات امريكة ؛ ولا جرم ان يكون قولها حجة وحاية

وانا في الختام نكرر رجاءنا أن يغض الطرف عن هفواتنا، لما نحن عليه بعهد التأسيس في هذا الموضوع، ولان تأليفنا يأتي على سبيل الاختلاس من مشاغلنا . على انا نرجو ممن يهمهم خدمة الاداب العربية ان يتحفونا بما لديهم من المعلومات، وينبهونا الى اطوار النهضة والعاملات العربيات، والعاملين فيها، بسائر الاقطار، وان يزودونا في انتقاداتهم الخالصة لتكون نبراساً لنا في بقية حلقات هذه السلسلة

بيروت في ١ رمضان ١٣٣٩ — محمد جميل بيهم

الجزء الاول

عهد الامومة

يرى علماء الاجتماع المتأخرون ان الام كانت في الاجيال الاولى مصدر النسبة ومرجع اولادها وبسبب ذلك صارت مظهر السلطة ايضاً ، وذات مكانة حسنة في الهيئة الاجتماعية . وقد اورد [ببل] الادلة على هذه القضية وقال : «انظروا كيف ان الحق الطبيعي وسيادة المرأة يتضحان في عوائد الامم القديمة ؛ فعند البابليين والاشوريين واليونان بعهد البطولة ، والطليان في الجانب العلوي بعصر تأسيس رومة ، ومن بلاد السيت الى الغول ومن ايبار الى جرمن تاسيت نرى المرأة منذ العهد الغابر ، نائلة في العائلة ، والهيئة الاجتماعية ، المنزلة الممتازة التي أضاعتها فيما بعد (1)».

اجل كانت الام مرجع اولادها ، مذ كان الانسان في عهد التوحش ، مسيراً بالسائق الطبيعي ولبثت كذلك حتى بعد ان أتى عليه حين من الدهر ، ونال شطرا من المدنية والشرائع. فلذلك صار عهد الامومة هذا حرياً بان يقسم الى قسمين :

١ — عهد الامومة الوحشي

٢ — عهد الامومة المدني

وعلى حسب هذا التقسيم الطبيعي ، جرينا في البحث عن ذلك العهد ، مبينين حال وشأن المرأة فيه ، استنادا على احدث المقرارات بهذا الموضوع .

⁂

---

(1) P. A. Rosler. La question Féministe. P. 142

- ١ -

عهد الامومة الوحشي

تقرر لدى العلماء ان الارض السابحة في الفضاء ، متماسكة التركيب ، متصلة الحلقات ، وان كل ما عليها وما في احشائها ، من جماد ونبات وحيوان ، سلسلة نهاية حلقة كل منها ببداية الاخرى . كما ان كل نوع من هذه الانواع : الجماد والنبات والحيوان رتب ؛ والانسان صاحب المرتبة الاسمى . ولذلك فانهم لما عمدوا الى تعريف الانسان قالوا بانه حيوان ناطق .

ثم ان التمدن الحديث نبه الى قضية ربما جهلها الاقدمون ، او لم يعنوا بها ؛ وهي سنة النشوء والارتقاء وبقاء الانسب ؛ فكاد يتقرر لديه ان ذلك الحيوان الناطق ، ان هو الا نتيجة تطورات العصور وتأثيرات الافعال الطبيعيه ، فاوصلوا بينه وبين القرد بالحلقات ، وانما فقدوا حلقة لا يزالون ينقبون عنها .

وبناء على ارتباط الانسان بالحيوانية ، وعلى تدرجه في ادوارها ، صار العلماء متى ارادوا اكتشاف مجهول من احواله واطواره ، في القرون الغابرة ، حينما كان لا يزال وحشياً ؛ عمدوا لاستنتاج ذلك بالقياس ، من طبائع الحيوان ، ولا سيما الرتبة الثانية منه المعروفة بالقرود ، او من احوال الامم المعاصرة التي لم تزل بدور التوحش .

فعلى هذا القياس ، ذهبوا الى ان الانسان في العهد الاول الوحشي لم يكن يدرك معنى الرابطة الزوجية ، كما انه لم يكن يفهم سر التوالد ، بل

evolution

الانسان الاول حسب مذهب النشوء والارتقاء



الزوجان في عهد الامومة الوحشي

كان مدفوعاً للتزاوج بدافع الشهوة الطبيعية فحسب ؛ ويتوهم بان الولادة شيء عادي تأتيه المرأة من طبيعة جسمها ، من غيرما علاقة للرجل فيه .

وان قوماً يجهلون الى هذا الحد سر النكاح والولادة ، كانوا ولا بدع لا يعرفون قواعد لهما . بل كان الامر بينهم مشاعاً ، والاولاد للعشيرة او القبيلة ، يرجعون لامهم . وبذلك كانت حياتهم فوضية ، عمومية ، اكثر منها عائلية نظامية .

وتلك الحياة ، التي استمرت مدة طويلة ، قد بقيت آثارها حتي القرون الاخيرة ، عند الامم المتوحشة ، وجدوا منها كثيراً في سنة ١٨٥٢ بعشيرة الغالبيين Galibis في بلاد غينيا الفرنساوية حسبما رواه بوريل (١) .

غير انهُ اذ شرعت حياة البشر ، تتطور تدريجاً على محور التمدن ، وأخذ نظام العائلة بتكيف بدافع الحاجة لتوزيع الاعمال ؛ كان من جملة ما تبدل سنة الزواج المشاع ، لحاجة الرجل الى معونة المرأة اياه باعمالها التي صارت مختصة بجنسها . فرغبة بهذه الاعمال بات يتطلب زوجة خاصة له ، وساعد على الرغبة بهذا الاختصاص ، ما يوجد بين الجنسين ، من الالفة والغيرة الطبيعيتين .

وربما ان الذي عقب عادة الشيوع بين الرجال والنساء ، او بتعريف آخر عادة تعدد الزوجات والازواج ، هو نظام تعدد الزوجات من غير حد ولا عد . ذلك لانهُ لمَّا استأثر الرجل بالمرأة واستعبدها ، قيَّد ايضاً حريتها بمنعها عن غيره من الازواج . اما هو فاسترسل بالاكثار من الزوجات تبعاً لعواطفه ورغبة في خدماتهن .

(١) Maurel, bull. soc. d'antrop. Juin 1884

هذا واستنتج العلماء ايضاً بالقياس على الرتب الحيوانية والانسانية المتأخرة ، ان اناث الانسان الوحشي ، كانت متساوية مع ذكوره او تكاد في مظاهر القوة الجسمية والاخلاقية . أما ما نراه الان من الاختلافات الوافرة بين الجنسين ، فهي نتيجة الاختلافات الاجتماعية ، وتباعد شقة التربية ، وثمرة توزيع الأعمال بينهما .

مثلاً ان الصفات الجنسية الثانوية للنساء ، من مثل الافراط بالخجل والجبن والبخل وغيرها هي ليست صفات فطرية جنسية ، بل كان بروزها فيهن بمظهر الأفراط عن تأثير حالة معيشة المرأة الوف الاجيال ، كما ان شكل حياة الرجل الخاصة طورت اخلاقه ، فتوسعت بذلك بينهما الميزات الاخلاقية ، حتى بتنا نحسبها جنسية .

وبعد فبناءً على ما كان بين الجنسين في العهد الاول من التشابه الكلي في القوى والاستعداد ؛ كانت المرأة شريكة الرجل في سرائه ، وضرائه ، وفي حله وترحاله ؛ وحتى في صيده وقتاله . ولما كان الحق بهذا الكون تابعاً للقوة ، أدت مساواتهما هذه في الماهية والعمل ولو نسبياً ، الى مساواتهما تقريباً بالهيئة الاجتماعية .

وانما لما ارتقى البشر بأساليب الحياة ، وتبدلت تقاليدهم الطبيعية وشرعت المرأة من ثم تنذوي في بيتها ، انحطت تدريجاً مكانتها تبعاً لانحطاط قوتها . وفي ذلك برهان على ان توسيع حلقة استعباد المرأة وتضييقها ، مرتبط بنظام الهيئة الاجتماعية ، ولا سيما بشكل الزواج وطرق الكسب وتوزيع الاعمال .

***

- ٢ -

عهد الامومة الاجتماعي

قلنا ان الباحثين في احوال البشر بعهدهم البدائي ، يستندون بابحاثهم على طبائع الحيوان الأعجم وعلى درس احوال الامم التي لم تزل حتى الان بدور التوحش ، لما بينها وبين الانسان الاول من التشابه .

فلما ان جاب علماء التمدن الحديث الامصار المتوحشة ، ودرسوا اخلاقها واحوالها درساً دقيقاً ، ترجح لديهم بالقياس ، ان النظام العائلي الاول ، كان مبنياً على قاعدة رجوع الاولاد في انتسابهم الى الوالدات ، وليس الى الاباء ، فسموا ذلك الدور عهد الامومة .

وجلاء لهذا الموضوع المهم ، عني بعض العلماء منذ خمسين عاماً تقريباً عناية قصوى بالبحث فيه ، اشهرهم ماك لينان ، ومارغان ، وليناس ، وجون لابوك ، وادولف بسطيان ، وهربرت سبنسر ، وانجلس ، ولهتورنو ، وادولف بوزادا ، وغيرهم .

فثبت لديهم ان عهد الابوة كان مسبوقاً بعهد الامومة ، لاسباب اهمها : ما شاهدوه من آثار هذا النظام الباقية لدى جملة من الفصائل البشرية في اوسترالية ، وافريقية ، والجزر الهندية ، واميركة الشمالية [١] .

فمن يتبصر في حياة بدو الهند الحالية ، ير ان العائلة لم تكن الجامعة المعروفة لدى الامم الغابرة ، بل هي العشيرة ، تجري على نظام الشيوع بالمال والاشخاص . ويثبت لديه انه لهذا الشيوع ، ولعدم تعين الاباء ، كان

(١) G. Richard, La Femme dans l'hisioire P. 85

الامهات مرجع الاولاد ومصدر نسبتهم.

ومثل ذلك ما روي عند هنود امريكة، فقد ذكر المستر مورغن عن الامار كو ما ملخصه: «ان المرأة واخواتها واولادهن، عشيرة مستقلة، وازواجهن ملحقون بعشيرة والدتهم. وزوجات الاولاد تنسب الى عشائر اخرى، كما ان هنود امريكة كلها على هذا النمط. ولم تزل هذه العوائد متبعة حتى الان في بعض المحلات. وفي استرالية يتسلسل النسب من المرأة. ولم تزل أيضاً في بعض تلك الاصقاع بقية من هذا الامر.

وكتب المستر هوويت الى تيلر، رسالة جاء فيها عن قبائل ماريبروفي كوينسلاندا «ان الرجل منهم اذا قصد التزوج من قبيلة ما، يترك قبيلتهُ وينتسب الى أهل الزوجة. واذا حدث بين عشيرة زوجتهِ وعشيرتهِ حرباً فهو ينصر زوجته ويحارب قوم والده. وقد رأيت ولداً يحارب اباه، في مثل ماذكر، حتى كاد الولد يقتل اباه، لو لم يدخل المصلحون بينهما»(١)

وعلى هذا النمط كتب كثير غيرهما، عن القبائل والعشائر المتوحشة المعاصرة، مما أيد عند علماء التاريخ فكرة اسبقية عهد الامومة للعهد الابوي الذي ساد به الرجل. على انهُ لم تكن حجة القائلين بسبق عهد الامومة استناداً على القياس على الامم المتوحشة الحاضرة فحسب، بل انهم توصلوا لهذا الاعتقاد بناءً على ماعرف من سلطة الام عند بعض الامم الغابرة: كالمصريين واليونان والليسيين. قال هيرودوت شيخ المؤرخين: «اسأل ليسياً من هو؟ فيذكر اسمه ويتكنى باسم امه فجدته». وناهيك في جملة براهين اخرى، فقال بعضهم بأن طبيعة المرأة واتصافها بالضعف، يقضيان عليها

(١) مجلة الكوثر س ١ ص ٣٢٦

بالسكون الذي يستدعي الألفة والاجتماع حولها . واضاف فريق آخر الى ذلك ان الرابطة بين الام والولد ، هى اوثق بالفطرة مما هي بين الوالد وولده .

وعندي ان تعليل شارل لوتورنو بهذا الشان يفضل عن سواه، حيث قال « ان قصور البشر في عهدهم الوحشي ، عن ادراك العلاقة بين انتاج الاولاد وبين التزاوج ، كان باعثاً لقيام نظام العائلة على قاعدة الامومة ، هذا النظام الذي دام طويلاً بعد ان اصبح سرّ التزاوج من المعلومات العامة »[1] ذلك لانه من الطبيعي ان الرجال الذين لايدركون العلاقة بينهم وبين اولادهم إمّا لجهل في سرّ التزاوج، اولشيوع النساء بين الرجال واختلاط الانساب، لا يهتمون بالاحتفاظ انتساب الاولاد اليهم .

. . . .

وبعد فقد يُظن لاول وهلة أن العهد الذي تكون به المرأة مصدر النسب ، حريٌّ بان يجعلها كذلك مصدر السيادة . انما بالحقيقة لم يكن لها وقتئذ ايضاً مساواة مطلقة ، بل ولا حرية تامة .

اجل كانت المرأة مصدر الحقوق الاجتماعية المتبادلة؛ الا انها ما كانت بالفعل تستفيد من ذلك بقدر ما تستدعيه وظيفتها . فلم يكن لها رآسة عمومية، ولا

(1) C. Letourneau, La condition de la Femme P. 494

عائلية ، وانما كانت السلطة لأخيها على اولادها . فالخال كان بما لاخته الوالدة من الحق صاحب النفوذ على عائلتها . وقد شوهد ذلك في الامم المتوحشة الحاضرة .

غير ان المرأة في عهد الامومة كانت مع ذلك اوفر مساواةً من كل عهد تاريخي آخر ، اذ لم تكن طبيعة ذلك العهد ، لتساعد على الحط من مقدرة المرأة ومنزلتها . فقد كانت تتولى احيانا الاعمال الحيوية والسياسية ؛ كما شوهد ذلك بالقرن التاسع عشر في عشيرة هوفس ، في جزيرة مدغسكر قبل احتلال فرنسا لها؛ فأن حكومتها كانت في اجيال متوالية تدار بقبضة ملكات من تلك العشيرة الوطنية ، يزاولن السلطة في مساعدة ازواجهن ، الذين كانوا لهن بمثابة وزراء .

هذا ومن جملة مادلهم على مكانة المرأة في عهد الامومة ماوجدوه بين عوائد الامم الغابرة من عادة الاثئار لها ، وذلك لما في الحرص على الثار ، من الاشارة لاهمية المثئور له. وان الروايات التي اوردها كورنكتن في آخر كتابه عن جزر السود ، في بحر المحيط الهندي Melanésie تبسط لنا أمثلة بينة عن الاعتقاد بوجوب الاثئار للام ، مهما كلف من التضحيات .

على ان معاملة المرأة بذلك العهد ، كانت تختلف كثيرا بحسب صفات الشعوب وشروط الحياة عندهم وتقاليدهم الخاصة. فان كلاً من المكرونيين في جزر المحيط الهندي Micronésiens والاسترالين لايزال يعيش في عهد ونظام الامومة ، ولكن شتان بينهما في معاملة المرأة فالاوسترالية المتوحشة ، وان كانت لم تزل مثل شقيقتها في جزر « ماليه » صاحبة النسب ، وان كان اهلها ايضاً حريصين على الاثئار لها ، الا انها لاتزاول ابدا الاعمال الاجتماعية

التي ترفع اترابها بالجزر الهندية وفي بعض الشعوب الافريقية .

واما المرأة الميكرونية جارتها ، فلها من حق الامومة كل النتائج الحسنة التي يمكن للمرأة ان تصل اليها . حتى انها اصبحت تستشار في الاعمال الادارية والاقتصادية ، وترث زوجها متى مات ، وهو لا يرثها بل يصير ما تخلّفهُ الى اولادها واهلها [1] .

فلهذا الاختلاف الذي لم يزل يشاهد في حال المرأة عند الامم التي تعيش بعهد الامومة ، لا يمكن اعطاء حكم عام على منزلتها في ذلك العهد . انما يمكن ان يقال بانها كانت غالباً على مقام حسن بالهيئة الاجتماعية .

واما الوالد فانه وان كان يتخلى عن السلطة على اولاده لخالهم ، فانهُ مع ذلك لا يكون غريباً عنهم تماما ، ولا غير مهتم بهم ؛ بل قد يبقى له عليهم بعض الامر .

---

(1) G. Richard, la Femme dans l'histoire P. 105

الجزء الثاني

عهد الانتقال

لما كانت الطفرة مستحيلة ، فقبل ان تمّ للبشر الانتساب للوالد ؛ جروا على منهج مشترك كان فيه نوع من التوازن بين حق الامومة والابوة ، وذلك ماسميناه بعهد الانتقال .

ذكرنا ان عهد الامومة نتج عن عادة شيوع النساء بين الرجال ، فلذلك رأى علماء الاجتماع ان هذا العهد انقضى بانقضاء سنة الشيوع المذكورة بحكم انه اذا زال السبب بطل المسبب . انما اختلفوا في الاسباب التي ساعدت على اضمحلال تلك السنة وذلك العهد . واشهر الآراء في ذلك قول هربرت سبنسر والمذهب الذي ايده فردريك أنجلس .

فاما سبنسر فانه يعزو ذلك الانتقال الى ما تستدعيه الحياة الحربية التي استحكمت بعد تزاحم البشر من صفتي القوة والبأس اللتين هما من صفات الرجال لا النساء(١) . واما انجلس الذي يكيف نظرات لويس مرغان فانهُ يعزوه الى تبدل اسباب المعاش والاستثمار ، والى توزيع وسائل البقاء (٢) ويقصد بذلك ان عادة شيوع النساء وفوضية الزواج قد تلاشت على اثر تلاشي ما كان في عهد الامم الاولى من شيوع المواد الغذائية ،

(١) H. Spencer, III. partie 284 à 304

(٢) Engels, dans propos ch I à IX

وعدم الاختصاص بالتملك .

ومابقي الناس يعيشون من اثمار الارض التي تحصل عن غير عمل مقصود منهم ، فانهم لبثوا يحفظون خواص عهد الامومة التى تجعل الرجل والمرأة على مستوى واحد من المساواة. وقد استمرت تلك العيشة الطبيعية مدة الادوات الحجرية الحادة ؛ انما لما لجأ البشر لاستخدام الحيوانات والادوات المعدنية مقام الحجرية ، ثم زاولوا الحراثة الجدية ، نشأت لديهم الحقوق الملكية بدل الحقوق الشائعة ، وشرع الرجل العامل الحقيقي في ذلك المعترك ، يستلب من المرأة ما كان لها من حق النسب ، ثم ما كان لها من المنزلة.

على ان هناك رأياً آخر جديراً بالذكر لغاسطن ريشار يذهب فيه الى ان هذا التحول جرى بتأثير الدين ، ويفصل ذلك بأن الخال الذي كان في عهد الامومة كأب لاولاد اخته ، لم يكن يخلو من التردد بين العاطفة لهم والشعور لاولاده ، فلما شاع في العالم القديم دين عبادة ارواح الموتى ، واصبح عندهم ملك الاحياء كرهن لدوام تكريم الاموات ، حينئذ بالاضافة الى دافع الشعور الابوي ، عطف الرجل للميل الى تقديم ابنائه على ابناء اخته ، اعتقاداً منه ان ولده اذا لم يرث فلا يكون هو اميناً على ان التضحيات الواجبة تقدم له بعد موته.

وقد اشار الى ان اكثر الامم الوحشية المعاصرة تمسكاً بعبادة الارواح ، هي احفظها لعهد الامومة .[١] واتى على ذلك بالامثلة الكثيرة مما لا مجال لذكره هنا .

وعلى ما ارى انه وان كان على إصابة في فكره ، انما لا يصح له ان يدفع القولين الاولين كما فعل ، لأنه قد يكون العامل لابطال عهد الامومة

(١) G. Richard, La Femme dans l'hisoire P 152

متحد الاشتراك بين كل من الاسباب التي ذكرها اصحاب الآراء الثلاثة

هذا ولما كنا قد عولنا على كشف سر تطور المرأة في ادوار التاريخ ، وكان المصريون والبابليون والاشوريون ، هم اشهر الامم التي عاشت في عهد الانتقال ، فلبيان شأن الجنس اللطيف في ذلك العهد نعمد الى ذكر حاله لدى كل من هذه الامم ، مبتدئين بمصر لان تمدنها اشهر ما عرف من حضارات البشر .

***

- ١ -
المرأة عند قدماء المصريين

لم تكن الامة المصريـة جارية على سنة عهد الامومة تماماً ، لان شريعتها الوراثية لاتعترف بشيء من امتيازات ابن الاخت ، وثانياً لان تشكيلها العائلي الذي بموجبه تسعى المرأة لدار الرجل فتكون مرئوسة له،هو يخالف مميزات ذاك العهد . ثم لم تكن الامة المصرية ايضاً على نظام دور الابوّة طبقاً،لان المرأة المصرية كانت مساوية للرجل في العائلة وخارجها، فترث اسوةً باخوانها وتنتخب زوجها ، ومتي تروجت يبقى لها الحق في التصرف والعقود (١)

فهي اذاً كانت في دور الانتقال . ولمعرفة منزلة المرأة في ذلك الدور يجب ان نلم بجميع احوال المرأة المصرية .

الدين وتشكيل العائلة

كما ان الاديان تؤثر في تطوير مناهج الامم فهي ايضاً خير انموذج لمداركهم وحركة ارواحهم وعواطفهم ، ولهذا الاعتبار ولكشف القناع عن المرأة المصرية في عهد الانتقال ، نعمد للتدقيق في دين قومها

يستفاد من تاريخ البشر الاجتماعي انه كان للجماعات الاولى في كل مكان ، رمز ديني يسمى طوطماً .وهو غالباً حيوان تعبده تلك الامم وتنتسب اليه ، وتظن بانها من نسله فتعرف به .

(١) G. Richard, La Femme dans l'histoire P 155

وعلى هذه القاعدة جرى المصريون في اصول عبادتهم وتشكيل جماعاتهم ، ولكن نظامهم الاجتماعي ، لم يلبث ان تبدل تدريجاً ، وانتقل النسب للوالدة فصار الاولاد ينتسبون لامهم . وقد دام ذلك كل عصور الحضارة المصرية الى ان استولى عليهم البطالسة ، وحكموهم منذ سنة ٣٢٣ الى ٣٠ ق . م . فبثوا فيهم التمدن اليوناني ، الذي حور وغير في شريعة مصر وتقاليدها .

بيد انه مع ذلك ، فان عادة نقش اسماء الموتى على القبور بالخط الهيروغليفي ، ونسبتهم الى امهاتهم لبثت موجودة ولو نادراً حتى في عصر مصر اليوناني [١]

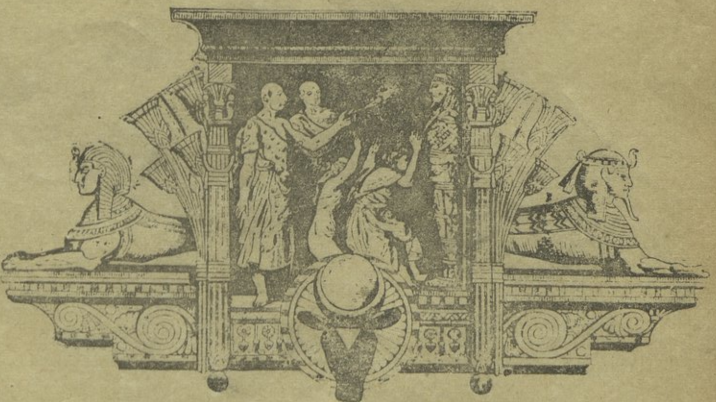
وتحول الدين ايضاً ، عن عبادة الحيوان ، الى عبادة الانسان ، فصار المصريون يدينون لبعض اعاظم رجالهم . ويستفاد من قراءة صحيفة (بابيروس انسطازي) انه كان لهم في البداية ثلاثة آلهة فقط : [عمون] المخفي و[بتاك] الدائم و [را] باني المدن . ثم اندمج هؤلاء الثلاثة في [اوزيريس] وعدّوا اقانيم له . فاوءموا الى هذا العاهل القديم المصري بانه رمز النور والشمس ، وكانت اخته [إيزيس] التي هي زوجته شريكة له في شرف الالوهية . [٢] وطلباً للحبل كان النساء والرجال يأتون هيكل اوزيريس في منف ويجتمعون فيه جهاراً [٢] .

على انهُ كان لدى المصريين إلهة اخرى ، لها مقام اسمى من ايزيس في هيكل المصريين ، وهي (نيت) Neith النازلة في الشمس ، والمرموز اليها بانها مصدر الطبيعة .

(١) C. Le tourneau, La condition de la Femme P. 329

(٢) P. A. Rosler, La quéstion Feminisie P. 135

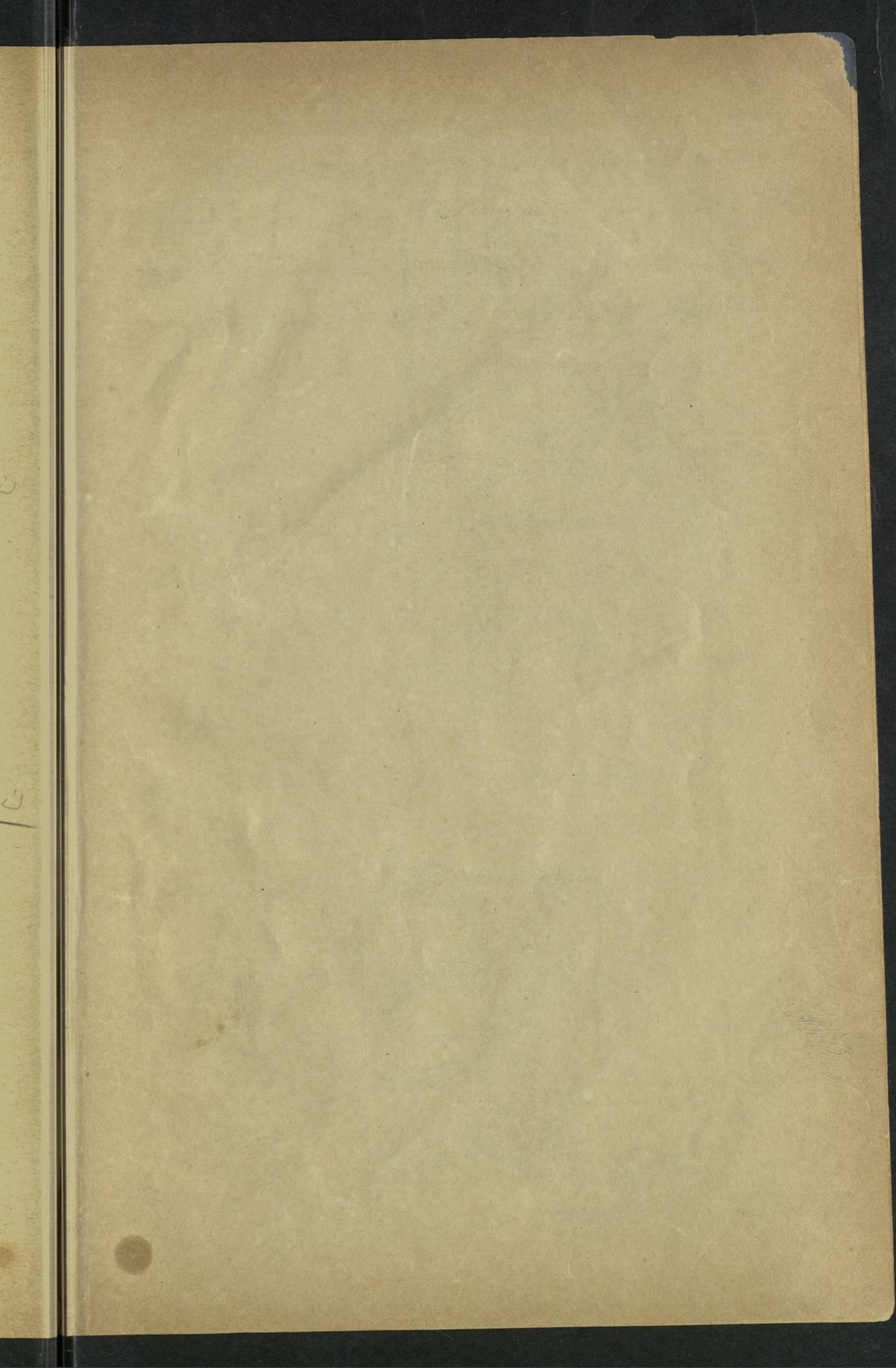
(٢) ميخائيل عبد الله غبريل اساطير الاولين ص ١٥٨



هيكل مصري قديم



البقرة المقدسة التي تمثل ايزيس معبودة المصريين



فبناء على ان الدين هو صورة اخلاق الامة، فان تأليه المصريين الجنس اللطيف اسوة بالجنس القوي، فضلاً عن منحه اياه حق المساعدة، في وظائف خدمة الالهة، اشارة الى اعتبار المراة بحضارتهم، في درجة حسنة. هذا وفيما سنورده على ذلك من الادلة التاريخية، تأييد لهذه الاشارة.

المراة بالهيئة الاجتماعية

ليست المراة المصرية وحدها في القرن العشرين، حرية بان تحسد جدتها على ما كان لها في عصر الفراعنة من المكانة في الهيئة الاجتماعية. بل قد يسوغ للغربية التي هي قدوة بنات النيل الان ان تغبط المصرية على ما كانت عليه في تمدنها القديم.

بل ان مصرية اليوم، التي تسعى للنهوض الى مستوى الرجل، والتي تصيح متظلمة منه، ماعليها الان تشكو، من الاوروبي الذي كان العامل الاول لتقييدها منذ القدم:

منذ عهد الفراعنة الى قيام الحكم اليوناني المكدوني في مصر، كان للمراة في الهيئة الاجتماعية مثل حقوق الرجل [1] حتى في العرش. فكان لها احياناً نصيب منه وفي جدول ملوك مصر خمس ملكات [2] وفضلاً عن ذلك فانه كان لزوجات الفراعنة سلطة في سياسة بلادهم نافذة غير قليلة. والابنة على العموم متى بلغت لا تصبح حرة فقط، بل انها تصير مديرة لاموال وعقارات العائلة. وقيل بانها تمسي المكلفة الوحيدة في اعالة اهلها [3].

ولما كان الغرم بالغنم، وهذا امر طبيعي، فمثلما كان لها بالهيئة

---

(١) C. Le tourneau, La condition de la Femme P. 342

(٢) P. A. Rosler, La question Feministe P. 137

(٣) Herodote II· P. 35

الأجتماعية المصرية من الحقوق، كان عليها من الواجبات، اسوة بالتمدن الحديث. وقد ذكر هيرودوتس كيف ان نساء مصر كن يذهبن للمتاجرة في الاسواق في حين ان رجالهن كانوا يشتغلون في البيوت بنسج الاثواب. هذا فضلاً عن ان رسوم قبور المصريين لاتزال ترينا كيف ان القرويات كن يشتركن مع الرجال بحرث الحقول والزرع والحصاد وسحب المواشي وغيرها، من الاعمال الحيوية. وناهيك بما وصل الينا عن اشتراك بعضهن بالعلوم العالية، مثل أكانيس واتيرتا ابنتي الملك سيزوسترس الفلكيتين؛ وكالموءلفة الفيلسوفة بامفيل (١).

انما لما حكم البطالسة اليونان مصر، اثروا في انقلاب سنة الهيئة الاجتماعية فيها، وسلبوا كل سلطة للمراة، والقوها في قبضة الرجل.

المرأة بالعائلة

ما من امة كمصر خففت من السلطة الفردية بالعائلة، واقامت الروابط الاهلية على قاعدة المساواة والتوازن. فالوالدان لم يكن لهما سلطة واسعة على اولادهما، اسوة ببقية مدنيات الامم القديمة، التي بلغ من بعضها منحهما حق الاحياء والاماتة.

كانت الابنة المصرية اذا بلغت، تصبح مستقلة بامرها؛ حتى اذا ما ارادت ان تتزوج يتوقف ذلك على رضى الزوجين فقط، وكان المصريون قليلي الغيرة كثيري الزواج، لايهتمون بكتابة العقود متى اتفقوا على القران. ويتم الزواج عندهم، بين الاخ والاخت، واحياناً قليلة بين الاب والبنت؛ ولكن على كل الاحوال، كانت المساواة بين الرجل والمرأة تكاد ان تكون تامة.

(١) H Rebière, Les Femmes dans la science P 2, 24, et 192

كيف تتسنى المساواة بين الجنسين ، مع تعدد الزوجات عندهم ؟ وكيف يحفظ هذا التعدد حقوق المراة ؟

سوآلان يردان لما في نفس تعدد الزوجات ، من منافاة المساواة . والجواب على ذلك ان نظام الهيئة الاجتماعية بمصر كان يقسم الناس الى طبقات متمايزة ، ولا يسمح للرجل بالزواج عادةً الا من طبقته . واذا تزوج فليس له العقد على اكثر من واحدة . وهكذا فان امراته التي هي من طبقته تبقى مساوية له تقريباً في كل الحقوق العائلية . ولكن يسوغ للرجل التسري من غير حد ، على ان تكون زوجته سيدة سراريه ؛ واما الاولاد فلا ميزة بينهم اياً كن امهاتهن

ويرجح ان عادة تعدد الزوجات شاعت فيما بعد كثيرا اذ اقتفى الشعب فيها اثر ملوكه ، ولكن منزلة المراة التي كانت متأصلة في النفوس لم تتلاش البتة مع رواج تعدد الزوجات . بل استمر مقام المراة مرعياً كما يستفاد من قول مسز لويزا إيرتس لمسدن :

« وان كان للرجل ان يجمع بين جملة نساء . غير ان اللاتي كن من طبقته لبثن معه على مستوى واحد من المنزلة . فتسكن كل منهن منزلا مستقلة فيه بنفسها حتى اذا زارها بعلها تستقبله كضيف » (١)

والظاهر ان الذي اثر على بقاء حرية المرأة واستقلالها في الحضارة المصرية الوفاً من السنين هو نظام الاراضي عندهم . فان تملكها كان محصورا بالملك والطبقة الممتازة والكهنة والقواد . فلم يبق لعامة الناس ما يستدعي الاهتمام بالتملك وبالوراثة .لعدم اهمية اموالهم المنقولة ولذلك ذهبوا الى المساواة بالارث بين الجنسين

(١) iss L. J. Lumsd[illegible]n, La Femme P. 51

غير انهُ لما سن فرعون بوخورس شريعة تطرق فيها لمنح الاعيان ايضاً حق تملك الارضين وخيف بعد من استئثار الرجل . عقب ان شاع تعدد الزوجات عمدت المرأة الى كبح جماحه بكتابة العقود

وشرعت تثبت ما تشاء فيها من الشروط . حتى بلغ منهن ان احداهن كانت تشترط اذا تزوج من غيرها ، ان تكون املاكه كلها تنتقل الى ولده منها ، وجرى بعضهن في الاشتراط على ان يكون لهن حق الطلاق . إما اسوة بالرجل ، او على الاختصاص بهن

و بسبب هذه العقود خفت حوادث تعدد الزوجات ، كما انه انتقل معظم الاموال الى النساء يتوارثها اولادهن ، الى ان صار الحكم الى فيلو باتور احد البطالسة اليونان واصدر امره بعدم نفوذ تصرفات الزوجات الا باجازة ومصادقة بعولتهن ، فوضع المرأة تحت الوصاية . وجعل الرجل من ثم مصدر الثروة وصاحب الحق في توزيعها ، (١) فانحطت المرأة واخذت بالانحدار . وكان هذا الانقلاب بتأثير المدنية اليونانية وتغلبها على المصرية تباعاً . ولا بدع فالناس على دين ملوكهم .

المراة دون الرجل

ذهب بعض علماء الاجتماع الى ان المرأة المصرية كانت هي والرجل على مستوى واحد في الحرية والمساواة ، فقال ببل (Bebel) ان اليونان وبينهم اهل اثينا هم البادئون في تمييز حقوق الرجل

بيد انه اذا دققنا في التاريخ نجد ان المساواة المطلقة ربما لم توجد في العالم قط بين الجنسين . فهذه المرأة المصرية مع حفظها المنزلة الشريفة

(١) C. Letourneau La cenditien de la Femme P. 543-344



المرأة دون الرجل

الملكة في ثوبها الشفاف تسكب الى امينوفيس الرابع Amenophis IV

« من نقوش تل العمارنة في مصر Tell-El-Amarana »

التي خصصتها بها الطبيعة، ومع انها كانت مصدر النسب، مابرحت تحت سلطة الرجل، فلقد شوهد بين نقوش المقابر ان احترام النساء كان بنسبة تقديسهن للحقوق الزوجية وامانتهن لازواجهن

على ان ما وصل الينا من الآثار التي تحكى بعض الوصايا للرجال بان يعاملوا زوجاتهم المعاملة اللينة يشير ضمناً الى ان هذه المعاملة كانت غير مرعية غالباً

ومما يضعف فكرة المساواة على اطلاقها، نظامهم في وراثة العرش فانه وان كان للمرأة عندهم حق التاج الا ان ذلك الحق ما كان ليتم لها الا متى فقد الوارث من الذكور، ومع ان هذا النظام سُن قبل المسيح بثلاثة آلاف سنة حسب رواية ديودور، فان جدول ملوك مصر لم يذكر غير خمس ملكات ازاء اربعمائة وسبعين ملكاً[1]

هذا ومن ادلة ميزة الرجل عندهم ايضاً، ان المرأة ولو ارتقت الى العرش كانت تشعر بانها في مقام هو للرجل وليس لها، فان الملكة هتشبوت التي حكمت قبل ١٥٥٠ سنة من المسيح كانت مجبرة على لبس ثياب الرجال مراعاة للرأي العام[2].

فاذاً فان كل استقلال ومساواة ينسبان للمرأة المصرية هو نسبي، والرجال كانوا قوامين على النساء

***

(١) P. A. Rosler la questien Féministe P· 137

(٢) L. J. Lumsden La Femme P 3s

-٢-

المرأة البابلية والاشورية

مابين الفرات والدجلة عاش شعب في الايام الغابرة بلغت لديه الحضارة القديمة اعلى درجاتها . شعب كان نسياً منسياً حتى الآونة الاخيرة ، ولكنه خرج الآن من بين الرمال المكردسة في اثناء اجيال عديدة ، وانتفض انتفاض العصفور ، فظهر للمؤرخين الحديثين بغير المظهر الذي صوره عليه المؤرخون السابقون ، شعب جعلته الاكتشافات الأثرية الاخيرة حياً يذكر في التاريخ بعد سكوت مايزيد على ثلاثة آلاف سنة رافعاً رأسه مفتخراً بمدنيته .

— ذلك هو شعب بابل وأشور —

بنيت نينوي عاصمة اشور على الدجلة ، وشيدت بابل عاصمة الكلدان على الفرات ، فتنافستا زمناً في الحضارة ، ثم تغلبت اشور على بابل ، قبل ١٣١٤ عاماً من المسيح [١] ولبثت قائمة حتى تغلب دولة الماديين سنة ٦٢٧ ق م [٢] عليها

ان شرائع وعوائد اشور مؤسسة نوعاً ما على الشريعة الطبيعية . ولكن العواطف والمصالح بدّلت هذه المبادئ عندهم اكثر مما تبدلت لدى المصريين في كرور الازمان .

كان الاشوريون منذ ١٥٠٠ سنة قبل المسيح يشكلون اعتقاداتهم

(١) M. A. Riquier Histoire ancienne ,Orient' P. 4

(٢) Dictionnaire Larousse P. 891

بالالوهية على شكل مملكة تحت رئاسة ثلاثة آلهة. ثم انهم جروا مجرى المصريين في صرف العبادة لمؤسس المملكة وتأليهه عوضاً عن الارباب الاول وتوسعوا حتى عدوا ملوكا وقوادا وعلماء في مصاف الآلهة، منهن الملكة سمير اميس (١) كما انهم جروا مجرى الفينيقيين في اقامة زوجة للملك سموها «استار» وقدسوها معه. وقد شهد هيرودتس بشخصه الحفلات التي من تقاليدها اباحة النساء من كل الطبقات انفسهن للرجال تقديساً لهذه الإلهة (استار) (٢) جرياً على سنة الفينيقيات.

وعلى دين اشور جرى البابليون، كما جروا على منهجهم في سائر شؤن الحياة لاشتراك الامتين في التأثر من طبيعة البلاد.

فان غزارة المياه في ذلك المصر ووفرة المحاصيل فيه ثبتتا في نفوس كلتيهما اخلاق الكسل والرخاء والانصراف الى الملذات والتخنث، حتى صار اهل ذلك القطر كما وصفهم بعد ذلك «هيبو قراط» الذي عاش في القرن الخامس قبل المسيح حيث قال «كسالى قليلو الصبر على التعب. عبيدو السرور لاتلوح عليهم سيماء القوة. ولا ملامح النشاط» (٣)

وكانت الشرائع عندهم لا تسوغ للوالدين ان يزوجا ابنتهما بمن صلح لها، بل تقضي على العذارى البالغات ان يجتمعن كل عام حيث يبيعهن الكاهن بالمزاد العلني، مشترطاً ان يتخذهن المشترون زوجات لهم. واذا وقع خلاف بين الزوجين، كان على ولي المرأة ارجاع ثمنها قبل الافتراق. وكان محتوماً على كل امرأة ان تأتي مرة واحدة في حياتها الى

(١) مخائيل عبد الله غبريل اساطير الاولين ص ٤٨

(٢) P. A. Rosler la question feministe P. 140

«٣» مخائيل عبد الله غبريل اساطير الاولين ص ٤٩

هيكل ميليتا ربة الجمال ، لتبيح نفسها الى اجنبي فكن يجلسن في الهيكل صفوفاً ، وبينهن طريق يمر فيها الغريب قصد الانتقاء . فاذا اعجبته احداهن رمى قطعة فضية عند قدميها وقال لها « انني اتوسل من اجلك الى ميليتا » فتقبل الهدية المقدسة وتتبعه، وان كان حقيراً قبيحاً. وكان لا يسوغ لمن دخلت الهيكل ان تعود الى منزلها قبل القيام بهذا الفرض الديني ، وبسبب ذلك كان القبيحات قد يبقين في الهيكل منتظرات سنين محرومات من ازواجهن واولادهن (١)

ومع ذلك فقد لوحظ في الشريعة الاشورية بين المواد المستعارة من الاكاديين القدماء (٢٥ الى ١٨ قرن ق.م) اثار ميزة للامهات على الاباء . من ذلك ان الولد الذي يزري بابيه يدفع جزاء نقدياً ولكن اذا اهان امه يحلق رأسه ويمنع عنه الغذاء واحياناً يلقى في غيابة السجن المظلم (١)

وبعد فالذي يقابل بين تلك العوائد يظهر له كيف ان البابليين والاشوريين كانوا من اهل عهد الانتقال، فبينا نراهم غير حريصين على حفظ الانساب متحفظين بارجحية الام شان عهد الامومة، نجدهم في آن واحد يملّكون ناصية النساء من الرجال حسب نظام عهد الابوة.

ولهذا السبب انشقت آراء العلماء بشأن منزلة المرأة عندهم، فبعضهم ذهب الى انها كانت حسنة مثل ببل، وآخرون برهنوا على سوء حالها ومنهم روسلر والذي نراه انها كانت في بداية عهدهم على حد وسط ثم تدرجت حتى صارت في آخره بحالة الاستعباد

---

(١) P. A. Ro.l.r, La questicn Feministe P. 137

(٢) M. A. Riquier H'st. Anc. 'Crient' P. 8

الجزء الثالث

عهد الابوة

لما ترقت شؤون البشر الاقتصادية وازدادت مطامعهم الدنيوية وصار الرجل هو العامل الرئيسي في الجهاد الحيوي وخدمة الفكرة الدينية، تبدل نظام العالم الاجتماعي واستأثر الرجل في حق اعطاء النسب لاولاده، كما جرى على سنة تخصيص جملة نسوة لشخصه. فبعد ان كانت النساء مشاعة صار الزواج اكثر تقيداً على ان ينضم الرجل الى المرأة واهلها. ثم ان الرجل المتغلب بالتدريج لم يلبث ان جعل طريقة الزواج تتحول الى الشكل المعروف الآن من حيث سعي المرأة لدار زوجها

ففضلاً عما فقدته المرأة من القوة المعنوية في تحول الانتساب عنها فان هذا التبدل في نظام الزواج كان وحده كافياً لان ينزلها درجات كثيرة عما كانت عليه في عهد الامومة. اذ انها في دخولها بين نساء زوجها لم تفقد سيادتها التي لها حين كان بعلها ينضم الى اهلها فقط؛ بل اخذت تصير رقيقة وضيعة. دأبها التزلف اليه والتصنع له طلباً للاختصاص بقلبه والتمتع برضاه.

على انه يجب ان لا نغفل عما كان للحروب من التأثير باستعبادها كما فصل ذلك ماك لينان. فكثرة النساء بسبب وفرة ضحايا الرجال في الحروب، ثم وفرة الأسرى من الجنس اللطيف، ساعدتا بالاضافة الى ماحدث

بالحروب من تأليه القوة على رواج تعدد الزوجات وتدلل الرجل واستبداده.

هذا وان الفكرة الحربية العامة في ذلك العهد لم تجعل السلطة بيد الرجل لمجرد ما كان له من القوة التي هي حاجة الزمن فحسب. بل ان تجرد الجنس القوي للحروب، جعل الجنس اللطيف ينصرف للزراعة والصناعة فضلاً عن ادارة المنزل؛ وبالنظر لما صار للنساء من الخدمات في ذلك، اصبح الاغنياء في حاجة ماسة الى الاستكثار منهن؛ وبات هذا الاستكثار من ادلة الثروة، مثلما ان وفرة العمال في عصرنا من جملة علامات الغنى.

هذا ويقتضي ان لا نسهو ايضا عما كان لعبادة الارواح من التأثير في تحول السلطة ليد الرجل وحده. ذلك لانه كان من مبدأ عبادة الارواح اعتبار المملوكات كرهن لاستمرار عبادتهم المالك بعد موته فلما اختص الرجل بالوراثة ومُنعت منها النساء لحرمانهن من حق خدمة هذه العبادة، دخلن في سلطة الرجل للحاجة الى عولهن.

على ان مميزات عهد الابوّة تظهر لنا جلياً فيما سنورده بهذا الجزء عن تاريخ المرأة في سائر المدنيات الشرقية، هذا واما الامة العربية فانها وان تعتبر من جملة عهد الابوّة، الاّ انها لما كانت هي المقصودة في تأليفنا، سنفرد لها فصولا مسهبة مستقلة.

***



زوروستر الذي يعزى اليه وضع مذهب الماديين *Mazdéisme* ولم يقرر بعد فيما اذا وجد هذا الرجل أم ان اسمه من موضوعات الناس

- ١ -

المرأة الفارسية

اورد الاب روسلر النمساوي انه كان للفرس في عهدهم الاول اعتقاد مذهبي عال جداً وعوائد طاهرة ايما طهارة [1] ولكن لما خضع الماديون والفرس لجارتيهما اشور وبابل في القرن الثالث عشر ق. م. [2] اقتبسا منهما بعض عقائدهما وتقاليدهما بحكم ان الناس على دين ملوكهم.

ولم يلبث اهلهما ان حادوا عن السابلة القويمة وعمدوا لتاليه اجزاء الطبيعة من نار وكواكب اقتفاء بالكلدانيين. وينسب الى زورواستر الذي كان في الجيل العشرين قبل المسيح ادخال الوثنية اليهم، وذهب بعضهم الى ان اورميزد إله زورواستر هو من معبودات اشور [3]

ولما كانت الدنيا دار دول لم يلبث ان صار المغلوب غالباً ومع ذلك فلم يستقل الفرس عن المدنية الكلدانية:

فقد تغلب الماديون على اشور سنة ٦٢٧ ق م [4] ثم صار الملك للفرس في حكم قورش سنة ٥٥٩ [5] فجمع لدولته امصار اشور وبابل وغيرها ولهذا السبب تم اقتباس قومه من بعد، ما اهملوه من تقاليد الكلدان

---

(١) P. A. Rosler, La question Feministe P. 144

(٢) M. A Riquier Histoire ancienne Orient P. 107

(٣) مخائيل عبد الله غبريل — اساطير الاولين ص. ٥٠

(٤) Dictionnaire Larousse P. 8

(٥) مخائيل غبريل — اساطير الاولين ص ٤٣

وصار شأن الفارسية مثل حال المرأة الاشورية في اواخر دولة اشور على انحطاط تام حتى قيل بان الفارسي له حق التصرف بها كأنها سلعة وان يحكم عليها بالموت (١).

ويؤيد هذا ان كزينوفون الذي بحث عن التعليم في فارس لم يذكر كلمة عن تربية البنات ، لاهمالهم العناية بتربيتهن التربية الاجتماعية بالنظر لقرارهن محتجبات في البيوت .

ولما كان شأن المرأة الفارسية وقتئذ شبيهاً كل الشبه بالهندية والصينية معاصرتيها من حيث الاستعباد ، نكتفي بما فصلناه عنهما فيما بعد حباً بالاختصار



(١) قاسم امين تحرير المرأة ص ٢٣

- ٢ -

المرأة التركية والمغولية

كان الاتراك والمغول قبل الاسلام بدواً رحلاً جل معاشهم من الماشية ، ومعظم كسبهم من الغزو ، فلذلك ولما كان اعتمادهم على القوة فقد رفعت تقاليدهم الرجل بقدر ما اسقطت منزلة المرأة.

واثرت الحروب ايضاً في استعباد التركية مثل تأثيرها العام في كل الامم الحربية بسبب ما انقصت في عدد الرجال واكثرت في عدد الاسيرات والنساء فامسى الرجل يترفع عن العمل ، الا ما كان من قبيل الغزو تاركاً لنسائه العديدات كل شؤون الحياة

وقد لبثت هذه العادة عندهم حتى بعد الاسلام وبعد ان تحضروا ؛ فان الرحالة ابن بطوطه استغرب ان يرى النساء يتعاطين الاشغال في الاسواق بينما كان الرجال لائذين بالبطالة (١) ومثله الرحالة مار كوبولو الذي قال « فالنساء يشترين ويبعن ، اما الرجال فلا يتداخلون في شيء من ذلك وانما همهم الصيد والقنص وتربية الطيور الصيد وركوب الخيل بسرور » (٢)

وقد ايد ذلك المؤرخ التركي اميري ، وبين سوء حالة المرأة التركية ولكن يستفاد منه انها متى صارت اماً كانت تصبح على شيء من المنزلة واليك قوله « كانت المرأة التركية بعد سقوط دولة آغا خان التركية في الهند خاملة جداً ، حتى انها لم تكن تستعمل الا لقضاء شهوة الامراء

(١) قاسم امين تحرير المراة ص ١٣٣.

(٢) للمؤلف فلسفة التاريخ العثماني ج ١

(٣) P A Rosler quest Feministe P 144

(٤) C. Le tourneau la Cand. de la Fem· P 212-13

والاعيان . فكن يجتمعن آحاداً وعشرات في بيت امير او زعيم واحد فيخلد الى التلذذ بهن وفي النهار ينصرفن لحرث الحقول وذرع البقول . ثم كان الزعماء يقدمون احترام امهاتهم على كل شخص . فكانت تلك النسوة او الجواري يقمن بوظيفة الخادمات لامهات بعولتهن . غير انه اذا لاحظت العناية احداهن بالولادة انتقلت من دور الاستعباد الى دور الراحة الى ان ينشأ غلامها وتروجه فتكبر منزلتها[١] وتصبح مخدومة .

ويظهر انه كان لبنات الشرف ميزة خاصة في عائلاتهم فقد ذكر ليون كاهن ان الاميرات كن ينلن نصيبهن من قيادة جيش او ملك اما بطريقة الارث او بالقسط المتأخر الذي كان غير قليل عندهم لتعيش المطلقة به[٢] كما انه كان لعامة التركمانيات الحق ان يلعبن على ظهور الخيل ويصطدن الى غير ذلك من الاعمال الرياضية

هذا وان في عوائد الامة التركية القديمة التي ذكرها الباحثون بعضاً مما يشبه تقاليد الامم الاخرى التي استعبدت المرأة .

لانذكر ما كان لديهم من حق الوالدين في اجبار البنت على الزواج متى جاء الكفوء ، ولكننا نشير الى بعض عادات غريبة لديهم ، منها انه اذا مات الاب فالابن يجبر على التزوج من امرأة ابيه . والاخ على زواج امرأة اخيه . وابن الاخ على زواج امرأة عمه[٣] ولا بدع ان يجري الترك مجرى العرب قبل الاسلام بمثل هذه العوائد الغريبة فهم سواء في البداوة والجاهلية . ويبررهم ما في شريعة اسرائيل من هذا القبيل ايضاً

« ١ » من مقال اطه بك المدور عن المرأة التركية في كتابنا التالى :

(٢) Introduction à l'histoire de l'Asie P. 50

« ٣ » للموءلف فلسفة التاريخ العثماني ج ١

براهما اول الثلاثة اقانيم التي تمثل براهم اله الهند الأعظم





بوذا البطل الهندي موسس الدين البوذي في القرن الخامس ق ٠ م

- ٣ -
المراة الهنديه

يمكن ان تقسم اجتماعياً سكان الهند الحالية على اختلاف انواعهم واديانهم الى قسمين البدو والآريون : فالاولون قوم خليط من عناصر قديمة ، متوحشون ينزلون اطراف الجبال ويحتفظون حتى الآن ببقايا عهد الامومة ؛ والآخرون هم اهل المدنيات الذين تطوروا تدريجاً بتأثير الاديان البرهمية ، فالبوذية ، فالمسيحية ، ثم الاسلامية .

فان اردنا ان نعرف تاريخ الهند في عهدها الاول الوحشي فما علينا الا ان ندرس بدو الهنود المعاصرين لان آثار القديم لم تزل متأصلة فيهم. ولما كان فيما كتبناه عن بدو الهند في بحثنا عن عهد الامومة كفاية، نقتصر هنا على المراة المتحضرة الآرية من برهمية وبوذية .

. . . .

ان تعاقب المدنيات على الهند حور تقاليد تلك العشائر الهندية البدوية حتى كاد ان يصير لكل قبيلة تقاليد خاصة بها. فبينهن قبائل تحفظ عهد الامومة وينضم الزوج فيها الى قوم امراته، وبينهن من بقين على سنة الشيوع النسائي كما ان بعضهن جرين على مذهب تعدد الازواج؛ او اقتفين سنة تعدد الزوجات. وكما ان هذا التباين يشير الى ان هذه العوائد المختلفة توالت على الهند ؛ فهو يبرهن ايضاً على ان عهد الامومة هو الاصل .

فلنأخذ القوم المعروف بالكارو Garos فان في اسمهم معنى الامومة ؛ فمن عوائدهم ان الرجل هو الذي ينضم الى عشيرة المراة ومن المشين ان

يتقدم هو للخطبة وانما على النساء ان ينتخبن الازواج .

وعدا السكارو فانه لا يزال يوجد ايضاً في عشيرة ناير Naïrs مالابار آثار الحياة الاجتماعية القديمة بالهند .

فمع انهم ليسوا متوحشين البتة . بل هم يشكلون جماعة اريستوقراطية وحربية ؛ فان عهد الامومة لم يزل ظاهراً لديهم وعوائدها مرعية عندهم ونظامهم يجعل التملّك للنساء . وكل امرأة منهم تتزوج من ٥ الى ١٢ زوجاً لا يسكنون معها ؛ وانما تخصص لكل منهم بالتوالي بضعة ايام ؛ على ان يكون لكل رجل منهم الخيار بعقد زواجات متعددة من هذا القبيل . ولذلك كان من الطبيعي ان لا يعرف اولادهم غير الامهات [1]

المرأة الآرية القديمة

اوثق المصادر عن اصل الحضارة الهندية هو مذهب « فيديا* » الذي خلفهُ فيما بعد الدين البرهمي

فلقد كان الفيديون يعتقدون بان للآلهة الرئيسية زوجات يوقرونهن كل التوقير ولكن لا يعتبرونهن بمنزلة الآلهة انفسهم ؛ على ان مجمل اعتقاداتهم وان دلت على ميزة الرجل ؛ ما كانت لتحرم المرأة من الاشتراك في الحفلات الدينية وتقديم الضحايا فيها .

اما قضية الزواج فبالرغم عن قلة المعلومات عن هؤلاء القوم فنرجح انها كانت على عادة الرومان المنسوبة لاومير homer وهي ان وجود زوجة

(١) C Letourneau La Condition de la Femme 382 - 387

(*) فيدا كتب مقدسة في اللغة السنسكريتية الهندية منسوبة الى فيازا وهي مصدر البرهمية ترجع الى المائة ١٤ او ١٥ او ١٦ ق م

لا يمنع من سرارٍ متعددة[1] .

على انه وان كان في عهد الآريين الفاديين قد تحولت الهيئة الاجتماعية من عهد الامومة الى عهد الابوة ، ولكن يستفاد ان المرأة احتفظت فيه بشيء من منزلتها بالرغم عن شيوع تعدد الزوجات كما يلاحظ ذلك في «مهابها راتا*» التي هي اقدم منظومة للآريين فهي تصرح بان النساء اللاتي في البيوت الملوكية لم تكن على منزلة رفيعة فقط ، بل هي على استقلال كاف ، واما الام فمنزلتها وسلطتها عظيمتان ويجب لها الطاعة العمياء .

وتاريخ سافيتيري يرينا الاميرة الهندية سائحة في الهند بحاشية ملوكية للتحري على زوج ؛ ويوضح لنا كيف كان انتقاؤها هذا مقبولاً من اهلها[2] .

المرأة البرهمية

من يدرس شرائع (مانو) احدى الكتب المقدسة للبرهمية واحدى مصادر تاريخ الآرية ، تلك الكتب التي ترجع بحسب رأي مكس ملر الى القرن الثامن قبل المسيح ، يركم هي حريصة على الزواج واكثار النسل ولا سيما الذكور منه .

ولما كانت تعد العقم من المصائب وضعت لتداركه طريقتين غريبتين اولاهما ان العقيم من الذكور ان كان له ابنة يسعى لزواجها على ان

(1) C. Le tourneau, La condition de la Femme P 390

(2) L J Lumoden La Femme P 52-53

(*) مها بهاراتا منظومة فيازا موءسس الفيدية

يكون مولودها الذكر ابناً له ، والثانية ان كان غير صالح للاولاد فعليه ان يستولد امرأته من احد اخوانه او اهله [1] .

ولنفس هذه الغاية قضت الشريعة على الرجال بالزواج الباكر حتى انه اصبح عندهم من المشين عدم اقتران من يبلغ الثانية عشر من العمر. فنتج عن ذلك انه لوحظ في سنة ١٨٣٠ في مقاطعة « اجابوترا » فقدان البنات الى حد ان حاكم احدى المقاطعات الغربية الانكليزي اكد سنة ١٨٩٦ انه في سبع قرى من مقاطعته لم يجد غير بنت واحدة ازاء مائة رجل !! [2]

ولمثل هذه الغاية ايضاً قضت شريعتهم على اولياء البنات ان يبادروا لتزويجهن حتى قبل ان يبلغن سن الثامنة . واذا مضى على استعداد البنت للاقتران ثلاث سنين قبل ان يزوجها وليها فلها ان تخرج من ثم عن رضاه وتختار من تشاء عقوبة له ، واذا ماتت الزوجة فعلى بعلها ان يتزوج عاجلاً بدون تريث .

غير انهُ مما يستغرب في هذا الشأن هو مناقضة تلك الشريعة سنتها هذه فيما لو كان الميت البعل دون الزوجة ! .

فانها على ما هي عليه من الترغيب تقضي والحالة هذه على الارملة بان تبقى عزباء متقشفة حزينة ،ويجوز لها ايضاً ان تحرق نفسها وذلك يكفي لتقدير سقوط المرأة بنظرها فالابنة في حكمها ملك ابيها وهو حر مطلق التصرف فيها ؛ واذا تزوجت امست عبدة طول حياتها لزوجها واذا مات صارت تحت وصاية ابنائها ؛ واذا لم يكن لها

(١) P. A. Rosler. La question Feministe P. 143

(٢) C. Letourneau. Condition de la femme P. 391-392

أبناء فاقرباء زوجها [1] مثلما كانت في عرب الجاهلية ، وبالاجمال فهي عندهم غير نقية بالفطرة ولا طاهرة الى حد انها اذا ولدت فهي والذين يسكنون معها ومسكنهم ايضاً يعتبرون غير طاهرين الى عشرة ايام .

ولا يحق لها اداء الشهادة ، واملاكها تكون تحت مطلق تصرف زوجها ، ويجوز له ان يتخذ عدداً من السراري لذاته ، وله ان يطلق متى شاء .

على ان بعض علماء الفرنج خالفوا ما قيل بان شريعة «مانو» تقضي باستعباد المرأة ، منهم (ب او كستن روسلر) النمساوي ، والبارون دافريل الفرنساوي . فلذلك يترجح لنا ان الشريعة المذكورة مع احتقارها مقام المرأة لم تستعبدها كما استعبدتها عوائدهم الاجتماعية ؛ بل اوصت بها خيراً كبقية الاديان . والذي لا يختلف فيه اثنان هو احتفاظهم بكرامة الام ، فقد منحت حق مراقبة نيران الاضاحي الدينية ، وتوزيع الاحسان واستقبال الضيوف ، تكريماً لها . ولا يمكن طلاقها بسهولة ، اللهم الا ان تبقى عشر سنوات من غير ولادة ذكر [2] .

منزلة الهندية الاجتماعية

يظهر ان مسألة المرأة بالهيئة الاجتماعية البرهمية صارت الى السقوط قبل تآليف (مانو) ؛ كما يستفاد من تاريخ (راما) الذي يرجع الي القرن العاشر او الحادي عشر قبل المسيح ؛ اعتبر ذلك في وصية احدهم وقتئذ لابنته وخطابه لزوجها حين عقد زواجها . قال :

(1) C. Letourneau La condition de la Femme P. 397

(2) Ernest Le Gouvé - Histoire Morale des Femmes P. 261

« تكون المرأة الامينة لسيدها مثل الظل للجسم ، وان ابنتي « سيتا » التي هي احسن النساء تتبعك في الحياة والموت »

فانحطاط المرأة في الهيئة الاجتماعية البرهمية قديم حتى لم تعدّ شيئاً مذكوراً : فهي عبدة الرجل ، ولا يجوز لها ان تكلمه الا باحترام ولا ان تؤاكله على مائدة [١] بل ولا تتجرأ ان تلفظ اسمه [٢] . وبلغ الافراط في امتهانها انهم صاروا يحتقرون الرجل الذي يحادث زوجته محادثة عائلية ، والنساء انفسهن بتن يمتهن بعلاً كهذا . [٣] بل بلغ منهن ان الارامل استسلمت لعادة هي من ضروب الجنون لبثّ حزنهن على فقد بعولتهن وهي الاحتراق عمداً بالنار بعد موتهم . وربما ظهرت هذه العادة من بضع مئات من السنين في (بنكال) . وبدأت في الطبقة العالية ثم راجت في بقية البلاد والطبقات رواجاً كبيراً .

وقد شوهد في القرن الماضي انه لما مات اميران في امارة مارافا تاركا احدهما سبع عشرة امرأة ، والآخر ثلاث عشرة ، استسلمن كلهن للنار مع جثتي زوجيهن ما عدا احداهن التي كانت حبلى فانها بعد الولادة التحقت بصاحباتها [٤] . وقد بذل الانكليز غاية الجهد حتى قضوا على هذه العادة .

المرأة البوذية بالهند *

المرأة عند البوذيين كما عند البراهمة تكاد تكون على حالة واحدة

---

(١) C. Le tourneau, La condition de la Femme P 404

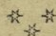
(٢) P. A Rosler La question Féministe P· 149

(٣) C Letourneau La Condition de la Femme 397

(٤) G. Richard, La Femme dans l'histoire P. 239

(*) بوذا في القرن الخامس قبل المسيح

ولذلك لا نجد حاجة لاطالة البحث بهذا الصدد بعد ، ولكن لا بد من الاشارة الى ان الديانة البوذية اشركت المرأة في امر الآخرة ويوم الحشر المسمى (نيروانا) ، كما انها سمحت في العالم الدنيوي للنساء ان يزاولن العبادات وان ينخرطن في سلك الكهانة[1] .



(١) C. Le tourneau la Cand. de la Fem. P 405

- ٤ -

المرأة اليابانية

ان اساطير اليابان لا تخلو من رموز تشير الى عهد الامومة ، ولقد حافظ اليابانيون على ذكر امرأة نهضت بدعوة جديدة عندهم من اجيال غابرة فجمعت حولها القبائل المتفرقة مما انتج تشكيل الامة اليابانية . هي (اماتراسو او ميكامي) التي سموها بآلهة الشمس ، واصبح الامبراطور نفسه يحني رأسه امام هيكلها اجلالاً واكراماً . فهذه الحادثة وما فيها من آثار خدمة المرأة الوطنية التي كان من تقديرهم اياها ان رفعوها لمصاف الآلهة تشير الى عهد كانت فيه المرأة أماً للامة .

فقبل ١٣٠٠ سنة — اي بعصر ظهور الاسلام — كان على عرش اليابان اول امبراطورة يابانية وهي (سويكوتنو) التي اشتهرت بسياسة البلاد بالحكمة ، واتت اعمالاً جليلة . منها تمهيد السبيل للدين البوذي الذي انتشر في عهدها بعنايتها ايما انتشار . ومن ذلك التاريخ اخذت المرأة اليابانية تشتغل في دوائر السياسة بست عشرة وظيفة عدا مقام الامبراطورية . واشتهر جملة نسوة في التاريخ القديم بالسياسة مثل (جنكو كوغو) و (ماساكو) وبالعلم مثل (انونو كوماستي) الشاعرة و (مورساكي شكيو) الروائية و (سي شناغون) المؤرخة وبالشجاعة مثل (هنغاكو) التي

لقّبت بنمرة عصرها وضرب ببسالتها المثل.(١)

ومع ذلك فاليابان كمعظم الامم القديمة تعتبر المرأة متاعاً من امتعة الدنيا يتصرف بها الرجل كيف شاء. حتى ان شريعتها اباحت له ان يبيع الزوجة او الابنة، وقد لبثت هذه الشريعة معمولاً بها الى صدور نظام سنة ١٨٧٥ الذي اكمل في سنة ١٨٩٦ فقضى على هذه العادة.

وقد كان ايضاً من الحقوق (التي وان عدت بمنزلة ادنى من حق البيع الا انها تعتبر مثله اهمية لخروجها عن المعتاد) ايجار الرجل او الارملة ابنتهما من المحلات العمومية او من افراد مخصوصين لمدة معينة. ومع ان البيع منع فان الاجارة بقيت مرعية متدرجة للتلاشي رويداً.

وكفى بهذين الحقين الشائنين بياناً لحالة المرأة اليابانيَّة في التاريخ. فهي كما ترى كانت عبدة لابيها وهي بنت، ولبعلها وهي زوج، وتحت وصاية ابنائها وهي ارملة.

غير ان التمدن الياباني الحديث بدل في حالة المرأة. فكما منع التصرف فيها بالبيع والشراء، فمن سنة ١٨٧٢ منحها الحق في طلب الطلاق. ولكنها قلما تستفيد من حقوقها الجديدة لتأصل العبودية في نفسها(٢) فضلاً عن انفسهم.

بيد ان النهضة الحالية النسائية الادبية والصناعية تؤمن الوصول الى تحرير المرأة في مستقبل الايام، ولا بدع فاليابان قدوة الشرق بالتمدن الحديث.

***

(١) مجلة الخدر س ١ ع ٨ ص ٢٢٩ ـ ٢٣٢ من مقال لهنانو انفاكي سوحيتمو في مجلة اللاديز جرنال

(٢) C. Le tourneau, la cond de la fem. P 230-236

— ٥ —

المرأة الصينية

ان تشكيل العائلة الذي لم يزل مرعياً في الصين يشير الى ما كانت عليه هذه الامة من بساطة العيش . فان بلاد الصين على اتساعها ووفرة سكانها لا تزال تنقسم الى ما بين المائة والمئتين من العائلات . وكل عائلة على وفرة عددها ، واختلاف طبقتها الاجتماعية ، وتباين ثروتها لم تزل تهتم بصلة الرحم على قواعد مخصوصة .

والغالب ان المرأة الصينية كانت على شيء من الاستقلال و كثير من الحرية في الاجيال الفائتة ، ولكن لم يلبث نير الاستعباد ان طوق عنقها تدريجاً لجملة اسباب مهمة وهي : اولاً اتساع نطاق الفكرة الحربية الذي كان من نتيجته ترتيب طبقات الهيئة الاجتماعية والتملك بالاستقلال . وثانياً لما حصل من حاجة البشر الى الزراعة والصناعة والتجارة التي ادت الى تقديس القوى الجسمية والعقلية الراجحة بالرجل ، وناهيك بما كان لتأثير حصر الثروة بيد الرجل على اخضاع المرأة واعتبارها متاعاً له .

المرأة في الشريعة الصينية

جرت الشريعة الصينية مجرى معظم الاديان باعتبار المرأة من الاشياء ، التي تكاد ان تكون مخلوقة خصيصاً لاستكمال لذة الرجل وخدمته . ولذلك منحت الرجل حق التصرف بها مثل تصرفه ببقية الاشياء سواء كانت ابنة ، او زوجة ، او ارملة او اما .

قال كنفوشيوس : (٥٥١ — ٤٧٩ ق م) وهو اشهر فلاسفة الدين الصيني وصاحب المذهب الاخلاقي « الرجل رئيس فعليه ان يأمر ، والمرأة

تابعة فعليها الطاعة . ومن المقتضى ان تكون اعمالها مثل اعمال السماء والارض متممة لبعضها تعاوناً على حفظ نظام الكون . والمرأة في المجتمع مديونة لزوجها بكل ما هي عليه.[١] » ثم اذا مات زوجها لاتصبح مستقلة (كما قال كنفوشيوس في موضع آخر) بل مثلما عليها قبل الزواج الطاعة لاهلها اولاخيها البكر . فان ترملت تبقى تحت مراقبة اكبر ابنائها الذي من شأنه ان يبعد عنها بوداعة ومحبة الاخطار التي تهدد ضعفها الطبيعي

هذا ولم تقتصر الصين على منح الجنس القوي الرئاسة والادارة ، بل منحته التصرف في شخصها فضلاً عن الاستئثار بحقوق خاصة . واذا بحثنا عن الزواج نجد ان الشريعة الصينية اجازت من جهة تعدد الزوجات ، وان حظرته من جهة اخرى : فقد سمحت للرجل بالتسري باربع زيادة على زوجته التي لا يسمح له بالاقتران بسواها .[٢] فالسراري وان كن لديهم بمنزلة الخدم ، غير ان اولادهن ينسبن للزوجة الشرعية ويساوون اولادها.[٣]

على ان شريعة (ليكي) سمحت للرجل بان يجمع بين مائة وثلاثين امرأة ، واشتهر امبراطرة الصين القدماء بوفرة عدد الحريم . وقد ذكروا ان الامبراطور (كن) آخر عواهل عائلة (يو) الشهير بقساوته وسفاهته جمع في قصره نحو ثلاثين الف امرأة . . . !

وللرجل عندهم ان يطلق امرأته الا في احوال خاصة رحمة بها .[٤]

---

(١) C. Letourneau La Condition De la Femme P. 553

(٢) P. A. Resler la question feministe P. 140

(٣) P.A. Resler, La question Feministe P. 146-147

(٤) C. Leterneau La Condition de la Femme P. 247

والصينية متزوجة او عزراء لاسيما الطبقـة الممتازة تعيش في عزلة ابدية . فالابنة منذ صباها تعزل حتى عن شقائقها . والنساء عامـة لا يخرجن من بيوتهن ، ولا يستقبلن رجلاً .[١] ولذلك كانت المنازل تقسم الى حرم ودار للرجال منعاً للمخالطة .[٢] وفضلاً عن ذلك فقد حرموا المرأة من ميراث زوجها وابيها ، الا ما يقدمه لها في حياته من قبيل العطية حين زواجها .

وحتى في نظام العقوبات ميزت شريعتهم الرجل عن المرأة . فبعد ان قررت سيادة الرجل فقد عملت على تأييد ما قررته بفرض العقوبات على النساء اللاتي يؤذين ازواجهن ، ولا سيما الزانيات منهن ، في حين انها لم تضع ازاء ذلك قيوداً كافية وعقوبات معادلة بحق الرجل .

المرأة في العائلة الصينية

ما اوردناه من اقوال كنفوشيوس يوضح تمام التوضيح قدر امتهان المرأة في عائلتها فتلك المسكينة لم يكن واجبها ينحصر بالعبودية لزوجها فقط . بل من الواجب ايضاً طاعة وتقديس والدي زوجها وتوقير وتقديس سائر اهلـه الى درجـة الافراط . وتستمـر حـتى بعـد وفـاة زوجها سلطة اهله عليها الى حد ان ابويه لهما ان يزوجاها حسب مشيئتهما . ومع ان الام محترمة عندهم لكن احترامها ليس بالشيء المذكور تجاه تقديسهم الاب .

---

(١) Mémoires Concernant les Chinois. T. IV, 178

(٢) Mazarella, Loc. Cit.

(٣) E. Simon Nouvelle Revue, P. 406

(٤) Code Pénal Chinois, Art. 3

وزيادة في تبيان حالتها بالعائلة ، ناتي على ما قالته بهذا الشان (بان هووى بان) التي عاصرت الامبراطور (هوتي) ، فقولها يدل ايضاً على نظر الجنس اللطيف لنفسه وقتئذ . قالت « انا نأتي في الصف الاخير من البشر ، ونحن القسم الضعيف من العالم الانسانى . فالاعمال التي هي اقل اهمية من سواها يجب ان تكون نصيبنا . هذه حقيقة يلزم ان تتمثل لنا دائماً ، اذ من الضروري ان تؤثر على مسلكنا وان تكون مصدر سعادتنا . فاذا عرفت الصبايا مقامهن الحقيقي فلا يبقى لهن مجال للتكبر ويقفن عند الحد الذي وضعته لهن الطبيعة . ومتى انتقلت الفتاة الى دار زوجها تفقد كل شيء حتى اسمها وما لها وحتى شخصها . فيصبح كل ذلك ملكاً له . فالزوجة كما قال (نيوهيم شو) يجب ان تكون في البيت كمجرد الظل والصدى : فالظل ليس له شكل سوى شكل الجسم . والصدى لا يردد شيئاً غير الصوت الملفوظ . وعلى المرأة ان لا تعاكس الآخرين كما عليها ان تستعد لتكون مجال المعاكسات »(١)

وبعد فالشريعة الصينية وان لم تضع اساساً لانتحار النساء حزناً على ازواجهن ، الا ان الرجل استمر يؤثر على المرأة بانها شخص غير مستقل بل تابع ، وان كل السعادة فيه حتى تجسم هذا الفكر في مخيّلتها فلم تعد تستطيع الحياة بعد زوجها فتنتحر . وقد اصدر احد الملوك امره سنة ١٦٦٨ بمنع ذلك . ولكن العادات العامة كالسيل الجارف اذا توقف فالى حين .(٢)

وصفوة القول ، ان المرأة في العائلة الصينية مملوكة ملكاً مقيداً

(١) C: Letourneau, La condition de la femme P. 245-276

(٢) Ethnograph e Migne P. 525

وارادتها مرتبطة بارادة الرجل لدرجة ان الابنة لا تستشار في خطبة رفيق حياتها فحسب، بل هو من الشائن ان ترى خاطبها .

المرأة في الهيئة الاجتماعية

لا حاجة لتفصيل شأن المرأة في الهيئة الاجتماعية بعد ان بينّا حالها في الشريعة والعائلة ، ذلك لان الهيئة الاجتماعية هي العائلة مكبرة ومرآة الشريعة . فبعد ان علمنا انهُ لم تكن بالعائلة ألا ظلا او صدى ؛ جاز ان نقول : انها تكاد ان لا تعد في جملة الهيئة الاجتماعية ايضاً .

وان شريعتهم وان منعت عادة تأجير البنات والنساء للمتعة ، الا ان هذه العادة مازالت تجري في بعض الولايات ، كما ان نظام التسري عندهم جعل بيع البنات بيع الانعام طريقة مشاعة . ولقد ساعد على رواجها الفقر المدقع الذي اثر ايضاً في انتشار عادة وأد الاولاد ولا سيما البنات عقب الولادة خشية الاملاق .(1)

هذا وبناء على اعتقاد الصينيين بان النساء خلقن للخدمة والتلذذ بهن ، فقد اهملوا تعليمهن وتربيتهن الا لما يؤهلهن لتينك الوظيفتين ؛ وكما اهتم اليونان والعرب في حضارتهم بطبقة السراري فربوهن وعلموهن بصورة مخصوصة تسوقهن للحظوى باعين الرجال ، كالشعر والموسيقى ، والرقص وغير ذلك . فقد عني الصينيون بالسراري حتى نبغ منهن كثيرات ، وما كان ذلك عن رغبة في نفس العلم ، او الفن ، بل جرياً وراء إرضاء الرجل .

***

(1) P. A. Ro

-٦-

المرأة السورية

اقدم من عرف من سكان سوريا هم الاراميون والكنعانيون .
كان لهم ممالك كثيرة صغيرة تشن الغارة على بعضها ، استمرت على استقلالها الى ان دخلت في ملك داوود وسليمان ملكي اسرائيل ، ثم تبعت ملوك بابل واشور ومادي وفارس ومصر واليونان والرومان ، ثم العرب فالترك . وكانت تستقل في خلال ذلك احياناً . ولكن لما كانت سوريا بمركزها الجغرافي طريق فتح بين الشرق والغرب ، وجسراً بين آسيا واوربا وافريقيا ؛ كانت الدول القوية حريصة على التغلب عليها والاحتفاظ بها حرصها على ابواب الحصون .

ولما كان الناس على دين ملوكهم ، فالعوائد والتقاليد ، وحتى الشريعة السورية ، كانت تتطور وتتبدل تبعاً للمتغلبين عليها . فلذلك فان حال المرأة السورية كان يتبدل حسب تبدل شرائع الحاكمين .

ولكن لما كانت سورية انجبت من بين حكوماتها القديمة المستقلة دولة الفينيقيين ، كما انها انبتت الشريعة اليهودية ، والديانة المسيحية ، فاستخضعت بها عقول حكامها ، حق لها ان ترفع رأسها ، كما انه حري بنا ان لا نغفل عن تبيان حال المرأة في نظر تلك الامم الثلاث : الفينيقيين والاسرائيليين والمسيحيين . فبذلك وبما سنورده عن المرأة العربية تتمة لتاريخ المرأة السورية .

المرأة الفينيقية

فينيقية اقليم لبناني يمتد مابين عكا وبانياس . اهله كنعانيون ترجع دولتهم الى القرن الرابع والعشرين قبل المسيح . واشهر مدنهم واقدمها صيدا فصور فجبيل فطرابلس فبيروت .

وكان كل من هذه المدن مملكة على حدة تجتمع كلها تحت رئاسة صيدا ثم تبعت صور .

اشتهر الفينيقيون بقوة الاختراع ، وبالتجارة والاسفار ، فنسب اليهم اختراع الصباغ الارجواني والزجاج وحروف الهجاء . اما اسفارهم فكانت تبلغ انكلترا شمالاً ، وسواحل افريقية الغربية جنوباً ، وفضلاً عن اتخاذهم في تونس بالقرن السابع ق . م . مستعمرة قويت حتى ناهضت الرومان ؛ كان لهم في اسبانيا مستقر للتجارة .

غير ان فينيقية النشيطة لم تقو مع ذلك ان تستمر على الاحتفاظ باستقلالها ، فخضعت تارةً لاشور ، وطوراً لمصر ، وحيناً لفارس ، فلذلك لم تسلم شريعتها وتقاليدها من دخيلات المكتسحين ولا سيما الاشورية .

عبد الفينيقيون الطبيعة ، ورمزوا عنها بصنم يسمى (بعل) يمثل اله النار باسم مولوخ ، وحافظ صور باسم ملكرت . واتخذوا له زوجة اشركوها بالالوهية سموها عشتروت (الزهرة) .

اما عبادتهم فكانت على حدي الافراط والتفريط : فبينا تراهم يستبيحون النساء عامة في عبادة عشتروت ، كانوا يضحون الاولاد حرقاً في عبادة مولوخ ؛ كما ان الاتقياء في اعياد الهتهم يقطعون اجسادهم ؛

والنساء منهن يلقين اولادهن بالنيران الملتهبة[1] .

فبناء على ما وصل الينا من اثار شريعتهم وتقاليدهم ، ذهب الاب اوغسطن روسلر الى انحطاط منزلة المرأة عندهم .

ولا غرابة اذا هم جاروا الروح العامة في عصرهم ، غير انا نرى من شأن حياتهم التجارية واسفارهم البحرية المتواصلة الطويلة ان تجعل للمرأة مقاماً اجتماعياً وعائلياً ؛ ذلك لان تغيب الرجال في جوب الامصار وخوض البحار ، كان بالطبع يدفع النساء للقيام مقامهم في الوطن من تدبير شؤن العائلة الداخلية والخارجية ، ومعلوم كم تؤيد المرأة العاملة مقامها الاجتماعي والعائلي .

وفضلاً عن ذلك فان من شأن الثروة ، وولديها الرخاء والتخنث ، التي حصلت عند الفينيقيين ان تجعل عصرهم عصر عواطف ايضاً ، وما اكثر نفوذ النساء في مثل ذلك العصر ؟



(1) M. A. Riquier Hist. Anc. 'Orient' P. 8

- ٧ -

اليهودية والمرأة

لم تشذ شريعة اسرائيل ، عن منهج سائر الشرائع القديمة ، من اعتبار المرأة متاعاً للرجل من امتعة الدنيا وتابعاً ؛ الا انهـا وضعت بعض الاصلاحات في ذلك ، مثلما فعلت في قضية التنزيه والتوحيد بالالوهية

فلمعرفة حقيقة حال المرأة في تلك الشريعة ، نأتي على ذكر ماجرت به مجرى سواها بهذا الشأن ، ثم ما عمدت اليه من الاصلاح .

. . . .

الحاجة ام الاختراع ؛ قضية تنطبق على الماديات ، كما تنطبق عـلى المعنويات ، حتى اننا اذا تحرينا عن شريعة كل امة ، نراها تدور حـول محور حاجة تلك الامة حين ظهورها .

اعتبر ذلك في شريعة اسرائيل ، فبالنظر لما كانت عليـه تلك الامة من الحالة الحربية والفتح ، قامت شريعتها على مايقتضي لتلك الحالة من الخضوع التام لصاحب السيطرة ، والحرص على اكثار النسل ، والاعتماد على الجنس القوي فحسب ؛ واما المرأة ممثلة الجنس اللطيف ، فكانت بمثابة شيء من الاشياء ؛ تباع وتسبى ويتزوج بها وتطلق ، وتـكاد تنتقل بالارث ، ولا ارادة مرعية لها .

اجل بلغ من شريعة اسرائيل انها تخول السلطة الافراد الى حد انها محت الاباء ان يؤجروا ابناءهم لميعاد ، ويبيعوا بناتهم القاصرات بيع

الرقيق حتى اذا اعجبت ابن الشاري جاز ان يتخذها سرية له[١] . ولكن موسى نظر بعين الرحمة الى الارقاء من العبرانيين فقال « اذا بيع لك اخوك العبراني ، او اختك العبرانية وخدمك ست سنين في السنة السابعة تطلقه حرا من عندك » وفوق ذلك فقد اوصى بان يزود المعتوق ، واما اذا رفض التحرر ، فتخرز اذنه ويصير عبدا[٢] .

ومثل سلطة الاباء بالشدة كانت سلطة الازواج ، فانهم كانوا فيما يؤدونه من مهر كانهم يشترون الزوجة .

هذا وما كانوا يطلبون منها علما وادبا ، بل كانت رغائبهم محصورة في ان تحسن المرأة ما خلقت له . من غزل ونسج وتدبير منزل ، واما اذا لم ترق للزوج فيطلقها . ولكن لا يجوز له ان يعيد المطلقة بعد ان تنكح زوجاً غيره[٣] .

وبعد فان حرص شريعة موسى على توفير النسل ، كان شديدا مثل حرص شريعتي مانو و كنفوشيوس ، حتى قضت بانه « اذا سكن اخوة معاً ومات واحد منهم وليس له ابن فلا تصير امرأة الميت الى خارج ، لرجل اجنبي . اخو زوجها يدخل و يتخذها لنفسه زوجة ويقوم لها بواجب أخي الزوج . والبكر الذي تلده يقوم باسم اخيه الميت لئلا يمحى اسمه من اسرائيل » واذا لم يرض الاخ ان يتزوج منها تشكوه الى الشيوخ ، واذا اصر تتقدم اليه امامهم وتخلع نعله من رجله وتبصق في وجهه وتصرخ وتقول هكذا يفعل بالرجل الذي لا يبني بيت اخيه ، فيدعى اسمهُ في اسرائيل

---

(١) C. Le Tourneau. La Codition de la Feminu P. 57[2]

(٢) التوراة . سفر التثنية اصحاح ١٥

(٣) التوراة . سفر التثنية « ٢٤

بيت مخلوع النعل .[1]

وقد عدت شريعة موسى العقم من المصائب ؛ حتى ان موسى كان من جملة وعوده لقومه ان هم حفظوا وصاياه قوله « لا يكون عقيم ، ولا عاقر فيك ولا في بهائمك .[2]

واحسنت تلك الشريعه اذ نهت الملك عن اكثار النساء فقال موسى « ولا يكثر له نساء لئلا يزيغ قلبه[3] » بيد ان معظم الملوك لم يأتمروا بذلك بل كانوا قدوة الشعب بتعدد الزوجات ، اعتبر ذلك بما روي عن عدد حرم داود وسليمان ، وما قيل من ان نساء سليمان بلغن سبعمائة . وفضلا عن ذلك فقد جاء في التوراة انه كان لرحبعام بن سليمان ثماني عشرة امراة وستون سرية ، وانه ولد له ثمانية وعشرون ابناً وستون ابنة[4] . وعلى شاكلة الملوك جرى سائر الشعب ولا سيما المتمولون في تعدد الزوجات واقتناء السراري ؛ اما بالشراء من ابائهن الفقراء او بالاسر .

ولهذا التعدد امست المراة لديهم على اسوء حال ، ولا سيما الارملة لحرمانها من الارث .

على انه فضلًا عن ذلك فان المرأة كانت عندهم غير طاهرة بالفطرة . فالتي تلد ذكراً تبقى سبعة ايام غير طاهرة . ثم تقضي لاستكمال طهارتها ثلاثة وثلاثين يوماً منذ الولادة . ويحظر عليها الدخول الى قلب المعبد مدة

---

(٢) التوراة تثنية اصحاح ٢٥

(٣) « « « ٠٧

(٤) « « « ١٧

(١) C. Letourneau La condition de la Femme P. 373

مدة اربعين يوماً . واما التي تلد أنثى فيلزمها ضعف المدة (١)

وفي وقت الحيض ايضاً تكاد تعتبر المرأة نجسة عندهم . ومن يمسها او يمس مقعدها يكون غير نقي الى المساء . (٢) ولا تطهر الا بالماء البارد ، ولا يقربها زوجها الا بشهادة من رأتها تغتسل . وقد دامت هذه العادة حتى العصر الاخير ، فكان في حمامات البلاد التي يقطنها يهود امرأة اسرائيلية وظيفتها الشهادة لليهوديات اللاتي يأتين للاستحمام .

غير ان المرأة المنحطة في كل ادوارها العائلية ، كانت متى صارت اماً تصبح ذات مقام حسن كبقية المدنيات القديمة ، وقد ورد الامر باكرام الام اسوة بالاب في وصايا موسى العشر . (٣) كما انه قال في مكان آخر «ملعون من يستخف بأبيه وامه (٤)»

على ان الشريعة الاسرائيلية وان كانت هكذا تأمر بتكريم الام اسوةً بالاب ، ولكن على توالي الايام صار للوالدة المقام الثانوى ، وبات فخرها لمجرد كونها ام الاولاد (٥) على حسب اصطلاح الصينيين .

هذا واما في الهيئة الاجتماعية فليس للمرأة عند اليهود منزلة ايضاً ، فهي كما قلنا شخص منحط عن مستوى الانسانية التي تتمثل في الرجل وحده . كما انها غير طاهرة . ولذلك فانها فضلاً عن حرمانها من الارث بوجود الذكر ، لم تقبل بتاتاً في الوظائف الدينية ، (٦) ولا تقبل شهادتها (٧)

(١) E. Gouvé, Histoire Morale des Femmes P. 13

(٢) C. Letourneau, La condition de la femme P. 378

(٣) التوراة . التثنية ٥

(٤) التوراة . التثنية ٢٧

(٥) L. I. Lumsden La Femme P. 55

(٦) F A. Resler, La question Feministe P. 170

(٧) G. Richard, La Femme dans l'histoire P. 180

بل لا يُعتد بنذرها وقسمها سواء كانت بنتاً او زوجة الا ان يثبت ذلك ابوها او زوجها بسكوته ، فقد جاء في سِفر العدد بهذا الشأن فيما يتعلق بالزوجة عقب ان ذكر البنت « كل نذر وكل قسم التزام لاذلال النفس زوجها يثبته وزوجها يفسخه »(١).

وبذلك كفاية في تصوير درجة تعلّق ارادة وتصرف المرأة بالرجل ؛ وتبيان لانحطاطها في المنزلة الاجتماعية فضلا عن العائلية

. . . .

ان شريعة اسرائيل وان كانت تحط من مقام المرأة جرياً على سنة الكون وقتئذ ، غير انها مع ذلك تعتبر شريعة اصلاح ، ولا بدع بذلك فاليهود نزلوا مدة طويلة بمصر الممتازة في التاريخ القديم بحسن معاملتها للجنس اللطيف

ان تلك الشريعة وان لم تشرك المرأة في وظائف خدمة الدين ، الا انها اشركتها في وجوب الايمان ، وفي الواجبات والمكافآت . بل ان موسى يعترف لها بحق هو عند الامم من اكبر المواهب الدنيوية والاخروية ، وهي موهبة النبوة(٢) .

ومثلما فرضت شريعة اسرائيل على الرجل واجبات إزاء اولاده ، وعلى المرأة إزاء بعلها ، فقد جعلت عليه ايضاً واجبات إزاء امرأته ، واوصت بها خيرا فقد جاء في التلمود « اكرموا نساءكم لانهن منبع حقيقي للبركات . وكذلك احبوهن كما تحبون انفسكم واكرموهن على

(١) التوراة . سفر العدد اصحاح ٣٠

(٢) Ernest Le Gouvé - Histoire Morale des Femmes P. 221

انفسكم لانهن يقررن السلام في مساكنكم »

وجاء ايضاً في هذا الشان : « ليحذر الرجل من مسّ عواطف زوجته ، لان قلبها حساس لاقل مسيس ، وعيناها تسكبان بسهولة عبرات التأثر ، وكذا ، ان اردتم إيراد ملاحظة لنسائكم او تذكيراً بواجب ، فخاطبوهن بلطف وسكوت . راعوا شعورهن الرقيق وتقدموا الى عواطفهن ، فهذا هو السبيل الاكيد لاستمالتهن »(١) .

اما من حيث الاحكام فقد حوّرت شريعة اسرائيل من شرائع الازمان السالفة وقيدت الرجل نوعا ما بقدر ما حسّنت من حال المرأة ، فانها وان سمحت بالتسري بالاسيرات بلا عقد نكاح الا انها اصلحت حالهن ، اذ فضلاً عما امرت به من الرفق بهن ، نهت عن بيعهن بعد الالتصاق بهن فقد قال موسى : « اذا خرجت لمحاربة اعدائك ، ودفعهم الرب الهك الى يدك ، وسبيت منهم سبياً ، ورأيت في السبي امرأة جميلة الصورة والتصقت بها ، واتخذتها لك زوجة ، فحين تدخلها الى بيتك ، تحلق رأسها وتقلم اظفارها ، وتنزع ثياب سبيها عنها ؛ وتقعد في بيتك ، وتبكي اباها وامها شهرا من الزمان ؛ ثم بعد ذلك تدخل عليها ، وتتزوج بها ، فتكون لك زوجة . وان لم تسر بها فاطلقها لنفسها لا تبعها بيعاً بفضة ، ولا تسترقها من اجل انك اذللتها . »(٢)

وكذلك فانها وان منعت الزوجة من الارث ، ولكنها طالما اوصت بالارامل خيراً ؛ وامرت بان تعطى المحتاجات منهن من العشر (الزكاة) وفضلاً عن ذلك فقد قال موسى : « ملعون من يعوج حق الغريب واليتيم

---

(١) Simon Levy, Moise, Jesus et Mahomet P 391-392

(٢) التوراة التثنية اصحاح ٢١

والارملة .[١] » اما الطلاق فانها وان لم تمنعه ، الا ان انبياء اسرائيل ما انفكوا عن اظهار مضاره [٢] كما انه سمح للضرورة للمرأة ان تلجأ لطلبه [٣] .

وعلى ذلك كان حكم اليهودية بشأن العلم ، فانه وان ذهب بعض علمائها مذهب (ربي العازار) بان في تعليم المرأة خروجاً بها عن الدين ، غير انه قرر جمهور منهم وجوب تعليمها العلوم الدينية . واشتهر في تاريخهم نفر من الجنس اللطيف في ذلك منهن جلطا ، وبرورية ، وزوجة ربي ماير [٤] .

واشتهر غيرهن ايضاً في الهيئة الاجتماعية ، ذلك لان نساء اسرائيل في صدر تاريخهم كن احسن حالا مما صرن اليه بعد اختمار المدنية ، كما حصل بتاريخ المسلمين : « فتحت خيمة ابراهيم لم يكن على زوجه ساره ان تختبأ من الزائر ، بل لها ان تقابله . كما ان بقية النساء لم يكن محرومات من المداخلة بشؤن الامة ومقام الشورى ، كلا بل هن اللاتي كن يغنين في خلاص الشعب بعد اجتياز البحر الاحمر ، وهن اللاتي اعلن انتصارات جدعون وداود . وما احرى مريم اخت موسى ودبورة ، ويوديث ، واستير ان يعددن بصاف العظماء » [٥] .

وبعد فصفوة القول ان شريعة موسى وان جعلت طبقة النساء دون الرجال في الرتب الانسانية ، وسلمت قياد الجنس اللطيف للقوي ، ولكن هي قد كبحت جماح الرجل نوعاً ، بما قررته من الاحكام والوصايا بشأن المرأة .

***

---

(١) التوراة . التثنية اصحاح ٢٧

(٢) Michée II,9 : Malachia II, 11

(٣) Wake P 70-71

(٤) Simon Levy. Moise, Jésus, et Mahomet P 391-392

(٥) P. A. Rosler la question feministe P. 137



موسی



عیسی

- ٨ -

المسيحية والمرأة

ارأيتم النهر كيف يجري صافياً نقياً من منبعه ، وينسكب متلوناً في مصبه ؟ فهكذا كل فكرة دينية او فلسفية تبدأ نقية غالبا ثم تاخذ صبغتها في اثناء جريها ، فتتلون حسب مزايا الامم التي تعتنقها ، وتقاليدهم المتأصلة فيهم .

وعلى حسب رواية المفكر « درابر » ، فان الديانة النصرانيـة مرت على ثلاثة ادوار : (١) النصرانية اليهودية (٢) النصرانيه الطامحة للاحاطة بالعلوم الطبيعية والإلهية Gnostique (٣) النصرانية الافريقية ، وقاعدتها اسكندرية . فالمسيحية الاولى كانت مصدقة لما بين يديها من شريعة موسى ومحاولة الاستقلال عنها . والمسيحية الثانية كانت على نسق اعتقاد الماوبين Mages عند الفرس في الالوهية وتنزيهها . اكتملت بعد عصر من وفاة المسيح ، فكانت داعيا لظهور مذاهب متنوعة بالقرون الاولى الاربعة . والمسيحية الثالثة هي التي اشتهرت بابتكار كلمة التثليث والمجادلة في هذا الموضوع . وكان ذلك عن تاثير الفلسفة الافلاطونيـة في المتنصرين[١]

وكل دور من هذه الادوار وإن كان له بعض نظرات خاصة للمرأة الاّ انّا حباً في الاختصار نذهب في تقسيم الكلام الى قسمين :

J. W. Draper, Histoire du developpement intellectuel de l'Europe T II P 11-15 | ١

(١) المراة في نظر موسسي المسيحية «٢» المراة في نظر الكنيسة.
ثم نختم البحث بنقل عن اعمال المرأة في خدمة هذا الدين

المرأة في نظر مؤسسي المسيحية

ان البذور مهما كانت جيدة وقوية فهي غير قادرة على الاحتفاظ بميزاتها ولا تستطيع ان تتخلص من تأثير التربة لاشتراكهما معاً في إنتاج المحصول. وكلما مر الزمن، فالتربة الثابتة تتغلب على البذور بالتوالد حتى تبدلها. وهكذا شأن كل فكرة بين الجماعات، فانها لا استقلال لها عن افكار عصرها العامة، كما انها لا محالة خارجة عن اصلها بعد، لارتباطها بمدارك الامة في تأويلها. وتلك المدارك تتغير بمرور الازمان.

ولذلك فان نظر مؤسسي المسيحية الى المرأة كما انه تطور بتطور الازمان؛ فانه مرتبط باصله اليهودية من جهة، وبالرومان من جهة ثانية. لكن النصرانية مع ذلك لم تخل من اصلاح في حال المرأة، كما اصلحتها اليهودية من قبل، والاسلام من بعد، لان لكل جديد ميزات حسب سنة النشوء والارتقاء. ولايضاح البحث نتكلم عن نظر النصرانية الى المرأة بوجه عام، ثم عما وضعته لها من الاصلاح.

. . . .

اذا تقرر ان المسيحية مرتبطة ارتباطاً طبيعياً بروح العصر والمصر اللذين نشأت فيهما وانها وطيدة العلاقة بافكار كل من اليهود والرومان الذين ينزلون المرأة منزلة وضيعة في الهيئة الاجتماعية قدرنا بسهولة نظرتها للمرأة. فلو تسنى للنصرانية ان تستقل عن اعتباريات عصرها

وتأتى في تلك الاحوال والازمان بمثل ما اعترف به القرن العشرون من مساواة الجنسين المساواة المطلقة لكان ذلك جامعاً كلمة الناس على مناهضتها . اذ كيف يستطيع الرجل وقتئذ وهو صاحب السيادة وحق التصرف في المرأة ، الذي يرى هـذه السيادة وذلك الحـق طبيعيين وشرعيين ان يصافّ المرأة في عامـة الحقوق وهي في الحقيقة لم تكن يومئذ متربية الاّ على العبودية؟ .

ولكن لما كان ذلك الاستقلال ، وذلك الاصلاح الفجائيّ غـير ممكنين ، جرت المسيحية مجرى بقية المدنيات السابقة باعتبار ان من حق الرجل السيادة ، ومن واجب المرأة الطاعة ؛ بل انها مخلوقة لاجله .

ويكفي من يريد ان يعرف رأي المسيحية في المرأة ان يرجـع الى تاريخ الخليقة في (الانجيل) فهو يجده قد خصص الرجل بالذكر دون المرأة من حيث انه مخلوق على صورة الله ، واما المرأة فقال عنها بانها مخلوقة من جنب الرجل [1] وان الرجل لها بمثابة المسيح من الرجل .

ثم اذا تحولنا الى مصدر الخطيئة المعلومة عند المسيحيين ، نرى حواء ممثلة الجنس اللطيف هي التي كانت سبباً لاهباط الناس وطردهم من جنات النعيم .

وفضلاً عن هذه الاشارات فان تصريحات روساء الدين المسيحي أيدت سقوط منزلة المرأة ، وانها ما خلق لاجل الرجل . فهذه رسالة [بولس] الى اهل كورنثوس ، ففيها يتجلى رأي هذا المؤسس الكبير حيث قال « ولكن اريد ان تعلموا ان رأس كل رجل هو المسيح ، واما رأس المرأة فهو الرجل ، ورأس المسيح هو الله ، كل رجل يصلي او يتنبأ

(١) Cleyre Yvelin, Etude sur le féminisme dans l'antiquité P. 3

وله على رأسه شيء يشين رأسه ، واما كل امرأة تصلي او تتنبأ ورأسها غير مغطى فتشين رأسها ، لانها والمحلوقة شيء واحد بعينه ، اذ المرأة ان كانت لا تتغطى فليقص شعرها . وان كان قبيحا بالمرأة ان تقص او تحلق فلتتغطَّ ، فان الرجل لا ينبغي ان يغطي راسه لكونه صورة الله ومجده ؛ واما المرأة فهي مجد الرجل ، لان الرجل ليس من المرأة ، بل المرأة من الرجل ، ولان الرجل لم يُخلق من اجل المرأة بل المرأة من اجل الرجل . لهذا ينبغي للمرأة ان يكون لها سلطان على راسها من اجل الملائكة . غير ان الرجل ليس من دون المرأة ، ولا المرأة من دون الرجل في الرب لانه كما ان المرأة هي من الرجل ، هكذا الرجل ايضا هو بالمرأة ، ولكن جميع الاشياء هي من الله »[1].

وقد أيد [بولس] كلامه هذا مشيرا الى خطيئة المرأة في مكان آخر من رسالته الى تيوثاوس « ولكن لست اذن للمرأة ان تعلّم ولا تتسلط على الرجل بل تكون في سكوت لان آدم جُبلَ اولاً ، ثم حواء . وآدم لم يُغوَ ، لكن المرأة أغويَت فحصلت في التعدي »[2].

فان في هذا وفيما عدا ذلك من وصايا الرسل للجنسين تاييداً لتباين نظارهم الى كل منهما تبايناً محسوساً : فبينا تراهم يأمرون النساء بالخضوع كما للرب ، او كما تخضع الكنيسة للمسيح ، تراهم يحضون الرجال على المحبة وحسن المعاملة لهن فحسب . اليك ما جاء في رسالة بولس الى اهل افسس « ايها النساء اخضعن لرجالكن كما للرب لان الرجل هو رأس المرأة ، كما ان المسيح هو رأس الكنيسة . هو مخلص الجسد . فكما تخضع الكنيسة

(١) رسالة بولس الى كرنثوس الاصحاح ١١
(٢) رسالة بولس الى تيوثاوس ٠ الاصحاح ٢

للمسيح ، فكذلك النساء نحو رجالهن في كل شيء . ايها الرجال احبوا نساءكم كما احب المسيح الكنيسة وأسلم نفسه لاجلها لكي يقدسها مطهرا بغسل الماء بالكلمة لكي يحضرها لنفسه كنيسة مجيدة لادنس فيها ولا غضن او شيء من مثل ذلك بل تكون مقدسة وبلا عيب . كذلك يجب على الرجال ان يحبوا نساءهم كاجسادهم . من يحب امرأته يحب نفسه . فانه لم يبغض احد جسده قط ، بل يقوّيه ويربيه كما الرب ايضاً للكنيسة ، لاننا اعضاء جسمه ، من لحمه ومن عظامه من اجل هذا يترك الرجل اباه وامه ويلتصق بامرأته ويكون الاثنان جسداً واحداً ، هذا السر عظيم . ولكنني أنا اقول من نحو المسيح والكنيسة . وأمّا انتم الافراد فليحب كل واحد امرأته هكذا كنفسه ، وأمّا المرأة فلتهبْ رجلها[١] . »

واعتبر ذلك ايضاً في وصية بطرس للجنسين حيث قال ، كذلك ايتها النساء كن خاضعات لرجالكن . حتى وان كان البعض لا يطيعون الكلمة يُربحون بسيرة النساء بدون كلمة ملاحظين سيرتكن الطاهرة بخوف ، ولا تكن زينتكن الزينة الخارجية من ضفر الشعر والتحلي بالذهب ولبس الثياب . بل انسان القلب الخفي في العديمة الفساد زينة الروح الوديع الهادىء الذي هو قدام الله كثير الثمن ، فانه هكذا كانت قديماً النساء القديسات ايضاً المتوكلات على الله يزين انفسهن خاضعات لرجالهن كما كانت سارة تطيع ابراهيم داعية اياه سيدها[٢] » .

هذا وكما ان المسيحية لم تساو الجنسين في الهيئة الاجتماعية ، فأنها ابت مساواتهما في التشكيلات الاكليريكية ايضا . حتى انها لم تسمح

(١) رسالة بولس الى افسس ، الاصحاح ٥

(٢) رسالة بطرس الاولى الاصحاح ٣

لها ابداً بالتداخل في ادارة الطقوس الدينية ، ولا بالكلام في الكنيسة: « لتصمت نساؤكم في الكنائس لانه ليس مأذوناً لهن ان يتكلمن بل يخضعن كما يقول الناموس . ولكن ان كن يردن ان يعلمن شيئاً فليسألن رجالهن في البيت. لانه قبيح بالنساء ان تتكلم في كنيسة (١) » .

وهكذا فان المسيحية جاءت على ما جرت عليه المدنيات السابقة من تقرير سيادة الرجل وتثبيت وصايته على المرأة معتبرة اياها قاصرة. ولا بدع ان تهمل المسيحية المرأة لما تأسست عليه من الزهد بالدنيا الى حد انها حسنت العزوبة والفقر خلافا لسائر الاديان .

ولما كانت القلوب من جملة اسلحة الجنس اللطيف فان تقليل حدودها في مبرد الامر الزهد بالدنيا جعل المرأة عزلاء مهملة. ولا غرابة فما كان ازدهار النساء في التاريخ ، الا حيث تزدهر الحياة الدنيا .

. . . .

على ان الديانة المسيحية وان لم تقض بمساواة الجنسين فانها لم تهمل جانب الاصلاح . وفضلا عن جريانها مجرى شريعة موسى باشراكها المرأة مع الرجل في موضوع الحياة الاخرى ، منحتها المساواة الروحية ؛ كما يستفاد ذلك من قول القديس [بولس] عقب ان اورد افضلية الرجل بالدنيا « غير ان الرجل ليس من دون المرأة ولا المرأة من دون الرجل في الرب . لانه كما ان المرأة هي من الرجل هكذا الرجل ايضا هو بالمرأة ولكن جميع الاشياء هي من الله (٢) » .

« لان كلكم الذين اعتمدتم بالمسيح قد لبستم المسيح ليس يهوديا

(١) رسالة بولس الى كورنثوس اصحاح ١٤

(٢) رسالة بولس الى كورنثوس اصحاح ١١

ولا يونانيا، ليس عبدا ولا حرا؛ ليس ذكرا ولا انثى لانكم جميعا واحد في المسيح يسوع فان كنتم للمسيح فانتم اذن نسل ابراهيم وحسب الموعد ورثة[١]».

هذا وان من شأن هذه المساواة تعزية الجنس اللطيف ولا سيما التقيات المنصرفات للحياة الاخرى. فانهن اذ شعرن بانه قدر لهن في الحياة التي يطمحن اليها المنزلة الرفيعة، لم يعديهمهن بعدئذ ما في الدنيا الفانية.

هذا فضلا عما كان لهن من التعزية ايضاً باشراك المسيحية الرجل اسوة بالمرأة بالخطيئة الاصلية. ثم في عدم انحلال الزواج الكنيسي وفرض الامانة على الزوجين سواء. وبعبارة اخرى اذ جعلتهما متساويين بازاء الواجب وشروط الخلاص[٢].

اما الطلاق فقد جاء صريحاً منعه في جواب المسيح للفريسيين على سؤالهم (هل يحل للرجل ان يطلق امرأته؟) فاجاب وقال لهم: بماذا اوصاكم موسى؟ فقالوا: (موسى اذن ان يكتب كتاب طلاق فتطلق) فاجاب يسوع وقال لهم (من اجل قساوة قلوبكم كتب لكم هذه الوصية ولكن من بدء الخليقة ذكراً وانثى خلقهما الله. من اجل هذا يترك الرجل اباه وامه ويلتصق بامرأته ويكون الاثنان جسداً واحداً. اذاً ليس بعد اثنين بل جسداً واحداً. فالذي جمعه الله لا يفرقه انسان.) ثم في البيت سأله تلاميذه ايضاً عن ذلك فقال لهم (من طلق امرأته وتزوج باخرى يزنى. وان طلقت امرأة زوجها وتزوجت بآخر تزني[٣])

---

(١) رسالة بولس الى غلاطية اصحاح ٣

(٢) Henri Marier, Psychologie de la Femme P 37

(٣) انجيل مرقس الاصحاح ١٠

واذا عددنا منع الطلاق من الاصلاح في حال المرأة فليس لان اصل المنع مفيد . فان الطلاق طبيعي لا يجب ان يمنع . اذ ليست العقود الزوجية الا من قبيل سائر العقود التي وضعت للمصلحة الاجتماعية يجب حلها متى صار دوامها سبباً للشقاء بدل الراحة ، ولكن لما صار الطلاق عند اليهود امراً عادياً يحدث في معظم الاوقات رغبةً من الرجل في التلذذ او لسوء خلقه او لجهله ، ليس لدفع الضرر اصبح منعه وقتئذ من جملة ما حفظ حقوق المرأة . الا ان المسيحية لم تلبث ان اجازته على شروط ثم صرح به التمدن الحديث . واما تعدد الزوجات فلم يتعرض له المسيح ولكن كان من الطبيعي ملاشاته عاجلا لدى قوم بلغ منهم الزهد بالدنيا مبلغ تفضيل العزوبة على الزواج كما يستفاد من قول بولس (ولكن أقول لغير المتزوجين وللارامل انه حسنٌ لهم اذا لبثوا كما انا (بغير زواج) ولكن ان لم يضبطوا انفسهم فليتزوجوا [1]) .

واما الحجاب فكان الخمار فقط . غير ان النصرانية جرت مجرى غيرها في التحظير من التبرج والزينة ، كما يستفاد ذلك مما ذكرناه بجملة قول بطرس الرسول في منع الزينة الخارجية من ضفر الشعر والتحلي بالذهب ولبس الثياب البراقة وقد حظرت ذلك بالاكثر على الارامل فقد قال بولس عن المتنعمة منهن (واما المتنعمة فقد ماتت وهي حية [2])

وبعد فاسوة ببقية الاديان والديانات القديمة لم تغفل المسيحية عن التوصية بالامهات تبعاً لليهود خاصة . فقد سأل رئيس المسيح قائلا « ايها المعلم الصالح ما ذا اعمل لارث الحياة الابدية ؟ فقال له يسوع : لما ذا تدعوني

(١) رسالة بولس الى كورنثوس الاصحاح ١٨

(٢) رسالة بولس الى تيموثاوس الاصحاح ٥

صالحاً . ليس احد صالحاً الا واحد وهو الله ، انت تعرف الوصايا . لا تزن لا تقتل لا تسرق لا تشهد بالزور . اكرم اباك وامك (١) » . وقد خص بولس الارامل بالذكر فقال « اكرم الارامل اللواتي هن في الحقيقة ارامل ولكن ان كانت ارملة لها اولاد او حفدة فليتعلموا اولا ان يوقروا اهل بيتهم ويوفوا والديهم المكافاة لان هذا صالح مقبول امام الله » (٢)

ولم تقتصر ايضاً في توصية الزوجين كل بالاخر والتسوية بينهما في الحقوق المتعلقة بالجسد اعتبر ذلك بقول بولس « ليوف الرجل المرأة حقها الواجب . وكذلك المرأة ايضاً الرجل ، ليس للمرأة تسلط على جسدها بل للرجل . وكذلك الرجل ايضا ليس له تسلط على جسده بل للمرأة (٣) » .

في ذلك تخفيف كثير من الفكرة العامة بان النساء خلقن لملذات الرجال ، وعليهن وحدهن الوفاء لهم . بينا ان الرجل هو حرّ مستقل ، يجوز له ان يهب شخصه وقلبه لغير زوجته ! . . .

فكانت هذه الوصايا وتلك الاحكام ازاء ما قررته المسيحية من سيادة الرجل القصوى معدلة في كفة معاملة الجنس اللطيف في القرون الاولى

المرأة في نظر الكنيسة

قلنا ان طبيعة الارض لا تلبث ان تتغلب على خاصية البذور وميزتها ؛ فكما ان العصر الذي حسن فيه حال المرأة انقضى بعد موسى واعوانه ، وبعد محمد واصحابه ، فكذلك جرى بعد عيسى وحواريه .

---

(١) انجيل لوقا الاصحاح ١٨

(٢) رسالة بولس الى تيموثاوس الاصحاح ٥

(٣) رسالة بولس الى كورنثوس الاصحاح ٧

قالت مدام دفريل : « فالكنيسة الناسية من ثم كلام المسيح ،
الذي قاله ، « لم يعد يوجد سيد ولا رقيق ولا رجل ولا امرأة ولا »
« يهودي ولاوثني . وانما انتم كلكم اخوان » نسيت ايضاً ان ترفع »
« شأن المرأة . ان اباء الكنيسة نهضوا ضد الفساد الجامع الغاشي في كل »
« مكان ؛ ولكنهم اذ لم يتجاسروا على التعرض للرجل صاحب السلطة »
« فقد تحولوا للتحامل على المرأة ، حتى صارت في نظرهم حيوان الملذات »
« فحولوا اليها الكره العام ، وبغضاً بها علموا التقشف عن الملذات »
« الشرعية . فاجتازوا الغاية . فهؤلاء الذين نشأوا بعصر مملوء من »
« التذكارات النفسية ، يلقون على المرأة حمل الرذيلة ، متوهمين بأنه »
« ملتصق بها من الفطرة ؛ وبذلك صارت المرأة بعين الكنيسة شريكة »
« الشيطان غير طاهرة مضيعة الانسانية ، اما الرجل فوحده خلق على »
« صورة الله ، وعلى المرأة بالاجمال ان تكون تابعة له بل عبدته. »
« وقد توسع لديها هذا المبدأ حتى انها في مجمع ماكون سنة ٥٨١ م ،
« جرى بحث فيما اذا كان للمرأة نفس وعما اذا كانت تعتبر من جملة البشرية ! »
« وحباً في كرامة اعضاء هذا المجمع فلنبادر الى التصريح بانه بعد »
جدال طويل وعنيف كان الجواب ايجابياً ولكن باكثرية قليلة ! «
« فكم كانت القساوة على النساء شيئاً عادياً في القرون الاولى للمسيح »
« يشهد على ذلك القديس اوغسطن Augustin في اعترافاته فلما اتى بعض »
« صديقات امه القديسة « مونيك » يشكون اليها ضرب ازواجهن لهن »
« فبدلاً من ان ترق لهن وجدت ذلك امراً طبيعياً وحكمت عليهن بانهن »
« استحققن هذا التاديب بردهن في وجه بعولتهن او لقلة احترامهن لهم » .
« هذا وجاء من بعد الفلاسفة الذين وصموا المرأة بانها « نكبة الجنس »

« من الافعي فسموها (منبع الشر) واصل الخطيئة (وحجر القبر »
« وباب جهنم) (ومآل التعاسة) وان (ترتو للين) صرخ قائلا : ايتها المرأة »
« يجب عليك دائماً ان تكوني مغطاة بالحداد والفوانيس لاتظهرين للابصار »
« الا بمظهر الخاطئة الحزينة الغارقة في الدموع [1] » اه .

المرأة في خدمة الدين

كما كان للرجال اثر في خدمة المسيح ودينه ، فقد كان للنساء مثل ذلك فناصرنه وايدنه مثلما فعلن من بعد مع نبينا محمد ؛ ذلك لان الجنس اللطيف لرقة شعوره اقرب الى التصديق واوفر اندفاعاً ، مفاداة في سبيل الاعتقاد :

اجل ان النساء تداخلن في حياة المسيح في اعماله واسفاره ولازمن صحبته ، فاذكر ما جاء في الانجيل حيث ذكر الاخذ به للصلب ، « وتبعه جمهور كبير من الشعب والنساء اللواتي كن ايضاً يلطمن وينحن عليه [2] » « وتبعته نساء كنّ قد اتين معه من الجليل ونظرن القبر وكيف وضع جسده . فرجعن واعددن حنوطاً واطياباً وفي السبت استرحن حسب الوصية [3] » « ثم في اول الاسبوع اول الفجر اتين الى القبر حاملات الحنوط الذي اعددنه ومعهن اناس [4] »

وفي مقدمة اولئك النسوة اللاتي خدمن المسيح وتبعنه مريم المجدلية ويونا ومريم ام يعقوب .

---

(١) Mme Avril de sainte croix, Le Feminisme P 10-11

(٢) و (٣) لوقا اصحاح ٢٣

(٤) لوقا اصحاح ٢٤

ثم شكّل الجنس اللطيف بعد المسيح طبقة خاصة بين تلامذته واشتركن في بعض الوظائف فكن يعمدن ويتنبأن وينشرن الانجيل، واختار كثير منهن العزوبة كما ان ' بولس ' اشار الى تيموثاوس عن جملة نساء ساعدته في الخدمة الآلهية "(١). وان كتابه الشهير للرومان ارسله مع الشماسه [فيبا Phebé] وفيه يتكلم عنها كانت تستحق الاكرام "(١).

ثم لما حان عصر الاستشهاد في سبيل الدين ظهرت حمية اولئك اللاتي كن يحسبن ضعيفات في موقف الشهادة بالمحاكم وقفن مواقف عظيمة للدفاع عن الدين (٢)

وفضلا عن ذلك فان المرأة كافحت في قتل الرذائل . فقد عم الفساد في العالم حتى لم تعد الكتابات لتؤثر في ردع الناس وزجرهم . حتى قام امثال (ميتيللا) و(بولا) و(فابيا) و(مرسللا) فكن قدوة للنساء في حسن السيرة .

---

(١) E. Gouvé Histoire Morale des Femmes P. 324

(٢) P.A. Rosler. la question Féministe P. 199

الجزء الرابع

المرأة الاوروبية

= في عهدي الامومة والابوة =

قسم المؤرخون الاوروبيون تاريخ أوروبة الى ثلاثة اقسام:

١ — **التاريخ القديم** : منذ أول العهد بالبشر الى انقراض دولة الرومان الغربية سنة ٤٧٦ م

٢ — **تاريخ القرون الوسطى** : منذ انقراض دولة رومة الشرقية، الى سنة ١٤٥٣م [٨٥٧هـ] حين فتح العثمانيون قسطنطينية، أو الى سنة ١٤٩٢ حين جلاء العرب عن الاندلس واكتشاف أمريكة.

٤ — **التاريخ الحديث** : منذ نهاية القرون الوسطى.

ففي هذا الكتاب نقتصر على بيان حال المرأة الاوروبية في التاريخ القديم في عهدي الامومة والأبوة فقط، مرجئين البحث عن شأنها في القرون الوسطى، وفي العهد الذاتي بالتمدن الحديث، الى كتابنا الثاني الذي يتكلم عن النهضة الجديدة النسائية في العالم.

وانما أرجأنا البحث عن القرون الوسطى مع أنها من جملة عهد الأبوّة، وهي ايضاً قبل عصر النهضة المذكورة لأمرين: أولهما لكيلا يتقدم هنا موضوع القرون الوسطى على التمدن العربي الذي سيأتي البحث عنه، لما كان لحضارة العرب على تلك القرون من التأثير. وثانيهما لكيلا ينفصل موضوع القرون الوسطى عن التمدن الحديث، لان بذور النهضة قد وضعت خلال تلك القرون؛ فرأينا ان في افتتاح كتابنا التالي بالبحث

عن القرون الوسطى يكون من قبيل التمهيد لموضوع التمدن الحديث .

....

مثلما ان آسية هي مصدر النوع البشري فهي منشأ المدنيات ومهد الشرائع . ويظهر أن الشرق الادنى منها كان من اكثر الاقطار عمرانا ، فبينا كان فيه البابليون والاشوريون يتنازعون البلاد في الجزيرة ، كان الفينيقيون في سورية يجوبون البحار ، فينقلون الى العالم من صناعتهم وزراعتهم ما فيه الثراء ؛ وكان المصريون جيرانهم في طرف افريقية يفاخرون العالم بمدنيتهم وعمرانهم ، وناهيك بغيرهم من الأمم العديدة .

فلمّا تكاثر الناس وازدحموا في الشرق الأدنى وكانت اواسط آسّية معمورة بالصينيين فلا تقبل المزيد نزحت بعض القبائل إما فراراً من ظلم ، أو لمزاحمة ، أوحباً بالتجوال ، او لاستكشاف المراعى الى سواحل البحر الاسود الشمالية بطريق جبال القفقاس غالباً .

ولمّا كان عمران تلك المنطقة الشمالية ، غير سهل ، اخذ المهاجرون يتقدمون شيئاً فشيئاً في اوربة حتى عمرت بهم .

وقد قسّم المورخون هوءلاء المهاجرين الذين هم أجداد العناصر الاوروبية الى أربع طوائف :

١ — **البلاسكي** . أجداد اليونان والرومان

٢ — **الغول** . أجداد الفرنساويين والاسبانيين والايرلانديين

٣ — **الجرمن** . أجداد الالمان والفرنج والغوت ولو مبارد وساكسون ووَاندل

٤ — **السلاف** . أجداد المسكوف وبولونيا والصرب وخروات .

وما عدا اليونان والرومان فقد عاشت هذه الامم عيشة التوحش، ولذلك اصطلح المؤرخون على اطلاق لقب (برابرة) عليهم .

ولما كان حال المرأة عند هذه الامم متشابهاً لتشابههنّ في أساليب الحياة، فاننا نقتصر على الكلام عن المرأة عند البرابرة إجمالاً . ثم نتحول للبحث عنها في الامتين الحضريتين اليونان فالرومان ، كلًّا على حدة .

هذا ولما كان الجرمن هم الذين مثلوا الدور ؛ الأهم وهم بمقام الأصل لجميع الامم العظمى في أوروبّة من المانيا وانكلترة وفرنسة واسبانية ، فاناً نتوسع في الكلام عنهم أكثر من سواهم من بقية البرابرة .

* * *

- ١ -

المرأة عند البرابرة

في أوربة

ان الأمم الاوروبية الاولى مرّت مثل غيرها في دور الامومة، وتخلقت بأخلاقه، فلم تكن تعرف للزواج سراً، ولا علاقة للاولاد بغير أمهاتهم. وقد رأى الباحثون في التاريخ القديم آثاراً كثيرة لهذا العهد عند البرابرة، وأبرزوا على ذلك الادلة والشواهد الوافرة:

منها ان ابن الاخت كان عندهم بمعزة الابن، حتى ان «تاسيت» [٥٤ — ١٤٠ م] المورخ الاختصاصي عنهم، روى ان كثيرا منهم كانوا يظنون ان الرابطة بين الخال وابن اخته كانت اوثق منها بين الوالد وولده. وفضلاً عن ذلك فقد ذهبوا الى ان شريعة شارلمان نفسها احتفظت بشيء من تلك الآثار، لما جاء فيها من ان الجرمني الذي يموت عن غير عقب، يرثه في اول درجة والده. وتقدم الخالة على العمة في الارث.

غير ان الجرمن لم يلبثوا ان دخلو في عصر تقديس القوة، وبالرغم عن احتفاظهم بآثار عهد الامومة، فقد جروا مجرى سواهم في استعباد المرأة واعتبارها قاصرة محرومة من الارث بوجود الذكور.

وكانوا حريصين في شرائعهم المتأخرة على حرمان النساء من ملك الارض اكثر من سواها، لعجزهن عن حمايتها: ففي شريعة (التورانجيين) "Thurinigens" كانوا يورّثون الارض الذكور البعيدين دون الاناث القريبات(١) ولهذا السبب صاروا الى حرمانهن من العرش ايضاً في الشريعة

المعروفة بساليك "Salique,,

اما استعبادهم المرأة فقد نهجوا فيه منهج اجدادهم الآسيويين لا سيما الهنود، بنتاً كانت او زوجة أو أمّاً، الى حد ان البنت كانت تحت وصاية وليها دائماً؛ ولا يحق لها الزواج بغير ارادته في حين انه حرٌّ في تزويجها من غير استشارتها [١] واذا تزوجت كان المهر الذي يقدمه الرجل الى ابيها بمثابة ثمنها، فتمسى بذلك كأنها ملك يده، وتصبح كل اعمالها حتى في مالها الخاص مرهونة بارادته، ولا تستطيع التصرف في شيء بغير إذنه. [٢]

قال (فنهولا) عنهم «ان واجب احتراق الزوجة مع جثة زوجها، وحق الرجل في بيع امرأته وفي طردها وتقديمها الضيوفه، وفي نقلها بوصيته بعد موته لسواه؛ كل ذلك يقدّر كم كان هولاء بعيدين عن التمدن».

بل ان تلك الزوجة المسكينة لم تكن لتحرر حتى بعد موت بعلها، وحتى لو أهمل في حياته اثبات إرادته في وصيته بشأنها، فان حقه عليها لا يتلاشى، بل ينتقل الى اهله ولا سيما اذا كان لها اولاد. واما اذا لم تكن ذات اولاد فانها تصبح اكثر استقلالاً، ولكن لا تخرج مع ذلك من تحت الوصاية؛ والولد البكر يصير ولي امه بعد ابيه وبيده زمامها، الى حد انها لو تزوجت ثانية من غير ارادته تجازى بسلبها كل ما تملكه. [٤]

بل قد بلغ من شريعة (لومبارد) انها خوّلت الابن الحق في أمر تزويج امه او دخولها الدير؛ اما هي فليس لها حق الوصاية في شريعة «نرماند» على اولادها، وانما ينصب وصياً عليهم سيد الارض ومالكها

(١) G. Ricard, La Femme dans l'histoire P. 174

(٢) E. Gouvé Histoire Morale des Femmes P. 92

(٣) P.A. Rosler. la question Féministe P. 217

(٤) E. Gouvé, Histoire Morale des Femmes P. 311-312

حيث يسكنون [١]. على انه وان قيل عنهم بأنهم لا يجوزون تعدد الزوجات والتسري فان تاريخهم لا يخلو من آثار ذلك [٢]

غير انه لتخفيف الطلاق فرضت شريعة (بافاريا) على كل مطلق زوجته لغير عذر شرعي ان يؤدي الى اهلها مع مهرها واملاكها ثماني واربعين قطعة ذهبية، ثم ان شريعة (الاسكنديناڤيين) التي كانت تخول الرجل وحده الطلاق، لم تلبث ان منحت المرأة هذا الحق. وزيادة على ذلك فقد منح البرابرة المرأة حق الاشتراك في الحفلات الدينية. واحسنوا كذلك اذ قيدوا سلطة الرجل على املاك زوجته، فهو عندهم بمثابة مدير لها لا مالك فلا يستطيع ان يبيع شيئاً منها الا برضاها ورضا اقرب اهلها [٣]

وهكذا شرعت حالة المرأة عند البرابرة تتحسن تدريجاً حتى انه لما دخل «قيصر» القائد الروماني بلاد الغول. كانت العروس تجلب معها مهرها لزوجها فيضيف اليه ما يعادله، فاعتبر المؤرخون ذلك تحسيناً محسوساً لما في تلك التسوية في تبادل المهر من الرموز المعنوية.

كذلك كان الامر عند الفرنك وغيرهم من الاقوام الذين نزحوا الى فرنسا. فأن المرأة في اول عهدهم كانت تشرى كما يشرى المتاع. ولكن ما لبثت تلك العادة ان اضمحلت حتى انه في زمن (تاسيت) المؤرخ الروماني لم يبق لها الا اثر ضئيل وصار تبادل الهدايا بين العروسين يشير نوعاً الى المساواة [٤]

* * *

(١) Laboulaye. Histoire de la succession des Femmes liv. IV P. 259

(٢) Henri Marion, Psycologie de la Femme

(٣) Strabon Liv. II, Ch. 11. 3

(٥) E Gouvé Histoire morale des Femmes P 151

(٦) هنري ماريون — خلق المرأة ص ٢٣ تعريب اميل زيدان



المرأة اليونانية

ايفيجه ني *Iphighénie*

ابنة آغا ممنون ملك مدينة ميسان وزعيم ابطال اليونان الذين حاصروا تروادة ، قدمها والدها ، بحسب اساطير اليونان للآلهة ديانا ، توسلاً لنجاح مهمتهم فافتدتها بعجل وقادتها الى طوريد حيث صارت كاهنة لها .

-٢-

المرأة اليونانية

ان افكار العالم عائلة واحدة بعضها امهات بعض. او بمثابة اخوات او بنات اعمام . فاذا دققنا في شريعة اليونان وتقاليدهم مثلاً ، لا نلبث ان نتوصل الى معرفة اصولها، وان نتأكد ان الاختلاف بين المدنيات ؛ ان هو الا عن التطورات الدائمة ، وانه لا يوجد ثمت استقلال حقيقي بين افكار البشر ؛ كما لا يوجد مراتب نوعية مادية منفصلة ، بل هي سلسلة مرتبطة الحلقات .

واليونان الذين هم من آريي اوروبة ، كان نظرهم الى المرأة مثل نظر اجدادهم الهنود آريي آسية. كما ان دينهم لم يخل من جملة مقتبسات عن جيرانهم المصريين ، والفينيقيين الذين يظن انهم استعمروا في الاجيال الغابرة مواطن اليونان . فلذلك اصبح من المرجح ان شريعة اليونان الاولى كانت موسسة اولاً ، على شرائع اجدادهم الهنود ؛ وثانياً على انظمة جيرانهم .

عهد الامومة

فضلاً عما يشير اليه اشراك اليونان النساء في الالوهية من اعتبارهم المرأة وتقديرها ، فان في اقوال قدماء الموءرخين تصريحاً كافياً عن مرورهم بعهد الامومة.

روى اغسطينوس عن فارون : انه في اوائل تاريخ اليونان كان الاولاد

ينتسبون لامهاتهم، وانه كان للوالدات حق التصويت في المجتمعات العامة
وكذلك فان الياذة «هوميروس» تدل على احتفاظ قومه باثار من عهد
الامومة، ذلك لما يلاحظ فيها ان صلة الرحم من جهة الام كانت اوثق مما
هي في جانب الاب، فكان يجوز في كل من اثينة واسبارطة بزواج الرجل
من شقيقته من ابيه، ولكن لا يسمح له ان يتزوج من شقيقته من جهة
الام (١)

ويظهر ان اليونان القدماء كانوا على حالة الفوضية والشيوع في النساء؛
فقد روي عن بلوتارك ان شريعة ليكورك Lycurgues متشرع اسبارطة
قبل نحو تسعة قرون من الميلاد (٢) كانت تجوز الفوضية بالنساء وتسمح
للزوجة ان تستبيح نفسها من صاحبها باذن بعلها، مثلما فعلت تيمه امرأة
اجيس ملك اسبارطة مع حبيبها السيبياد. كما انها تخول الزوج ان يدفع
زوجته للاستبضاع من آخر، على ان يكون الولد للزوج نفسه؛ وناهيك في
سماح تلك الشريعة لمن يستحسن امرأة ان يطلبها من رجلها (٣).

ويظهر ان هذا الشيوع استمر طويلا عند قوم يسمون اكاتيرس
Agathyres في شمال تراقية حسبما رواه هيرودتس (٤)

فكل ذلك يشير الى مرور اليونان بعهد الامومة حينما كانت
الام مصدر النسب، وعلى حالة حسنة في الهيئة الاجتماعية.

غير انه لما اتى عهد القوة، وتحول النسب بواسطة «سكروبس»

---

(١) C. Letourneau La condidtion de la Femme P. 409

(٢) Dictionnaire Lerousse P 1220

(٣) Fernand Milton, Les Femmes et l'adultdrè P 11

(٤) Herodote IV P 104

للاباء، شرع شأن المرأة اليونانية في الانحطاط تدريجاً حتى امست عند اليونان اصحاب الحضارة العظيمة، كما هي لدى جيرانهم البرابرة ممتهنة عائلياً واجتماعياً .

اليونان في العالم

كانت المرأة عند اليونان قاصرة تحتاج الى ولي في كل دور من ادوار حياتها. وهو والدها ان كانت ابنة، وزوجها ان كانت بعلة، وولدها او قريب لها ان كانت ارملة، كما سيأتي في كلامنا عن كل دور من هذه الادوار



ابنة : ان تربية البنات في العصر اليوناني كان من شأنها انشاؤهن خادمات خاملات لا متنورات . فلم يكن يوجد في اثينة مدارس لهن بل كان فتيات الاغنياء يقتصرن على تلقن القراءة والكتابة في دورهم. واما الفقيرات والمتوسطات فكن يتلقين بعض معلومات دينيـة عن والداتهن الجاهلات في اثناء اهتمامهن بممارسة خدمة المنزل

وبالاجمال فقد كانت الابنة في اثينا تكاد تكون متحجبة فلا تختلط بالذكور، بل لا تجتمع بفتيات الا في اثناء الاحتفالات الدينية الرسمية. وكان وليها يبادر لتزويجها متى بلغت الخامسة عشر من عمرها، تاركاً لبعلها اكمال تربيتها وفقاً لرغبته

ولكن اسبارطة كانت من جهة التربية اوسع حرية من اثينة، لان البنات فيها كن ينشأن مثل نشأة الفتيان، فيشاركنهم في مزاولة الالعاب الرياضية والرقص والموسيقى، بالمعنى الواسع الذي كان اليونان يعنون

بكلمة موسيقى [١]

واما من حيث العلم فلم تختلف اسبارطة عن اثينة ، كما يفيد ذلك ارسطو حيث قال : « اقام الشارع في اسبارطة دور العلم العامة على ان ينشأ الرجال حسب استعدادتهم ، في حين ان النساء يبقين مهملات ، فيعشن بين ذلك الشعب الحربي في حياة السفه » [٢]

على ان اللاتي اختصصن بالتربية والتعليم من بين نساء اليونان هن السراري المحظيات ، فقد كانوا يتعهدونهن بذلك اكثر من سواهن [٣] ذلك لان السراري يعددن لملذات الرجال ، واما بقية بنات البيوت فكان مصيرهن الى الخدمة والتوليد وادارة المنزل .

هذا وكانت سلطة الاولياء على البنات لا تحد ، فللولي ان يزوجها بدون استشارتها ؛ كما ان كل عقد معها لا يكون برضاه يعد لغوا ؛ بل كانت سلطة الاب اوسع من ذلك . فله ان يدرج مصير ابنته في وصيته وعليها الطاعة بعد موته [٤] واذا مات فلا ترث منه ان كان لها اخوة ، وان لم يكن لها اخوة فانها تصبح ذات علاقة بالارث ، وان كانت ليست بالوارثة فعلا : ذلك انها تصير زوجة للاكبر من ورثة والدها الاقربين ، والولد من هذا الزواج ينسب لجده واليه ينتقل ارثها من ابيها وليس اليها .

ومن الغريب ان البنت ولو كانت متزوجة تترك في تلك الحال زوجها واولادها ؛ وتصير الى صاحب الحق من اقرباها ، الا ان يكون

---

(١) Shamann, antiquité Grecques I, P 583

(٢) Aristote De république P 1169 (Béral)

(٣) P.A. Rosler, La question Feministe P. 152

(٤) C. Letournau, La condition de la femme P. 416

زوجها الاول من اقرباها في الدرجة الثانية او الثالثة (١)

ولكن اليونان لم يلبثوا ان شعروا بسوء مغبة هذا النظام ، فعمدوا الى اصلاحه . وقد سبق الى ذلك اهل مقاطعة « دوريد » ، ثم اقتفت اثرهم اثينة بفضل «صولون» ، غير ان اهل جزر الارخبيل لبثوا يحتفظون به اكثر من سواهم (٢)



الزوجة : كان اليونان حريصين على رواج الزواج استكثاراً للنسل ولا سيما الذكور . ولكن لم يكن الزواج مع ذلك من شأنه ان يوجد لديهم رابطة روحية بين الزوجين الا ان يشاء الرجل . لان المرأة في زواجها كانت تكاد ان تندمج في جملة مقتنيات الرجل فيتصرف بها كيف شاء وهي مقيدة ، حتى قيل انها لم تكن مفوضة بالانتقال من غرفة الى اخرى من غير مشورته . وهكذا فقلما كانت تتميز منزلتها عن جواريها ، بل ما كانت ميزتها الا لكونها ام الاولاد والقيّمة الامينة على الدار .

ولما كانت الزوجة في اعتبارهم من جملة المقتنيات ، كان التصرف فيها بينهم في بعض أزمنة تاريخهم امراً غير منكر ، كما بينا . ولحرصهم على كثرة الاولاد أُطلقت حرية المرأة ايضاً في هذا الشأن ، فسمحت شريعة « صولون » للتي اصيب زوجها بمرض يعجزه عن الزواج ان تلجأ الى سواه (٣)

وربما بطلت فيما بعد تلك العادات المنافية للغيرة الطبيعية ، اذ هي لا

(١) E. Geuvé, Histoire Morale des Femmes P, 86

(٢) G. Richard La Femme dans l'histoire 177-179

(٣) C Letourneau, la Conditiln de la Femme P 415-416

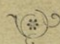
تتلائم مع ما وصل الينا من تحفظ اليونان بالجنس اللطيف ، ومنعهم اياه عن الاختلاط بالجنس القوي ، ولو كان زائراً الا باذن الرجل ، ولا تنطبق على ما وضعوه من صرامة عقوبة الزانية فيما بعد .

ولكن مع ذلك لا ينكر ان الاقتران غير الشرعي لبث مرعياً في اثينة المتمدنة مدة مديدة . وفي اثناء ذلك كان للرجل الحر حق الطلاق كما له التصرف فيما ملكت زوجته . واما هي المقيدة المحتجبة ، فلا تستطيع اجراء شيء الا باذنه ، بل لا تقدر ان تبيع او تشتري لحسابها اكثر من خمسين ليتراً من الشعير

ولا عبرة بما قاله بعد ذلك « تمستوكليس » « ان ابني اكثر اليونان سلطة لاني احكم اليونان وامه تحكمني وهو يحكم والدته » فلم يكن بالحقيقة سلطة للمرأة الا بقدر ما يريد الرجل . فكان يصادف انه يمنح احياناً من السلطة محظيته من ذوات العوائد الحرة والعلم البرّاق اكثر من زوجته المحتجبة الجاهلة .

هذا وكانت سلطة الرجل نافذة على امرأته حتى بعد موته . فكان له ان يدرج في وصيته انتقالها لمن يريد ، وعليها الاطاعة (١) وناهيك بما كان له من الحق في نصب الوصي عليها وعلى اولاده في حياته

ولكن لم يلبث التمدن اليوناني ان كفل للمرأة بعض الاصلاح ، فسمح لها بالتملك والتصرف ، كما سمح لها بان تطلب الطلاق . وصار على الرجل اذا تصدّى هو لطلاقها ان يعيد عليها مهرها مع الفائدة (٢)



(١) Heuri Marion Psychologie de la Femme P 30 - 31

(٢) C Le tourneau La condition de la Femme P 416 - 423

الارملة : ربما كان للزوجة مكانة في بيتها بما يتوفر لها من التأثير على قلب زوجها ، ولكن الارملة المسكينة التي تصبح تحت وصاية ولدها او أهل زوجها فماذا ينتظر لها من المنزلة ؟

وان تلك اللهجة الملوكية التي قابل بها «تلماك» امه الارملة في فصل «الاوديسة» من الالياذة تبرهن على انه لم يكن للام عند اليونان منزلة تغبط عليها ، فقد قال لها « عودي الى دارك واهتمي باعمالك ، بنسجك بمغزلك ، وأمري خدمك بالقيام بوظائفهم ، اما الكلام والامر المطلق فهما من خصائص الرجال ؛ ومن حقوقي انا صاحب البيت والراس هنا»

ولذلك فربما كانت عناية الرجل بنقل امرأته بعد موته الى احد اصحابه هي من قبيل الرحمة بها . كيلا تقع تحت سلطة اهلها او اهله حيث لا يكون للقلب تأثير على كبح العواطف القاسية فتتعذب



وبعد فمهما كان لليونانية من الميزة والاصلاح ، فهي لم تكن في جل ادوار حياتها الا قاصرة مظلومة ، فبينما هي تحسب ان في زواجها السعادة فاذا هي تندم على الايام التي كان ابوها فيها سيدها . ثم اذا مات زوجها كان لها من الندامة ضعفان ، وهكذا حال البشر لا سيما التعساء منهم

اليونانية في الهيئة الاجتماعية

ينسب انصار المرأة في التمدن الحديث تبعة نقائص النساء الى الرجال لما كان لاستبدادهم من التأثير الاخلاقي عليهن ، وقد رأينا في ضغط اليونان على المرأة وقلة عنايتهم بتربيتها وتعليمها مثالا لذلك لما اثرا في انحطاطها المادي والمعنوي :

كان اليونان يحذرون كثيراً من المرأة ، وينسبون اليها كل نقيصة عوراء حتى انهم كانوا اذا ارادوا احتقار الرجل يدعونه امرأة . كما تنص عن ذلك الالياذة .

وانا لا نتعرض لذكر اقوال حكمائهم وأمثالهم التي فيها اما الانتقاد المر على المرأة أو التحذير منها ؛ فهي كثيرة جداً ولا مجال لها هنا ؛ ولكننا نقول اجمالاً ان المرأة على وجه عام كانت بنظرهم وفي مقدمتهم الفلاسفة ، مخلوقاً ناقصاً غير مستعد للحصول على فضيلة الا بطريق الخضوع ؛ واليك قول اريسطو « حكمة الرجل ليست هي حكمة المرأة ، فالطبيعة عينت لكل من المرأة والرقيق منزلته »[1]

فاليونان ولا سيما أهل أثينة كانوا من الامم التي اعتبرت المرأة متاعاً من امتعة الدنيا التي وجدت لبحبوحة الرجل ؛ ولذلك كان عندهم بون شاسع بين الجنس القوي والجنس اللطيف في الحقوق ؛ وإن من آثار ذلك البون ، ما كان لولادة الذكور في نفوسهم من الابتهاج ، حتى انهم كانوا يعلنون ذلك في تعليق اكليل من الزيتون فوق باب الدار .

ولكن تاريخ اليونان لم يخل مع ذلك من نسوة كان لهن مقام خاص لادب اوعلم مثل «صافو» من اهل القرن ٦ و٧ ق م التي اشتهرت بالشعر واللطف . ومثل الكاهنة « انيتا » من أهل القرن ٣ ق م التي اشتهرت بالطب والشعر . وعلى حسب تقدير العالم الافرنسي بهلاج(Pélage) فقد بلغ عدد اليونانيات الفيلسوفات خمسة وستين امرأة ؛ اورد اسمائهن ولكن ضربنا صفحاً عن تعدادهن اجتنابا للتطويل[2] .

---

(١) Henri Marion, Psychologie de la Femme P 35

(٢) A. Robiere, Les Femmes dans la science P 329

ويظهر ان تاريخ اليونان حافل في امثال انيتا لان الطب كان من وظائف الكهنة وبجملتهم النساء [1].

والذي يلفت الانظار بالاكثر، هو تعلم تلك النسوة الفلسفة والطب وبعض العلوم العالية، رغماً عن الرجال. ذلك ان اليونان منعوا النساء من تلقي الفلسفة وغيرها، وكذلك الطب حيناً، بيد ان النسوة اللاتي تسرب لنفوسهن الشغف بالعلم جريا مع روح العصر، لم تعجزهن الحيلة عن بلوغ الارب. فاذا رجعت لتاريخ كل من الفيلسوفتين اكسيوته Axiothée ولستهني Lasthénie من اركاديا قبل المسيح بثلاثمائة عام الفيتهما متخفيتين بلباس الرجال رغبة بمتابعة دروس افلاطون. وحسب رواية كليمن الاسكندري فما كانتا وحدهما في ثياب الخفاء [2] شغفا بالعلم.

فحبذا يوم يتسرب فيه الشغف بالعلم الى افئدة فتياتنا، ويلبثن يحتلن هكذا على بلوغ امانيهن بالتحصيل حتى يفزن بها على رغم المعاكسين.

***

---

(١) المقتطف مجلد ٤١ ص ٣٢٩

(٢) A Rebière Les Femmes dans la science P 25

- ٣ -
المرأة الرومانية

ان آثار عهد الامومة ضعيفة جداً في تاريخ الرومان ، غير ان المدققين فيه استنتجوا ان الرومانية مرت كسواها بذلك الدور ، وان عهد الابوة لم يلبث ان قام على انقاضه فقضى على كل استقلال لها ، كما حصل لسائر نساء العالم .

هذا ولما كان رقيّ الرومان من بعد ؛ واسترسالهم مع عواطفهم ، تكفلا باصلاح حال الجنس اللطيف ، فلذلك كان تاريخ الرومانية حرياً بان يقسم الى قسمين :

١ - عصر الرومانية الحديدي

٢ - عصر الرومانية الذهبي

فعلى حسب هذا التقسيم الطبيعي نجري في الكلام عن المرأة عند الرومان ؛ فنبين في الاول ما كانت عليه من الاستعباد ، وفي الثاني ما صارت اليه من الاطلاق .

عصر الرومانية الحديدي

من اهم معتقدات الجنس الآري ، القول بخلود ارواح الموتى وتأليهها ، وانها تحتجب في قبورها عن اعين البشر ، وان من لا يدخل القبر منها يظل تائهاً في الفضاء ، ويكون شريراً ، وان الروح الصالحة الراقدة

في رمسها توجب على بنيها المتسلسلين منها ان يفوها حقها من العبادة والتكريم.

ولهذا الاعتقاد التام، كان اهل كل بيت منهم يعبدون ارواح آبائهم ويقيمون لها مذبحاً في دارهم لا تراه اعين الغرباء، ويجعلون النار تضطرم عليه ابدا، لانها اذا همدت انقطع بها التكريم المفروض، واستحالت الروح الصالحة الى روح نجسة. ويتولى سدانة المذبح اكبر اهل ذاك البيت سناً واقربهم من الاب المعبود، ثم تنتقل السدانة بالارث الى الاقرب فالاقرب

فكان من تأثير هذا الاعتقاد ان جعل الرومان الزواج فرضاً واجباً على كل رجل واتخذت الوسائل لرواجه، يريدون بذلك ان تبقى ارواح الاباء ممتعة بتكريم ذريتها وعبادتهم. لانه اذا انقرض النسل فلا يحل لغيره القيام بهذا الفرض المقدس [1]

ومن اجل هذا الاعتقاد كان على الرجل الروماني ان يعترف عند العقد انه تزوج ابتغاء البنين، ولذلك مهما احب الزوج امرأته فلا بد له من ان يطلقها اذا بقيت عاقرا [2] كما انه بالنظر لاختصاصهم الرجال بالسدانة، فكان اذا بشر احدهم بالانثى ظل وجهه مسودا وهو كظيم.

ولما كان الرومان يقدسون سلطة الفرد فقد منحوا الاب الذي هو كاهن البيت السلطة المطلقة على عائلته الى حد انه كان اذا شاء طلق امرأه او طرد اولاده او باعهم او زوجهم مرغمين، او استولى على مقتنياتهم وثمرة اعمالهم. وهو الذي يعاقبهم على الذنوب والجنايات. وليس للحكومة

(١) و (٢) مجلة المباحث س ٥ ج ٢ ص ١٦١ـ١٦٤

او لقضاتها شأن في ذلك [1] ولاعتبارهم البنات بمثابة ملك ابيهن فكان على الولي واجب تزويجهن منذ حداثة سنهن من غير ان يكون لهن رأي بنصيبهن ومستقبلهن ، واذا اعطي وعداً باحداهن فكان مسئولا بوفاء وعده [2].

ولم يك للاب ان يزوج ابنته رغماً عنها فحسب ، بل كان له ايضاً فيما اذا لم يكن اعترف حين العقد بالتخلي عن سلطته الابوية ؛ حق ان ينقض ما ابرمه من عقد الزواج ، وان يسحب ابنته من دار زوجها الذي يحبها ومن بين اولادها [3]. وقد بقي ذلك الى حكم انطونن [4] العادل (١٣٨ — ١٦١ ق ٠ م ٠)

على انه كان في روما جملة انواع من عقود الزواج تعترف بها الشريعة : (١) الزواج الفخم ؛ وهو زواج الاشراف (٢) زواج المبايعة ، وهو زواج العامة (٣) زواج الفقيرات ، الذي ينفذ شرعاً بعد عام من العقد .

ففي الزواج الفخم تنتقل السلطة من الاب الى الزوج حتى ان الزوجة تصبح كابنة لزوجها ؛ وهي وما ملكت يداها حتى البائنة (الدوطة) ملك سيدها ؛ الا ان يسبق من ابيها شرط على انه بحالتي موتها او طلاقها تعود البائنة اليه

و بهذا الزواج ، كان للمرأة ازاء ما عليها ان ترث من زوجها ؛ خلافاً للانواع الاخرى من العقود [5].

---

(١) مجلة المباحث س ٥ ج ٢ ص ١٦٥

(٢) C. Letourneau La condidtion de la Femme P. 438-439

(٣) E. Le Gouvé, Histoire Morale des Femmes P, 87

(٤) C Letourneau, la ConditiIn de la Femme P 438

(٥) Institutes de Gains, Des noces P 58

اما الطلاق فلم يكن مرعياً في روما قبل التاريخ . بيد انه لم يلبث ان انتشر فيما بعد على شروط اساسها ضرورة عقد مجلس يعلن به الطلاق مثل المجلس الذي اعلن به الزواج

ثم ان الفكرة العامة في روما بالعصر الحديدي كانت تنكر على الارملة زواجها ثانية ، وفاء لرجلها الاول؛ ولكن تلك العادة ما لبثت ان تلاشت فيما بعد

و بالنظر لامتهان الرومان المرأة ، واعتبارها انها مخلوقة للدار، فلم يهتموا بتعليم وتثقيف بناتهم، وانما كانوا يدربونهن في بيوتهم على الخدمة والغزل والنسج ، حتى ان الامبراطور « اوكست » نفسه اراد ان يكون مثالاً صالحاً لامته بهذا الشأن؛ فاقتصر على ان يلبس من الثياب المحاكة من بناته وحفيداته (١) .

ولكن مع كل ذلك ، فالمرأة الرومانية بالعصر الحديدي وان كانت على شاكلة اليونانية في وضاعة المكانة العائلية والاجتماعية؛ الا انها كانت اوفر حرية منها . فكانت تخرج سافرة فتشهد الحفلات والولائم ومعاهد التمثيل، فتنزل فيها منازل الاكرام . ولكن التحفظ عليها كان يتمشى مع اطلاقها خطوة خطوة . فكما كان محظورا جدا على المرأة ان تشرب الخمر، فكان مطلوباً من الرجل ان يكون رذيناً في محبة زوجته (٢) . غير ان الام كانت في كل الادوار محط الاحترام والاكرام

(١) C. Letournau, La condition de la femme P. 440-447

(٢) Lecky. I, P 93

عصر الرومانية الذهبي

كانت المرأة في نظر اهل روما القديمة شرا يجتنب، ومخلوقة للذة وخدمة الرجل من جملة المخلوقات . بيد انه لما صارت بلدة روما الحقيرة؛ قاعدة لدولة كبيرة، ومدينة تجارية صناعية فخمة، جمعت فيها انموذجات العالم المتمدن، تبدل نظر اهلها الى المرأة، وتبدلت منزلتها عندهم. فمن الاستعباد المحض افلتت الى الاطلاق المطلق؛ بل ارتفعت الى السيادة النافذة .

و بتأثير عادة البائنة (الدوطة) وما منحت الشريعة الرومانية فيما بعد المرأة من استقلالها في ملكها؛ وحرية التصرف في شؤونها الخاصة؛ مثّل الغنيات ادوار الرجال، باستعباد الازواج. و بتأثير الرخاء والفساد والعبودية للجمال، والاستسلام الى العواطف، استوى على عرش كل قلب روماني امرأة . فامسى الرجال رعية النساء . وما اوفر رعية ملكات القلوب بين الرومان المسترسلين في الملذات ؟.

وقد اساء هذا الحال « كاتون » احد عظماء روما السياسيين [٢٣٤ — ١٤٥ ق.م] فحاول ان يثبت شريعة « فوكونيا » التي تحرم النساء من الثروة؛ ولكنه لم يفلح ، ولم تلبث شريعتا « جوليا » و « بابيا بوبووا » ان اجهزتا على كل اوضاعه[١] .

ولبث حال النساء يتحسن في الشريعة الرومانية تبعاً لتحسنه في نظر الرجال ، حتى انه بعد الامبراطور « ديوكلتين » [٢٨٤ — ٣٠٥ م] لم

(١) G. Richard La Femme dans l'histoire P 265

يبق اثر من وصاية الاباء والازواج الشديدة . كما ان الزواج صار من شأنه ان يؤيد استقلال المرأة الغنية [١] واستمر ذلك الى ان كاد المتشرعون في حكم « يوستنيان » [٥٢٧ — ٥٦٥ م] ان يضعوها على مستوى المساواة التامة مع الرجل في الحقوق [٢]

هذا وفضلاً عن العائلة فقد صار للنساء منزلة حسنة في الهيئة الاجتماعية : فقد قال « السير جمس دونالدسن » : « انهن ابدين في عهد الامبراطورية ، لا سيما في آسية الصغرى نشاطاً عاماً . وحظين بالاحترام التام ، وانهن كن ينتخبن لاعلى المناصب . وقد بلغ كثيرات منهن ارفع المراتب الدينية في آسية . وهي ربما اسمى كل علامات الشرف [٣] » وناهيك بما منحته بيزانطة الجنس اللطيف من الحق في العرش

. . . . . .

ان لكل دور من ادوار الحياة مظاهر خاصة ترافقه وتتبدل بتبدله فكما ان استقلال المرأة العصرية بالحقوق جعلها تستقل بالاعتماد على نفسها ، وباداء الواجبات لشخصها ولغيرها ، فتبدل بذلك نظام العائلة القديم ؛ فان استقلال المرأة الرومانية عن وصاية الرجل رافقه شكل جديد من الحياة الزوجية والعائلية : فان تساوي الزوجين بالحرية والاطلاق ، بالاضافة الى اسباب اخر قبل استعداد النساء لذلك ، جعل الزواج ضعيف الرابطة مختلا الى حد ان الرومانية (كما قال سيناك) . كانت تعد السنين ليس على عدد القناصل وانما على عدد ازواجها .

(١) C Le tourneau La condition de la Femme P 451

(٢) L. J Lumsden La Femme P 62

(٣) Sir James Donaldso.1, Position of womau in Early Greece dan Rome P 124

وروي عن القس « جروم » ان رومانية تزوجت في المرة الرابعة والعشرين رجلا كان تزوج من قبل ثلاثة وعشرين امرأة[١] »

ذلك لان الطلاق امسى يقع لاقل مناسبة بل لاول ملل بين الزوجين. فقد روى مثالا على ذلك، ان احدهم قال لامرأته : اذهبي فانك تمخطين كثيرا، واني ارغب الزواج من امرأة ذات انف ناشف[٢]. كما ان الفحشاء راجت رواجاً شديدا عندهم، ولم يعد لها بنظرهم اهمية. وقد قال "بلوت" ان المحظيات كن كثيرات في روما مثل الذباب في فصل الصيف. وشاعت المصاحبة بين الجنسين الى ان ادرجت في قوانينهم، وخصص لها فيها فصول حتى صارت كأنها شرعية[٣]

وتسرب الفساد لنساء القياصرة ايضاً حتى جاهرن به . وحسبنا ذكر اسم كل من "ليفيا ارستيليا" زوجة (كاليكولا) (٣٧ - ٤١ م) ذلك الامبراطور الشهير بشدته، و (مسالين) زوجة خلفه (كلود) (٤١ - ٥٤م[٤]

على ان المرأة العصرية اذا كان اعتمادها في امر مساواة الجنسين على طلبها العلم، فالرومانية لم تكن كذلك، بل كانت قوتها في سلطان الجمال والدلال، ونفوذها على قلوب استعبدتها الشهوات

فالعلم في العصر الروماني الذهبي لم يشمل النساء بصورة جدية اكثر من عصرهم الحديدي، والى عهد الامبراطور « اوغست » قبيل المسيح، لم يكن يوجد لديهم مدارس عامة للبنات . ثم ان هذه المدرس وان

---

(١) Laboulaye, Loc. Cit. P 52

(٢) E Gouvé Histoire morale des Femmes P 219

(٣) C. Letourneau La condition de la femme 452

(٤) F. Milton. Les Femmes et l'adultère P. 22

وجدت من بعد وعنيت بنشر العلم بين الجنس اللطيف ؛ الا انها كانت عقيمة في التربية والتعليم ، وفضلا عن ذلك فان الاميال العامة كانت منصرفة لنحو الرقص والموسيقى (١)

فلذلك فلما نفخ في صور الاطلاق العام والحرية الواسعة ، لم يلف النساء لهن سلاحاً سوى الجمال فحاربن به ولسان حالهن يقول :

ولو ارسلت رمحي مع جبان لكان بهيبتي يلقى السباعا

غير ان تغلب المسيحية عليهم ، وان لم يحسن الحالة العامية ، ولكنه اصلح فيهم الاخلاق ، واوقف جماح النفوس ، وفل سلاح الجمال زمناً ، وهو البقية الباقية من قوة نساء الرومان بل هو رمحهن النافذ

---

(١) C. Letourneau La condition de la femme P 447-453

الجزء الخامس

المراة العربية قبل الاسلام

(في عهدي الامومة والابوة)

لمّا كانت ابحاثنا في هذا الكتاب تبدأ من الازمان البائدة ، اصبح الاولى بكلامنا في هذا الباب ان لا يكون محصورا في نفس المراة العربية ؛ بل يتطرق للتي كانت بمثابة الاصل لها ؛ لان هذا الاسم « عرب » حديث بالنسبة للعهد الذي نرغب الرجوع اليه :

فالعرب هم فرع من الساميين . ويشترك معهم في هذا الاصل العبرانيون والسريان والحبشة والفينيقيون والاشوريون والاراميون ، فلذلك اذا ما تطرق بحثنا الى امة كانت قبل العرب في مساكنهم ، فلا نكون جاوزنا الموضوع ، بل يكون بحثنا ضمن الاصل السامي

غير انا مع ذلك قد عولنا على ان لا نلم في هذا الجزء على قدر الطاقة الا بما غلبت عليه العروبة ؛ فبلاد اشور مثلاً وان كانت سامية ، الا انا لا نذكر من بين الدول التي تغلبت عليها الا دولة حمورابي ، لما ترجح عند المؤرخين انها عربية . واما ما بقي من دولها فقد سبق البحث عنها اجمالاً على انفراد ، كما فعلنا بالعبرانية والفينيقية وان كانتا شقيقتي العربية .

وقد قسمنا هذا الجزء الى اربعة اقسام :

١ ـ المرأة العربية قبل التاريخ

٢ ـ المرأة في التمدن العربي الشمالي

٣ ـ المرأة في التمدن العربي الجنوبي

٤ ـ المرأة العربية في فترة الجاهلية

ونعني باهل التمدن العربي الشمالي، العمالقة بالعراق وفي مصر وبقاياهم، والانباط والتدمريين وغيرهم، المعروفين بالعرب العرباء، ونريد باهل التمدن العربي الجنوبي، المعينين والسبأيين والحميريين وغيرهم، الموسومين بالعرب المستعربة، ونقصد باهل الجاهلية، العدنانية و بقايا الامة القحطانية.

فبهذا التقسيم نكون جارينا المؤرخين الذين يذهبون في ترتيب الامة العربية الى عاربة ومستعربة وعدنانية . ونكون ايضاً قد جعلنا البحث جامعاً لاطراف التاريخ كلها .

ولقد قدمنا التمدن الشمالي في الذكر، لانه هو اصل للتمدن الجنوبي، اذ انه يعزى للعمالقة اصحاب الحضارة الشمالية، انهم انشأوا الحضارة في جزيرة العرب الجنوبية

***

١

المرأة العربية

قبل التاريخ

لا شك ان الامة العربية جرت كغيرها من الامم على نظام الامومة وسنة العشيرة الاشتراكية قبل ان تعول على عهد الابوة والاختصاص [١] .

وقد قال بالشيوع عند العرب جملة من علماء الاجتماع . وايد ذلك شارل لوتورنو، باستنتاجات له خاصة من آداب اللغة العربية القديمة . واستنتج المؤلف المذكور من جهة اخرى ان ما استمر عند العرب حتى الاسلام من نفوذ الخال ، وما استقر ايضاً في اذهانهم من تأثير صفاته المادية والمعنوية في الوراثة على ابناء اخته؛ هما من ادلة عهد الامومة عندهم .

على انا رأينا ما يؤيد ذلك فيما ذكره الجغرافي اليوناني « استرابون » عن عرب اليمن في تمدنهم القديم . فبعد ان اورد اشتراك كل عائلة في الاموال والمتاع بين افرادها ، وان رئيسها اكبر رجالها سناً ، قال . « والزواج مشترك عندهم . يتزوج الاخوة امرأة واحدة . فمن دخل منهم عليها اولا ترك عصاه بالباب ، على ان الليل كان خاصاً باكبرهم وهو شيخهم . وقد يأتون امهاتهم ، ومن تزوج من غير عائلته عوقب بالموت

(1) C. Letourneau La condition de la femme P. 387

وكان لاحد ملوك العرب ابنة بارعة في الجمال لها خمسة عشرة اخاً كل واحد منهم يهواها حتى ملتهم . واحتالت على منعهم بعصى اصطنعتها تشبه عصيهم ، وكان لكل منهم عصا عليها علامته . فكانت اذا خرج احدهم من عندها وحمل عصاه ومضى ، تضع هي مكانها العصا التي اصطنعتها على مثالها . فيتوهم سائر الاخوة انه لم يزل عندها . وقد يجيء احدهم يتفقد الباب ، ومتى رأى العصا بجانبه يرجع فتتبدل العصا الاولى بعصا مثل عصاه وهكذا . واتفق مرة ان الاخوة كانوا جميعاً في ساحه ورأى احدهم بباب اخته عصا وليس من اخوته احد عندها ، فظن فيها السوء فشكاها الى ابيها ولما وقف على عذرها عذرها »

فاشتراك العائلة بالمتاع والنساء واسناد مشيختها الى البكر من ابنائها هما اثر وانموذج عن حياة اشتراك العشيرة القديم . كما ان تزوج الاخوات وعقاب الذين يخرجون عن العشيرة في انتخاب زوجاتهم ، هما من بقايا عادات الاوائل من الجماعات الانسانية .

وان مؤرخنا الكبير جرجي زيدان صاحب مجلة الهلال بمصر ، استغرب ما رواه استرابون فقال « هذه حكاية استرابون ولم نذكرها الا لغرابتها ولا نعلم مقدار ما فيها من الصحة (١) » وكأني به قد استغرب حكاية ابنة الملك واخوها فقط . لان ما عدا ذلك مما رواه استرابون وان كان غريباً عن تقاليدنا ، الا انه صار بمنزلة الشهرة في تاريخ كل الامم القديمة ، بل حتى ان نظام الشيوع عند الامم القديمة اصبح بمنزلة اليقين .

(١) جرجي زيدان العرب قبل الاسلام ج ١ ص ١٣٨

وان بعض العرب الذين لم يزالوا على التوحش والبداوة الفوضية ما برحوا يحافظون على بعض من هذه الاثار الاشتراكية . ولا شك بان عاداتهم هذه هي اولى بان تكون تراثاً قديماً ، من ان تكون بدعة حديثة مقتبسة ، لان روح العصور المتأخرة لم تعد تسمح برواج هذه العادات وانتقالها من امة الى اخرى . ولقد ذكر لي احد قادة العثمانيين الذي كان موظفاً في عسير باليمن ، وغيره ممن سكنوا تلك البطاح ، انه لا يزال يوجد في تلك البلاد قبيلة ترى من جملة اكرام الضيف ، تقديم احدى نسائها لتبيت معه . وقد ايد ذلك « بور كاردت » Burkardt في مذكراته عن البدو .

على أن في الانكحة المختلفة التي استمرت حتى ظهور الاسلام ، برهان ساطع على اشتراكية الحياة الاولى عند العرب . وذلك كزواج الرهط وزواج الاستبضاع ، ونكاح السفاح ، وغيرها مما سنبينه في الجزء التالي

وانا نرى ايضاً من جملة ما يفيد أسبقية تلك الحياة بين العرب ويؤيد مرورهم بدور حياة العشيرة الفوضية ، ما كان عندهم ولدى الساميين من تسمية العم اباً . والله اعلم .

***

- ٢ -

المرأة في التمدن العربي الشمالي

العمالقة او العرب البائدة

منذ نيف واربعة الاف سنة، قام العرب بنهضة عظيمة تشبه نهضتهم في صدر الاسلام . فتغلبوا على دول العالم الكبرى، اشور ومصر وغيرهما، ورقوا المدنية، واستمروا كما المسلمون بعدهم نحو خمسة اجيال اسياد الشرق الادنى. ثم لم يلبثوا ان اجلوا عن دولتي اشور ومصر، وتشتتوا في جزيرة العرب واطرافها، وانشأوا دويلات كثيرة لم تكن محرومة من المدنية .

ولما كان بين عهدهم الاول والثاني بون في التاريخ، واختلاف في الحضارة، وربما كان ايضاً في الانساب، عولنا على ان نقسم بحثنا الى قسمين جاعلين الميلاد المسيحي حداً بينهما وفاصلاً .

المرأة في التمدن العربي الشمالي ق . م .

أول من عُرف من العرب بالحضارة هم العمالقة، كانوا بدوا خيموا حول اشور من بادية العراق والشام، وقرب مصر شرقي وادي النيل، وما لبثوا ان تغلبوا على هاتين الدولتين العظيمتين في وقت متقارب، فعمالقة العراق انشأوا في بابل دولة حمورابي [- ٢٤٦٠ - ٢٠٨١ ق م]، وعمالقة وادي النيل انشأوا في مصر دولة الشاسو (٢٢٤٤ - ١٧٠٣ ق م)، فكان لكل منهما شأن عظيم .

ولما تلاشى هاتان الدولتان، تشتت العمالقة فانشأوا دولا في اليمن ذات مدنية كبرى سنأتي على ذكرها في البحث عن عرب الجنوب. كما اقاموا دولاً فيما بين مصر وسورية والعراق من اهمها دولة الانباط في مشارف الشام ٤٠٠ — ١٠٦ ق م.

وهكذا كان للعمالقة ثلاث مدنيات كبرى: (١) العراقية (٢) المصرية (٣) النبطيه؛ فللاحاطة اجمالاً بشأن المرأة بالحضارة العربية الشمالية نتكلم عنها في كل من هذه المدنيات الثلاث



المرأة لدى الحموراييين. (٢٦٠٠ — ٢٠٨١ ق م.) — من يتبصر في احكام شريعة حمورابي وبما فيها من التوازن النسبي بالحقوق والواجبات بين الجنسين، يقدر عدالة تلك الشريعة؛ وسمو حضارة اهلها، بل قد يستغرب كيف توصل العالم منذ اربعة آلاف سنة ونيف الى وضع احكام اتخذ التمدن الحديث قواعد منها اسساً لشريعته، حتى تقرر تقريباً نهائياً بان حمورابي العربي اول المشترعين من النوع البشري.

لا ننكر ان هذه الامة لم تطلق المساواة بين الجنسين، بل اعترفت بسيادة الرجل على المرأة، كما ميزت بين طبقات الناس؛ ولكنّ ما امتازت به عن سائر الامم القديمة ما عدا المصرية؛ هي في تقييدها الرجل واطلاقها المرأة اكثر من سواها:

جوزت تعدد الزوجات والطلاق والقت زمام النساء الى الرجل ولكنها حددت سلطته، وسمحت للرجل بالتسري ولكن اذا لم يولد له من امرأته اولاد. فالسماح اذاً لاجل النسل لا لمجرد التمتع باللذات الحيوانية؛ وبناء على هذا فان اتت المرأة الى زوجها بجارية تلد اولادا

فلا يجوز له حينئذ ان يقتني غيرها؛ ولا يحق لمثل هذه الجارية الطموح الى مقام الزوجة وحقوقها؛ واذا فعلت فلمولاتها ان تكبلها بالحديد وتعيدها الى منزلة الاماء.

وسمحت ايضاً شريعة حمورابي بزواج امرأة ثانية. ولكن متى؟ اذا كان غير صبور، وامرأته مريضة. واما الطلاق فله شروط عندهم. فالمرأة المريضة لا يستطيع تطليقها بل اذا تزوج سواها تبقى في بيته يعولها باقي حياتها، واذا طلق احدهم زوجته فان لم يكن له اولاد منها دفع اليها المهر. وان كان لهما اولاد دفع اليها مهرها واولادها فتتولى تربيتهم، وعليه نفقتهم، واذا شب اولادها استولت على سهم مثل اسهمهم من الارث.

كما ان المرأة اذا ابغضت زوجها لا تعجز عن طلاقه بالحق فانها تقول له (لست لك) ويتقاضيان الى الكاهن او القاضي، فاذا كان زوجها مخطأ انصفها فاخذ لها مهرها، ورجعت الى بيت ابيها، واما اذا كانت دعواها افتراء، تطرح في الماء. هذا وان المحافظة على الحقوق الزوجية عندهم شرط واجب، وعقاب الزنا القتل ذبحاً او غرقاً، الا اذا التجأت المرأة الى رجل آخر وزوجها غائب في اسر، وليس عندها ما تقتات به، فان شريعتهم تجيز لها المعيشة في بيت ذلك الرجل عيشة الزوجين، حتى اذا عاد زوجها من اسره عادت اليه واذا كانت قد ولدت اولادا من ذاك تركتهم له، واما اذا كان غياب الزوج فرارا من الحرب او نحوه فلا ترجع اليه؛ ترغيباً لهم في الشجاعة

فترى بذلك كيف ان شريعة حمورابي مع تسويدها الرجل، حددت سلطته العائلية. وهي في الحقوق العمومية اعدل ايضا: فالمرأة عندهم مساوية للرجل، تتعاطى كثيرا من، اعماله التجارية، والزراعية

فضلا عن اشغالها المنزلية ، ولها حق في الانتظام بسلك الكهانة ؛ وكل من الزوجين مسئول عن الآخر في الحقوق المدنية . فاذا كان على احدهما دين ، فالاخر مطالب به . حتى اذا تأخر الرجل عن وفاء دين عليه قد يقبض الدائن على امرأته حتى تفيه . وكذلك اذا كانت المرأة مديونة وعجزت عن الدفع ، فالدائن يقبض على زوجها ، ولو كان الدين قبل الزواج ، الا اذا تعاهد الزوجان على ان لا يسأل احدهما عما على صاحبه من الدين قبل الاقتران

اما الارث فما كان البابليون يميزون في حقه بين الذكر والانثى ؛ ولكن للوالد ان يمنع بعض اولاده من الارث ، على انهم كانوا يختلفون عن سائر الامم في مسألة المهر وحق العروس . ولما كانوا قد جمعوا بين ما في العصور الاخيرة من عادتي المهر الشرقي ، (والدوطة) الغربية ، فكان الرجل يقدم حق العروس وهي تحمل بائنة في وقت واحد ، فلذلك كان اذا ولد للرجل اولاد فاول ما يفعله هو انه يفرض للذكور حق العروس وللاناث البائنة ، فمن تزوج في حياة والده اخذ حقه ، ومن بقي بعده بدون زواج فله ان يأخذ ايضاً فضلاً عن الارث اسوة باخوته ما عينه الوالدان من كافة النفقة للزواج . على ان بائنة الزوجة تبقى ملكاً لها وحدها . هذا واذا تزوج رجل وولدت له زوجته اولادا ، توفيت فما لها لاولادها ، واما اذا توفيت عن غير اولاد فالبائنة ترجع الى ابيها (١)

واذا اضفنا المنزلة الحسنة التي خصصتها شريعة حمورابي في بابل للجنس اللطيف ، الى المقام الرفيع الذي جعلته الحضارة المصرية المعاصرة لشريعة حمورابي نرى ان المرأة في العالم القديم كانت على مساواة وحقوق

(١) جرجي زيدان العرب قبل الاسلام ج ١ ص ٤٥ — ٤٧

ومقام اجتماعي تطمح اليه نساء العالم في التمدن الحديث. وحري بالعرب ان يفتخروا لانهم من جملة الامم التي قدرت المرأة قدرها في الاعصر الخالية.

المرأة لدى الشاسو : ان الدولة العربية التي حكمت مصر خمسة (٢٢٤٠ - ١٧٠٣ ق م) قرون ونيفاً، لم تكن ذات تأثير على الحضارة المصرية، مثلما كان لدولة حموراني بمعاصرتها في العراق. فدولة مصر كانت دولة احتلال عسكري؛ ولكنها اقتبست عوائد اهل البلاد[1] فاخذت ولم تعط، حتى انها لما انجلت عن مصر، كادت ان لا تترك فيها اثرا يذكر؛ فلذلك كان نصيب المرأة العربية في هذه الدولة نصيب الجنس اللطيف بمصر من حسن المنزلة والمساواة في كثير من الامور؛ واذ كنا اسلفنا الكلام عن المرأة المصرية، نكتفي بما تقدم في هذا الموضوع.

المرأة لدى الانباط : الانباط فرقة من عمالقة العراق وبدو الاراميين (٤٠٠-١٠٦ ق م) الذين هجروا ضفاف الفرات، بعد ذهاب دولة حموراني من العراق، وتفرقوا قبائل وبطوناً في جزيرة العرب؛ ولعلهم المراد بقول العرب [إرمانيين] اذ هم يريدون بالارمانيين القبائل المتسلسلة من أرم[2]. وكانت مدينة [بطرا] في مشارف الشام، قاعدتهم ثم اتسع ملكهم حتى شمل جزيرة سينا من الغرب، وحوران الى حدود العراق، من الشرق؛ والى وادى القرى في الجنوب[3].

وكان النبطيون قوماً تجاراً ينقلون البضائع من الشرق الى الغرب؛

---

(١) M. A. Riquier. Histoire Ancienne 'Orient' T, 43

(٢) جرجي زيدان العرب قبل الاسلام ج ١ ص ٧٩

(٣) « « ج ١ ص ٧٥

من خليج العجم فبادية الشام الى مصر ، ولكنهم اقرب الى البداوة منها الى الحضارة ؛ واحسن من وصف آداب النبطيين واخلاقهم « ديودوروس » الصقلي في القرن الاول قبل الميلاد . ولما كانت مسئلة المرأة مهملة عندهم ، كغيرهم من الامم القديمة ، فلذلك فان كل ما نكتبه عنهم بهذا الموضوع ، هو استنتاجات لنا من حوادث جاءت عرضاً خلال تاريخهم السياسي :

اجتاز الانباط اسوة بسواهم عهد الامومة ، وان تاريخهم يشير الى احتفاظهم بآثاره :

فقد نقل المرحوم جرجي زيدان ، ان المنقبين عثروا في مدينة الحجر « مدائن صالح » على نقش بالنبطي مرسوم على قبر تاريخه قبيل الميلاد ، وهذه ترجمته « هذا القبر الذي بنته « كمكم بنت وائلة » بنت « حرم » ، وكليبة » ابنتها ، لنفسها وذريتهما ، في شهر (طيبة) من السنة التاسعة للحارث ملك النبطيين محب شعبه الخ[1] »

فترى كيف كان الانتساب الى الامهات والتسلسل منهن لبث مستقراً فيهم . فكمكم المرأة ، انتسبت الى امها وائلة بنت حرم ، وفضلاً عن ذلك فانها وابنتها انشأتا ذلك القبر لذريتهما ، مما يشير الى ان الذرية كانت تنسب دائماً الى المرأة وليس الى زوجها . واذا اضفنا ذلك الى ما هو معروف من ضن الانباط بالحرية والاستقلال ، شأن القبائل البدوية ، تبين لنا ان المرأة عند النبطيين كانت ذات منزلة حسنة ، في العائلة والهيئة الاجتماعية ، لما في كل من عهد الامومة وطلاقة البداوة من حرية المرأة الطبعية . على انه يؤيد ذلك أمران : احدهما سلبي والاخر ايجابي : الاول ما رأيناه فيما سبق من التاريخ ان الامم التي كانت تحتقر المرأة

(١) جرجي زيدان العرب قبل الاسلام ج ١ ص ٦٥

لم تعتد نقش اسمها على اللحود ؛ والثاني ارتقاء الجنس اللطيف على العرش الملكي ، وضرب النقود باسمائهن . فلقد رأينا في جدول ملوكهم اسماء بعض النساء : وهن الملكة [خلدو] والملكة [شقيلة] امرأتا الحارث الرابع ، والملكة [جميلة] امرأة [ريبال] الثاني.

ويظهر ان نفوذ النساء تعاظم في هذه الدولة ، يدل على ذلك ما في كتاب العرب قبل الاسلام .

على ان الباحثين لم يقفوا بعد على اخبار تستحق الذكر عن ملوك الانباط بعد الحارث الرابع ، لان الدولة اخذت بعده بالضعف ، وتداخل النساء في شئونها حتى ضربن النقود بأسمائهن مع اسماء الرجال كما اشتركن معهم في السيادة .

هذا وان كان في كل ذلك ترجيح على ان المرأة العربية في عهد الانباط كانت ذات منزلة حسنة ؛ ولكن يخال لنا انها لم تبلغ مثل ما كانت عليه في عهد الحمورابيين ، او العرب المتغلبين على مصر : لان بينهما زمناً كانت فيه منزلة المرأة آخذة بالانحطاط .

المرأة في التمدن العربي الشمالي ب . م .

في عهد ظهور المسيح ، كان شأن العرب في شمالي الجزيرة من فارس حتى البحر المتوسط ، قد ضعف بالنسبة لدولهم الكبرى السابقة في العراق ، ومصر ، واليمن والحجاز ؛ فدولة الانباط كانت قد بلغت عهد الانحطاط ، ثم لم تلبث بعد قرن ان تلقفتها الامبراطورية الرومانية . ودويلة تدمر كانت ايضاً مهددة بمخالب النسر الروماني ؛ واما بقية القبائل العربية الشمالية فكانت بدوية لا اهمية لها .

غير ان تدمر على ضعفها وكانت اهم العرب البائدة منذ المسيح. فانها بعد اضمحلال مدينة «بطرا» التجارية، وضياع استقلال الانباط، اصحابها، خلفتهم في المقامين التجاري، والسياسي.

ولكن لما كان على مدينة تدمر صبغة من التمدن الروماني، وكذلك مسحة من البداوة، فانا وان لم نعثر على بحث خاص عن المراة في هذه الدولة، غير انه مع ذلك، بوسعنا ان نحكم ان التدميرية لم تكن على حال سيئة، وذلك لما لتأثير البداوة في عادات تدمر الفتية؛ ولان الرومان الذين صار لهم السيادة عليها، كانوا أخذوا بتعزيز مكانة المراة حينئذٍ، وتخفيف الاستئثار بها.

على ان [تدمر] برزت للعالم من الجنس اللطيف انموذجاً من اهم انموذجات الدهاء، والنشاط، والتدبير والاقدام، وهي [زينوبيا].

فلمّا مات اذينة وابنه الاكبر هيروديس، سنة ٢٦٧، خلفه ابنه [وهب للات] فكانت امه [زينوبيا] وصية عليه، وبيدها زمام الامور؛ فطمحت الى الاستقلال التام عن سيادة رومة. فلقبت ابنها بأغسطس من القاب القياصرة؛ وأزالت اسم [أورليان] قيصر الرومان عن النقود، وتولت قيادة الجند، وسارت للفتح. فنشرت اعلامها وسلطانها على مصر، والشام، والعراق، وآسيا الصغرى، الى انقرة. واذ اوشكت بثينيا ان تدخل تحت لوائها؛ فاذا بجيوش الرومان قد داهمتها في انطاكية، وحمص، فتغلبت عليها. وبالنهاية حاصرتها في تدمر، والقى القبض عليها، ثم اطلق سراحها بعد ان قص جناحاها، فعاشت عيشة اهل السكينة ودخلت تدمر في حوزة الرومان [1]

(١) جرجي زيدان العرب قبل الاسلام ج ١ ص ٨٥ــ٨٩



الملكة زينوبيا

(كادت تكون تدمر في حكم زينوبيا قاعدة الشرق)

فاذا لم يكن لنساء تدمر فخر غير زينوبيا هذه لكفى؛ لان المؤرخين بالغوا في وصفها بما لا يسع المقام ذكره . فهي اذاً من جملة مفاخر العرب .
وفي التاريخ العربي امرأة اخرى بالحيرة كزينوبيا في الدهاء معروفة [بالزبَّاء] رووا لها حادثاً غريباً خلاصته: ان الملك جذيمة الأبرش كان له اخت اسمها [رقاش] هويت شخصاً من اياد، كان جذيمة قد اصطنعه، يقال له (عَدِيّ) . فواطأها على حيلة دبراها على جذيمة حتى اذن بزواجها وهو سكران، فلما صحا هرب [عَدِيّ] فلحق به [جذيمة] حتى قتله، وحملت [رقاش] منه وولدت غلاماً ربته، والبسته، طوقاً وسمته عمراً . ثم فُقد الغلام فوجده رجلان أتيا به الى جذيمة . ففرح به وقال لهما: اقترحا ما تشاآن : قالا : منادمتك ما بقيت وبقينا : وهما اللذان يضرب بهما المثل فيقال « كندماني جذيمة »

وكان قد ملك الجزيرة، واعالي الفرات، ومشارق الشام، رجل من من العمالقة يقال له : عمرو بن الظرب، وجرت بينه وبين جذيمة حروب انتصر فيها جذيمة وقتل عمرا المذكور، وكان لعمرو بنت يقال لها الزباء، واسمها (نائلة) فملكت بعده وبنت على الفرات، مدينتين، متقابلتين، واحتالت على جذيمة، حتى اطمعته من نفسها واغتر، فقدم اليها، فقتلته ثاراً لابيها . وملك بعد جذيمة عمرو ابن اخت رقاش، فاحتال بمساعدة عبد خاله اسمه (قصير) حتى انتقم منها غدرا في مدينتها بان حمل الى حصنها رجالاً في صناديق التجارة، ثم خرجوا منها وقتلوا الزباء واخذوا تلك المدينة الواقعة بين الخانوقة وقرقيسيا على الفرات [1] .

(١) تاريخ ياقوت الحموي ج ٤ ص ٥٦٠

هذا وبالنظر لتقارب تاريخ سيرتي الزباء وزينوبيـا اعتقد بعضهم بانهما شخص واحد .

....

فبالرغم عن قلة المصادر، يخال لنا ان المرأة العربية ، في شمالي جزيرة العرب ، عند الطبقة البائدة ، كانت ذات مكانة حسنة ، لا سيما في المدنيات الاولى ؛ ويؤيد ذلك لنا ما عثرنا عليه من حالتها في تلك العصور ، لدى بعض القبائل البدوية التي ليس لها شهرة تاريخية قبل المسيح وبعده . فلقد ذكر (رولنسن Rawlinson) في سيرة (تغلت بلاسر) الثاني ملك اشور : انه غزا في القرن التاسع قبل الميلاد ، قبيلة من العرب على حدود مصر ، عليها ملكة اسمها (حبيبة) . وذكر (شارب Sharpe) انه في اواسط القرن الرابع للميلاد مات ملك العرب النازلين في جزيرة سينا وما ورائهـا ، فخلفته امرأته (ماوية) فحلت نفسهـا من قيود المعاهدة التي كانت بينهم وبين الدولة الرومانية ، وحملت برجالها على فلسطين وسوريا ، واستولت على مدينة بطرا . ويممت مصر حتى اتت برزخ السويس . فاضطر الامبراطور (فالانس) الى تجديد المعاهدة بشروط اوفق لها ، وقد قال جرجي زيدان عن هذه القبيلة Saracene انها كثيراً ما كانت تولى النساء حكومتها .

فبلوغ النساء إمارات قومهن ، يشير على الاقل الى ان المرأة عندهم كانت مكرمة غير مضطهدة ، ولعل الاكتشافات الاثرية في المستقبل ، وبذل عناية اوفر ، في البحث عن موضوع المرأة يكشفان لنا عما بقي وراء استار الخفاء .

***

- ٣ -

المرأة في التمدن العربي الجنوبي

= بقايا العمالقة من العرب البائدة . والقحطانية من العرب المتعربة =

من عهد سحيق لا تعرف بدايته ، انشأ العرب ، في اليمن حضارة عظيمة ضاهت مدنية اشور ، ومصر ، وفينيقية ؛ حضارة دامت آلافاً من السنين ، وهي مضطردة الزهاء ، والازدهار ، حتى انتصب مئات من الاسوار ، ومثلها من عظيم القصور ، في ذلك المصر الذي نراه الان قاحلا وليس به غير الرمال ، كثباً فوق كثب ، تظهر للناظر كأنها مشتعلة باللهب .

توالت على تلك البلاد ، امم عديدة عربية ، لم يحصرها التاريخ لبعد عهدها ثم لصعوبة المسالك ، وخطورتها على الاثريين ، في العصر الحاضر . ولكن جل ما عرف الباحثون من بين اشهر خلائق امم اليمن ثلاثاً : المعينيين . والسبأيين . والحميريين ؛ ورجح بعضهم ان المعينيين من نسل العمالقة . والسبايين والحميريين من قحطان .

فالتاريخ الذي لم يفتأ ناقصاً من حيث اخبار هذه الامم ، لا غرابة فيه ، اذا أهمل العناية بامر نسائها ؛ ولكن لما كنا قد خضنا عباب هذا البحر ، اصبح من الواجب ، التقاط ما نستطيع التقاطه من درره ، نصوغها عقدا ولو صغيرا ، على امل ان يتولى اكماله من تتوفر لديه بعدنا المواد ، تبعاً لترقي التاريخ العام ، وتيسر اسباب التنقيب الاثري في اليمن .

وانا سنفرد في كلامنا عن المرأة لكل امة ممن ذكرنا فصلا خاصاً ، مبتدئين بدولة (معين) لانها بمقام الاصل .

المرأة عند المعينيين

لمَّا انقرضت دولة العرب في العراق، نزح المعينيون، في جملة القبائل التي نزحت، وقدتعودوا الحضارة فلم يعد، يطيب لهم التجول في البادية، فالتمسوا لهم مقراً يقيمون فيه، فنزلوا اليمن وتوطنوا الجوف. واذا صح تحضر المعينيين قبل نزولهم اليمن، فيترجح لدينا أنهم لم يكونوا اول من عمل على عمران تلك البلاد، لانه ليس من المعقول ان تأتي أمة حضرية للسكنى بين الرمال القاحلة الجرداء

فاليمن ذات السدود والري، كانت اذاً على حضارة قبل ان احتلها المعينيون. ولكن نقص التاريخ يؤخرنا عن معرفة ما في تلك الحضارة، وما كانت عليه المرأة فيها؛ كما انه جعل موضوعنا، عن المرأة المعينية هزيلاً لانه قائم علي الاستنتاج الخاص

نشأ المعينيون على التمدن البابلي، فلما نزلوا اليمن نقلوا معهم تقاليد بابل وحضارتها. فأقاموا دولتهم وانظمة بلادهم، على مثل ما عرفوه في موطنهم الاول.

وقد ثبت لدى الباحثين حسبما رواه زيدان؛ ان آلهة اليمن اقرب الى معبودات البابليين، منها الى معبودات سائر العرب، فعند اليمنيين مثل بابل (عشتار وأيل وبعل)؛ وأما الاخرون فيشتركون في عبادات تختلف عن تلك: كاللات والعزى ومناة وهبل وغيرها؛ وكذلك فان اسماء اليمنيين في الدولة المعينية، كما في الدولة السبأية، تشبه أسماء الدولة الحمورابية، او البابلية كقولهم: أب يدع. واليفع، واليسع: وهلم جرا[1]

(١) جرجي زيدان العرب قبل الاسلام ج ١ ١٦٦

ولا يخفى ما في تشابه الدين من الدلالة على تشابه الأخلاق والعادات. وما في تماثل الاسماء من الاشارة الى التقارب في الحضارة. فبناء على قيام التمدن المعيني، على اساس الحضارة البابلية، كان بالطبع نصيب المرأة عندهم في العائلة والهيئة الاجتماعية، نصيب امها في بابل؛ وقد اوردنا في هذا الجزء ما كانت عليه المرأة في شريعة حمورابي البابلية، من حسن المنزلة، وما كان عليه الرجل من التقيد إزاء السلطة التي خُوّلت له

وقد ذكرنا ان (استرابون) روى أن أهل اليمن كانوا على اشتراكية فوضية؛ في الاموال والامتعة والنساء، ولا ندرى هل أراد بذلك، هذا الجغرافي اليوناني، الذي عاش قبيل الميلاد؛ قوماً باليمن معاصرين له. أو روى عن عادات قديمة في مدنية يمنية سابقة.

فان كان يقصد قوماً معاصرين له، فنرجح ان تلك الاشتراكية كانت عند هؤلاء القوم، دون سواهم من بقية القبائل اليمانية؛ كما يوجد الان بعض عادات غريبة، عند بعض القبائل هناك، دون بعض، أذ ان بني حمير الذين كانوا معاصرين له لم ينقل لنا عنهم شيء من ذلك. واما ان تعمد قوما كانوا من قبله، فلا يبعد أن يكونوا المعينيين الاقدمين. لدنوّ زمنهم من عهد الامومة.

المرأة عند السبأيين

٩٠٠ — ١١٥ ق م.

خلف السبأيون المعينيين على ملك اليمن، من عهد سحيق لم يحدد؛ ولكن المؤكد ان ذلك كان في القرن العاشر قبل الميلاد أو فيما سلفه:

لان سليمان ابن داود صاحب القصة المعروفة في ، التوراة والقرآن ، مع بلقيس ملكة سبأ ، مات في القرن العاشر .

ومهما كان من بداية عهد هذه الدولة ، فمن المؤكد انها كما أقامت إدارتها على انقاض المعينيين ، فقد أنشأت حضارتها ، على أسس مدنيتهم . وجرت مجراهم في الدين ، والاسماء ؛ كما جروا هم مجرى البابليين .

والذي يستفاد عن دينهم من القرآن الحكيم ، انهم كانوا يعبدون الشمس . فقد اورد عن بلقيس ملكة سبأ « وجدتها وقومها يسجدون للشمس من دون الله ، وزين لهم الشيطان اعمالهم ، فصدهم عن السبيل ، فهم لا يهتدون ، ألا يسجدوا لله الذي يخرج الخبأ في السموات ، والأرض ، ويعلم ما يخفون ، وما يعلنون »

هذا واذا ثبت تأسيس السبأيين حضارتهم على قواعد التمدن المعيني ، فتكون منزلة المرأة لديهم حسنة ، اسوة بالمعينيين . على انه فضلا عن هذا القياس فان لنا سبيلا آخر الى الاستنارة عن حقيقة حالة المرأة عندهم : فان قصة بلقيس ملكة سبأ في التوراة والقران تشير صراحة الى حسن منزلتها في تلك الدولة . فقد جاء عنها في القرآن انها جمعت قومها عقب ورود كتاب سليمان بن داود اليها ، وقالت « يا أيها الملأ إني القي الي كتاب كريم : انه من سليمان ، وانه بسم الله الرحمن الرحيم ، ألا تعلوا علي ، وأتوني مسلمين ؛ قالت يا ايها الملأ افتوني في امري ، ما كنت قاطعة امراً حتى تشهدون ؛ قالوا نحن اولو قوة وأولو بأس شديد ، والامر اليك فانظري ماذا تأمرين . قالت ان الملوك اذا دخلوا قرية افسدوها وجعلوا اعزة اهلها اذلة ، و كذلك يفعلون ، واني مرسلة اليهم بهدية فناظرة ثم يرجع المرسلون »

ثم انها رأت ان لا بد من الذهاب الى سليمان قامت اورشليم وكان ذلك على حسب رواية ابي الفداء في السنة الخامسة والعشرين [١]. وحسب رواية التوراة كان قصدها سليمان، رغبة خالصة منها لسماع حكمته التي اشتهرت، واليك ما جاء فيها بهذا الشان «وسمعت ملكة سبا بخبر سليمان، فأتت لتمتحن سليمان بمسائل الى اورشليم، بموكب عظيم جداً، وجمال حاملة أطياباً، وذهباً بكثرة، وحجارة كريمة. فاتت الى سليمان وكلمته عن كل ما في قلبها فاخبر سليمان بكل كلامها. ولم يخف عن سليمان أمر الاَّ وأخبرها به الخ.» [١]

فهذه الحكاية تدل على ان المرأة وان لم تكن مستقلة عند السبأيين بل تابعة للرجل، فكان لها مع ذلك درجة غير منحطة في الهيئة الاجتماعية، وغير مبخوسة الحق: فان تمليكهم بلقيس عليهم فيه اشارة الى الاعتدال، كما ان قصد بلقيس سليمان لامتحانه، واختبار حكمته، يشير فضلاً عن اقتدار هذه الملكة، وسمو مداركها، الى اطلاق المرأة عندهم نوعاً.

ولما كان الناس على دين ملوكهم، فقد تكون بنات مملكتها مثلها رغبة في المعارف وحسن المنزلة.

المرأة عند الحميريين

١١٥ ق م - ٥٢٥ م.

بنو حمير اصحاب (ريدان)، فرع من السبأيين، تغلبوا عليهم نحو سنة ١١٥ ق. م، وجعلوا (ظفار) قاعدة دولتهم.

(١) ابو الفدا المختصر في اخبار البشر ج ١ ص ٢٥

(٢) التوراة اخبار الايام الثاني ٨ و ٩ اصحاح ٩

غير انهم وان قاموا على انقاض دولتي سبأ ومعين ، فلم يكونوا مثلهما مصروفين للاتجار فحسب ، بل كانوا من الدول الفاتحة ، وقد نبغ منهم قواد دوخوا الممالك ، وطالما حاربوا الفرس والاحباش وغيرهم .

ولما كان التاريخ يرينا ان الامم الحربية ، والافراد التي قدست القوة ، كانت اقسى من سواها في معاشرة المرأة ، فلذلك يتراءى لنا ان الحميريين المشغوفين في الفتح ، كانوا اشد من سبأ ومعين ، في معاملتها؛ ولا جرم فهم ابعد منهما من عهد الامومة .

ولكن مع ذلك فليس لدينا مايؤيد افراطهم في القساوة بمعاملتها ، بل انا عثرنا على ما يشير الى احتفاظهم في شيء من حقوق المرأة ، وذلك في اعترافهم لها بحق الامارة والعرش .

فقد عد (شارب) في جملة ملوك الطبقة الثانية في حمير ، امرأة اسمها بلقيس زوجة عمرو وتعرف بالفارعة ، واورد انها حكمت عقب زوجها ، من سنة ٣٣٠ الى سنة ٣٤٥ م .

ويظهر لنا انها كانت على جانب من العظمة والثروة ، لما روى المتتبع في وصف عرشها حيث قال :

عرشها رافع ثمانون باعاً كُلِّلته بجوهرٍ وفريدِ
وبدرٍ قد قيّدته وياقو ت بالتبر ايمّا تقييدِ

على انه وان ذهب بعضهم الى ان هذا الشعر هو في وصف عرش بلقيس سليمان ؛ ولكننا نرجح انه في وصف عرش بلقيس عمرو ، لقرب عهد القائل منها واتصاله بنسبها .

ويخيل لنا ان العادة في امارة وتمليك النساء قديمة عند العرب ، فعدا

بلقيس الاولى ، والثانية ، فقد ذكر في تاريخ (نرجون) الثاني ملك اشور ان في جملة من وضع عليهم الجزية في اوائل القرن الثامن (ق م) ملكة العرب المسماة شمسية .

هذا ولما كانت دولة حمير استمرت الى ان اجتاحها الاحباش في ايام ملكها الاخير (ذي نواس) في اوائل القرن السادس للميلاد ، فان تاريخها يدخل ضمن البحث عن الجاهلية ، في الفصل التالى ، ولذلك نرى فيما فصلناه هناك تعديلاً ، لما عولنا عليه هنا من الايجاز .

***

- ٤ -

المرأة العربية في فترة الجاهلية

الدنيا دار دول ، فاذا منحت العز والمجد ؛ او قضت في الذل والانحطاط لازم كل من منحتها وقضاها، الاسباب المؤدية الى ضدها ؛ فمع العز اسباب الذل ، ومع الانحطاط عوامل الارتقاء، حتى كأن شعارها ، دوام الحال من المحال وهذا غاية في العدالة

فالامة العربية بعد ان قضت عزا أيام العرب البائدة : من عمالقة العراق ومصر ، وعاد ، وثمود ، وغيرهما في اليمن ؛ وكذلك في مدة العرب العاربة: من قحطان باليمن ، وفي عهد العرب المستعربة في الحجاز، المتحدرة من اسماعيل ، اخذت من بعد بالتلاشي والانحطاط ، حتى عادت الى ما بدأت به من البداوة والجهل .

ولقد اتينا في الفصلين السابقين ، على زبدة من تطور العرب البائدة، ثم العاربة في التاريخ ، وحال المرأة عندهما ، وكان يحسن بنا ايضا ، ان نلم باخبار الطبقة الثالثة الاسماعيلية، قبل الجاهلية ، ولكن هذا الفصل الذي يكاد يكون مختصاً ببني اسماعيل، يعوض ما فات . على انا اذا لم نخصص لهم باباً بين العرب قبل الجاهلية، فذلك لانهم كانوا في كل ادوارهم كانهم في فترة الجاهلية. فلم يذكر لهم دول ولا حضارة قبل الاسلام

وبعد فلما كان اسمعيل بن ابراهيم الذى هو مصدر نسب العرب العدنانية ، عائشاً في القرن التاسع عشر قبل الميلاد ، فلذلك كان تاريخ

هذا الفرع يرجع الى اقدم اخبار جزيرة العرب ؛ وكانت كتب اليهودية من اكثر ما يعوَّل عليه في تسقط اخبارهم ، ولا سيما التوراة التى اتت على ذكرهم مرات ، اخرها ، حيث اوردت نكبتهم بواسطة (نبوخذنصر) ملك بابل في القرن السادس قبل الميلاد.

اما خلاصة ما يستنتج من تلك الروايات انهم ، كانوا اهل بادية ، ولكنهم اصحاب ثروة ؛ ولهم عناية بنقل التجارة. وبقيت سدانة البيت الحرام ، ومفاتيحه ، معهم حتى تغلب عليهم بنو جرهم [1].

وكأن (نبوخذنصر) اضعفهم ، فتفرقوا ، وضعف شأنهم حيناً حتى سكت عن ذكرهم المؤرخون في اوائل النصرانية . ثم ظهرت في التاريخ قبائلهم ، راجعة الى عدنان في النسب .

ولكن العدنانيين لم يعوضوا قبل الاسلام ، ما اضاعه العرب من الرقي والحضارة بعد عرب الشمال ، وعرب الجنوب ؛ بل لما تلاشت مدنية اليمن ، بعد مدنية بابل الحمورابية ، امسى العرب في الاقطار كافة ، على جهل عام ، في الدين والعلم ، الا ما ندر ، عائشين عيشة بدوية طبيعية

تلك هي فترة الجاهلية التي نريد البحث عنها على ما في بلوغ حقائقها من الصعاب . هذا ولما كانت اخلاق العرب في الجاهلية وتقاليدهم متشابهة فانا لا نحاول تقسيم الكلام عنهم بحسب الاصول ، والبطون ، وانما نعمد الى تفصيل حال المراة عندهم علي وجه عام ، على الصورة الاتية :

١— اخلاق المرأة في الجاهلية
٢— مدارك المرأة في الجاهلية
٣— منزلة المرأة في الجاهلية

(١) ابو الفدا المختصر في اخبار البشر ج ١ ص ٤

معتمدين في ذلك على استنتاجات خاصة، ومقتطفات نتناولها من اوثق المصادر التاريخية والادبية. فنشرح حالة المراة في الجاهلية على قدر الطاقة، سداً لما في التاريخ العربي بموضوع المراة من الفراغ.

اخلاق المرأة في الجاهلية

المرأة نصف الهيئة الاجتماعية، فالمؤثرات الحيوية التي تكيف اخلاق الرجل، بمساعدة الزمان والمكان، هي كذلك تطور اخلاقها معاً وعلى السواء، وكما ان المرأة تفعل في تحوير مناقب الرجل بالتربية خاصة، فالرجل يؤثر مثل ذلك، في تطوير صفاتها بتسلطه على ارادتها.

ولذلك كانت المرأة في الجاهلية بفعل البيئة التي كيّفت الرجل، وبتاثير الرجل ذاته، الذي يقودها الى ما يناسبه، ويلائم ذوقه، تشابهه في اخلاقه وصفاته. وان كانت دونه في بعض الاخلاق الفاضلة، عن تاثير استعباده اياها. فهما اذاً كانا يتشابهان في الاخلاق العنصرية العامة، ويتخالفان في الصفات التي يقال عنها جنسية.

فنبدء بما كان بينهما من التشابه، ثم نختم البحث فيما كان بينهما من التخالف.

. . . . . .

معلومٌ ما كانت عليه صفات اولئك الاعراب القومية الفطرية: من الكرم والشجاعة والوفاء والصدق والعفة والحرية، فاذا نقبنا في اخلاق المرأة بالجاهلية، نجد فيها امثلة عديدة من تلك الفضائل، التي هي اكثر ملازمةً للأمم البدوية.

الكرم : فحاتم الطائي * الذي يروى عن سخائه وقائع اشبه بخرافة موضوعة، والذي يقول :

«اذا كان بعض المال رباً لأهله فاني بحمد الله مالي معبّد ؛»

فهو لم يكن شاذاً عن عائلته بالكرم ؛ بل ورثه عن والدته ، ونقله الى ابنته

فوالدة حاتم، كانت من اسخى الناس، حتى اضطر اخوتها ان يحجروا على اموالها، خوفاً من تبذيرها . وكذلك كانت ابنته « سفانة » مثلها : فتهب القطعة بعد القطعة من الابل التي كان ابوها يعطيها اياها ؛ (١) حتى ضجر على ما فيه من كرم . فقال لها يوماً « يابنية ! الكريمان اذا اجتمعا في المال أتلفاه ؛ فاما ان اعطي وتمسكي ؛ واما ان امسك وتعطي . فانه لا يبقى على هذا شيء » فقالت له « منك تعلمت مكارم الاخلاق (٢) »

وقد افصحت « سفانة » في مقالها ، لان العدوى تكون في الأخلاق ؛ كما تكون في الادواء ؛ ولذلك فان لكل عائلة تشابهاً بين افرادها في مناقبها كما تشير الى ذلك حبيبة بنت عبد العزى بقولها :

وصّى بها جدي وعلمني ابي نفض الوعاء وكل زاد ينفد ،

بل حتى الزوجة ، التي تكون تربية دار اخرى ؛ فانها لا تلبث ان تتقارب بينها وبين رجلها بتأثير عاطفة الارضاء : مثلا ان « بثينة » ابنة مرداس بن قحفان العنبري التي كان يضرب بجودها المثل في الجاهلية .،

---

* توفى حاتم سنة ٦٠٥ م

(١) جرجي زيدان اداب اللغة العربية ج١ ص ١٣٠

(٢) زينب فواز الدر المنثور ص ٢٤٤

فلو لم يكن زوجها ممتازاً ايضاً بكرمه، لصارت تلك العاطفة الى الخمود، ولكنهما تساويا فطرة بالكرم، او جذب احدهما الاخر الى مستواه، ففاز كلاهما في الشهرة .

قيل انه اتاه اخو امرأته يوماً، فاعطاه بعيراً من ابله، وقال لامرأته «هاتي حبلاً يقرن به ما اعطيناه الى بعيره» ثم اعطاه بعيرا آخر «وقال: «هاتي حبلا»، ثم اعطاه ثالثاً، وقال: «هاتي حبلاً» فقالت: «ما بقى عندي ولا حبل» فقال «عليّ الجمال، وعليك الحبال» فرمت اليه خمارها وقالت: «اجعله حبلاً لبعضها» فأنشأ يقول:

لاتعذليني في العطاء ويسرى ... لكل بعير جاء طالبه حبلا
فاني لا تبكى عليّ اخالها ... اذا اشبعت من روض أوطانها بقلا
فلم أر مثل الابل مالا لمقتن ... ولا مثل ايام الحقوق لها سبلا

فجاوبته فورا: منشدة:

حلفت يميناً يا ابن قحفان بالذي ... تكفل بالارذاق في السهل والجبل
تزال حبال المحصدات أعدها ... لها ما مشى منها على خفة جمل
فأعطي ولاتبخل لمن جاء طالباً ... فعندي لها خطم وقد زالت العلل [١]

وحسبنا في ذلك برهاناً على تشابه الجنسين بالجاهلية في الكرم على ان في الاحصاء دليلاً آخر على نمو هذه العاطفة بين نساء الجاهلية، وممن اشتهر منهن (أميمة) بنت عبد المطلب الهاشمية، (وعمرة) بنت دريد بن الصمّة، و(حبيبة) بنت عبد العزّى العوراء، التي تفتخر ببذلها اذ تقول:

ألى الفتى برتلكأ ناقتى ... فكسا مناسمها النجيع الاسود

(١) زينب فواز الدر المنثور . ص ١١٧

انى ورب الراقصات الى منى بجنوب مكة هديهن مقلد
أولى على هلك الطعام الية أبداً ولكني أبين وأنشد
وصّى بها جدي وعلمني ابي نفض الوعاء وكل زادٍ ينفد
فاحفظ يمينك لا أبالك واحترس لا تخرقنه فأرة او جدجد(١)

فكأن حياة البداوة تستثنى مما قيل من ملازمة الشح، للجنس اللطيف؛ ولا غرابة فعهد البداوة، هو مهد التقارب بين الجنسين: ماديا، ومعنوياً؛ حتى بالصفات المختصة بالجنس.



الشجاعة: اجل شارك نساء الجاهلية رجالهم حتى في الصفات المسماة جنسية. اعتبر ذلك في الشجاعة ايضاً؛ فانها وان كانت من مميزات الرجال، ولا سيما الذين هم مثل عرب الجاهلية اهل وبر وبادية؛ الا انها كانت لديهم من صفات النساء أيضاً.

ولا غرابة في جرأة نسوة، كن شريكات الرجال، في السراء، والضراء وفي السلم، والحرب:

كان نساء الجاهلية يتبعن الرجال الى القتال، فينقلن الماء، ويداوين الجرحى، وينشدن الاناشيد الحماسية، ويشاركن حتى في القتال احياناً، او يضربن بالاعمدة من يحاول منهم التولي يوم الزحف.

وممن اشتهر في الشجاعة من نساء الجاهلية دختنوس ابنة لقيط بن زرارة، الدارمي؛ وآمنة ابنة ابان، بن كليب، بن هوازن؛ وكبشة بنت

(١) زينب فواز. الدر المنثور. ص ١٦٣

معد يكرب الزبيدي، وكنزة ام شملة بن برد المنقري . وقد اشتهر ايضاً غيرهم طبقة من المتحمسات اللاتي كن يدفعن الرجال الى المفاداة؛ فتقوم العرب لمقالهن؛ مثل: صفية ابنة الجزع، وناجية بنت ضمضم المرى، وام عمران ابنة وقدان التي تقول في دفع قومها للاخذ بثار بعض رجالهم:

ان انتم لم تطلبوا باخيكم ... ذروا السلاح ووحشوا بالابرق
وخذوا المكاحل والمجاسد والبسوا ... نقب النساء فبئس رهط المرهق
ألهاكم أن تطلبوا بأخيكم ... اكل الخزير ولعق اجرد محق [1]

هذا وان الاسلام لا يزال يذكر بسالة بعض نساء الجاهلية، في مقاومته، ومحاربة انصاره : فلما سقط لواء قريش في معركة أحد، لبث صريعاً؛ حتى تقدمت عمرة بنت علقمة الحارثية، ورفعته، فلاذوا بها . وكانت في اثناء ذلك هند بنت عتبة امرأة ابي سفيان، والنسوة اللاتي معها يضربن بالدفوف، وهي تنشد في تحريض قومها على الثبات [2] وبلغ من اشتراكها معهم في العواطف العدائية للاسلام، انها خرجت بعد المعركة مع النسوة تمتار حيث الموتى، فوجدت بينها جثة حمزة عم صاحب الرسالة؛ فانصبت عليه وبقرت بطنه، وأخرجت كبده فلاكتها . ثم علت صخرة وانشدت الاشعار افتخاراً بالفوز على المسلمين [3]

فحقد هند بنت عتبة لم يكن تقليدياً، موءسساً على مجرد رؤيتها رجالهم ناقمين على الاسلام؛ بل كان قائماً على اشتراكها معهم في التأثر من المؤثرات التي جعلتهم يناهضونه، واهمها الروح الاريستوقراطية،

(١) زينب فواز . الدر المنثور ص ١٦٣
(٢) ابوالفدا المختصر في اخبار البشر ج ١ ص ١٣١
(٣) جرجي زيدان اداب اللغة العربية ج ص ٣٣٠

وخشيتهم على مقاماتهم ، فكان عداؤها اصيلا . ومثل ذلك كانت شجاعة نساء الجاهلية على وجه عام ، لاشتراكهن في معرفة حوادث قومهن ، وتأثرهن من نفس المؤثرات عليهم ، ولا غرابة ، فليست النائحة كالمستأجرة

على ان الشجاعة التي هي بنت الاعتماد على النفس ، بل هي الجود بالنفس ، من شأنها ان تبعث على فضائل اخرى . وان الوفاء الذي سنتكلم عليه ، هو كالكرم ، نفحة من نفحاتها



الوفاء : الوفاء الذي كان عند قوم ، عاش بينهم مثل السموأل ، وصاحب جزيمة ، وحفظ تاريخهم ما لا يكاد يحصى من اخبار امثالهما ، حري بان يكون خلقاً عاماً للجنسين . اذ لم يكن الوفي في الجاهلية ، ليرضى لنسوته غير ما يحب لنفسه . فاذكر (فكيهة) بنت قتادة بن مشنوء خالة طرفة بن العبد ، احد اصحاب المعلقات . واعتبر بوفائها الى عدو عشيرتها ، وكيف طوحت بنفسها ، حتى انجته من مخالب الموت :

غزا السليك بن سلكة قومها بكر بن وائل فعلموا به ، وطاردوه ، فدخل على فكيهة بنت قتادة مستجيرا . فقامت دونه بوجه قومها واخترطت السيف ، ولبثت تناضل عنه ، حتى نجا ، فقال فيها :

لعمر ابيك والانباء تنمى ... لنعم الجار أخت بني عوارا
من الخفرات لم تفضح اباها ... ولم ترفع لاخوتها شنارا
كأن مجامع الاردان منها ... نقى درجت عليه الريح هارا
يعاف وصال ذات البذل قلبي ... ويتبع الممنّعة النوارا

وما عجزت فكيهة يوم قامت بنسل السيف واستلبوا الخمارا (١)

فترى في ذلك كيف ان الشجاعة تقترن بالوفاء، ولا بدع فالفضائل قد تصحب بعضها بعضاً . وحسبنا في هذه الحادثة مثالا على ما في بطن التاريخ من وفاء الجنس اللطيف .



الصدق : اجل ان الفضائل تتجاذب فتتصاحب : فلما تخلقت المراة في الجاهلية بالجرأة و الحرية والالفة ، اصبح الصدق الملازم هذه الفضائل خصلة طبيعية لها . وقد راينا في التاريخ امثلة على امتزاج اخلاق الجاهليات بالصدق حتى لم يعدن يستطعن التملص منه في احرج المواقف :

كان عروة بن الورد اغار على كنانة ، فاصاب منهم بكراً اسمها سلمى ، فاعتقها واتخذها لنفسه . فمكثت عنده بضعة عشر سنة ، وولدت له ولدا ، وهو لا يشك في انها ارغب الناس فيه ؛ وبناء على الحاحها حج بها سنة ، ثم اتى الى المدينة ، حيث اجتمعت بقومها ، فقالت لهم « تعالوا اليه وأخبروه انكم لا تحبون ان تكون امراة منكم معروفة النسب مسبية وافتدوني منه ؛ فانه لا يرى اني افارقه ولا اختار عليه احدا » ففعلوا ، ولما فادوه بها خيروها فاختارت قومها ثم اقبلت عليه فقالت :

« ياعروة اما اني اقول فيك ، وان فارقتك ، الحق والله ما اعلم امرأة من العرب القت سترها على بعل خير منك ، واغضى طرفاً ، واقل فحشاً ، واجود يدا ، وأحمى لحقيقة ؛ والله انك ما علمت لضحوك ، وقور ، كسوب مدبر ، خفيف على متن الفراش ، ثقيل على ظهر العدو ،

(١) محمد عبد الجواد الاصمعي . العرب واطوارهم ص ٢١٠

طويل العماد، كثير الرماد، راضي الاهل والاحباب . وما مرّ عليّ يوم منذ كنت عندك الا والموت فيه احب الي من الحياة بين قومك، لاني لم اكن اشأ ان اسمع امراة من قومك تقول : « قالت أمة عروة، كذا و كذا الا سمعته ؛ ووالله لا انظر في وجه غطفانية ابدا ؛ فارجع راشدا الى ولدك، وأحسن اليهم.»

ثم فارقته، فتزوجها رجل من بني عمها ، فقال لها يوما : « ياسلمى أثني عليّ، كما اثنيت على عروة ! » و كان قولها في عروة اشتهر ؛ فقالت له لا تكلفني ذلك ؛ فان قلت الحق اغضبتك . والا واللات، والعزى لا اكذب. فقال « عزمت عليك، لتأتين في مجلس قومي فتثنين عليّ بما تعلمين » وخرج فجلس في ندى القوم ، واقبلت فرماها القوم بابصارهم ؛ فوقفت عليهم وقالت « انعموا صباحا ان هذا عزم عليّ ان اثني عليه بما اعلم » ثم اقبلت عليه فقالت : « والله ان شملتك لالتحاف ، وان شربك لاشتفاف ، وانك لتنام ليلة تخاف ، وتشبع ليلة تضاف . وما ترضي الاهل ولا الجار ! » ثم انصرفت عنه ؛ فلامه قومه وقالوا « ماغناك عن هذا القول منها [1] »

فكفى بهذه الحادثة دليلا وتبياناً لقدر استمساك نساء الجاهلية بالصدق ، وحسبنا بها ايضاً برهاناً على انطباعهم على الجرأة الادبية وتناهيك بالانفة



الانفة : حقاً ان حادثة سلمى تصح ان تكون مثالا على الانفة كما هي مثال على الصدق : افارايت كيف ان سلمى اعترفت بان عروة بن الورد

(١) زينب فواز الدر المنثور . ص ٢٤٩

كان خير رجل تعرفه ، غير انها ، كانت مع ذلك ، تفضل الموت على الحياة معه وهي سبية ؛ فتغلبت أنفتها على كل عواطفها ، حتى على عاطفة الامومة ، فعملت على فراقه ، وفراق اولادها . ومثل ذلك كثير من امثلة انفة نساء العرب في الجاهلية . وممن ضرب المثل في انفتها ليلى بنت مُهلهل ، اخى كليب المشهور . فان قصتها مع هند ام عمرو ، صاحب الحيرة ، هي الانفة بعينها ، وكانت مما اثارت الحروب بين العرب :

كان عمرو بن هند معجباً بنفسه ، فقال يوماً للندماء « هل تعلمون احدا من العرب تانف امهُ من خدمة أمي ؟! » فقالوا « نعم : ام عمرو بن كلثوم ، صاحب المعلقة الحماسية التي مطلعها :

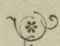
الا هبي بصحنك فاصبحينا ولا تبقي خمور الاندرينـا

فارسل اليه يستزيره ، ويسأله ان يصحب امه لزيارة والدته . فلما اقبل صاحب المعلقة في جماعته بني تغلب ؛ امر عمرو بن هند برواقه فضرب بين الحيرة والفرات ، وارسل الى وجوه مملكته ؛ فحضروا ودخل بمقدمتهم عمرو ابن كلثوم ، كما دخلت والدته ايلى وهند ام عمرو في قبة من جانب الرواق ؛ فدعا صاحب الحيرة بالمائدة ، ثم دعا بالطبق ، وبحسب ما تقرر بينه وبين أمه ، من استخدام والدة عمرو بن كلثوم قالت : « ياليلى ناوليني ذلك الطبق » فقالت ليلى « لتقم صاحبة الحاجة الى حاجتها » فاعادت عليها هند وألحت ؛ فصاحت ليلى واذلاه يالتغلب ... » فوثب ولدها الى سيف معلق ؛ ضرب به راس عمرو بن هند ، ونادى في بـني تغلب . فانتهبوا ما في الرواق ، وساقوا نجائبهُ الي الجزيرة .[1]

(١) جرجي زيدان . اداب اللغة العربية ج ١ ص ١٣ .

هذا واذ عرف الرجال منهن انفتهن ، وقدّروها ، فقد كانوا يحفظون لهن كرامتهن احياناً ، من ذلك ما كان منهم من اجتنابهم غالباً تزويج البنات من غير مشورتهن . وبلغ الشمم من بعضهن الى حد انهن كن يشترطن ان يكون بيدهن الطلاق مثل الرجال ، نذكر منهن سلمى بنت عمرو : احدى نساء بني عدي بن النجار . فانها كانت امرأة شريفة لا تتزوج الرجال الا وامرها بيدها ، اذا رأت من الرجل شيئاً تركته .

ولا غرابة في ذلك ، فالانفة طبيعية بالبشر ، ولكن الحاجة التي تكثر في المدن ، تبعاً لكثرة انواع المطامع فيها ، تميتها في التملق والخنوع ، واما البادية فهي احفظ لها : فأن ما فيها من استقلال الجنسين النسبي ، يستمر على انعاشها . (١)



العفة : يختلف مصدر العفة باختلاف افكار البشر ، فالنساء يحتفظن عادة بانفسهن امانة لازواجهن ولما يرين في بذل النفس من الامتهان

ولما كان الوفاء ، والانفة ، اصبحا شيمة من شيم نساء الجاهلية ، تولدت عنهما العفة فيهن ، ولطالما رأينا امثلة من الحوادث في تاريخ العرب كانت نتيجة الانفة والوفاء . فنذكر الذاكرون ليلى بنت لكيز * التي اثارت الحرب بين العرب والفرس ، في بيت من قصيدة نظمتها وهو :

«غلّلوني قيّدوني ضربوا ملمس العفة مني بالعصا»

فاصابت بشعرها ما تريد من التأثير على النفوس ، فاثارت قومها ،

* توفيت ليلى سنة ٤٨٣ م

(١) مجلة المنار ج ٤ ص ٤٢٧

وهبوا مجيبين دعوتها .

ومجمل خبر الفتاة ، ان اباها من بني وائل ، نزل بها في بعض منازل اياد بالقرب من بلاد فارس ، فلما علم كسرى بجمالها ، اخذها من ابيها غصباً ، فصانت نفسها منه ، ولمّا لم ينفعه الترغيب والارهاب ، عمد الى افساد عفتها بالترف . ولكن ما كان نعيم الاجنبي الا بؤساً عليها ومستزيداً في حبها لابن عمها البراق ، فارسلت تستنجده وتحث قومها قائلة :

ليت للبرّاق عيناً فترى ما ألاقي من بلاء وعنا
يا كليباً وعقيلاً اخوتي يا جنيداً اسعدوني بالبكا
عُذبت اختكم يا ويلكم بعذاب النكر صبحاً ومسا
غلّلوني قيدوني ضربوا ملمس العفة مني بالعصا
يكذب الاعجم مايقربني ومعي بعض حشاشات الحيا
قيدوني غللوني وافعلوا كلما شئتم جميعاً من بلا
فانا كارهة بغيكم ويقين الموت شيء يرتجى

الى ان قالت :

احذروا العار على اعقابكم وعليكم ما بقيتم في الدنا

فما بلغ قولها بني ربيعة حتى استفذتهم الحمية ، فساروا جميعاً ، وخلصوها . وقد عرفت من بعد بالعفيفة وتزوجت من البراق (١) .

فكان صرخة من ليلى بنت مهلهل ، مصدرها الانفة ، جعلت العرب تتلاطم بعضها ببعض ، فان بيتاً من ليلى العفيفة اطبق العرب على الفرس.



الحرية : ان سماء البادية العربية التي كانت تغذى ابناءها الانفة

واباء الضيم ، والعفاف ، والصدق ، والكرم ، والشجاعة ، والمروءة ، والوفاء ، ما اولاهابان تمطر عليهم سلسبيل الحرية ؟ ، افما رأيت كيف جاهرت ليلي العفيفة بداعي العفاف ، فأغلت مراجل العرب بنيران الاباء ، ولم يكن ليحجبها شي عن التصريح دون التلميح .

فالمرأة الجاهلية بلغت في الهيئة الاجتماعية من الحرية العفيفة ، ما لم تبلغه نساء القرون الاخيرة . فالتمدن الحديث قدس الحب ، واعتبره مصدر حسنات وافرة اجتماعية ، وجرى العرب مجراهم في ذلك ، فسمحوا في افشاء الغرام ، والتشبيب في النساء ، ولكنهم قيدوا ذلك حيث يخشون على العفاف ، فحظروا على العاشقين الاجتماع الخفي ، كما منعوهم من الزواج بينهم [1] . فكأنهم بهذا يريدون دوام اشتعال نار المواهب الفطرية ، فتثير في المتحابين العواطف السامية ، والمواهب العقلية .

على انهم امتازوا في الصراحة في الحب ، فكان اذا احب احدهم فلا يستتر ، بل يعلن في مثل الصحف كالتيمس ، ونيورك هرالد ، والتان ، وما شاكلها من وسائل الانتشار :

كان يبث غرامه في منظومات يقولها ، واذا كان شعره صادراً عن شعور ، فما هي الا ايام ، يصبح في اثنائها منقوشاً على صفحات الافئدة ، ومنثوراً من اطراف الالسنة .

اليكم امريء القيس اشهر شعراء الجاهلية ، فاذا تحرينا عن مصدر معلقته ، ومنبت بلاغته ، نجدان الحب هو المصدر ، والقلب هو المنبت . شغف امرؤ القيس بابنة عمه عنيزة بنت شرحبيل ، فحظروا عليه

(١) الاغاني ج ٢ ص ٨

لقاءها جرياً على عادتهم . فلما سنحت له فرصة في اثناء ما ظعن الحي ، ركب على مقدم هودجها ، وجعل يدخل رأسه في الهودج يقبلها ويحادثها .

فرصة اشعلت ذاكرته ، فرسم لهبها في خاطره معلقته التي هي صورة ذكاء وعواطف ، كما يرسم نور الشمس الصور في زجاجة (الفوتوغراف) . فنظمها قائلاً في مطلعها :

قفا نبك من ذكرى حبيب ومنزل

بسقط اللوى بين الدخول فحومل

انه افشى في قصيدته سر اجتماعها ، ولولا العفاف لركن الى السكوت . بل ان حرية العرب قد جاوزت هذا الحد ، فانها بلغت درجة وصف النسا الوصف الطبيعي بلا ريبة ، ولا خجل ، كما يفعل اصحاب الحقيقة (Réaliste) من شعراء و كتاب التمدن الحديث ، الذين يمثلون الطبيعة مثل : زولا ، وتولستوي .

بل هم انبسطوا في هذا المجال اوفر من سواهم ، فاسترسلوا في الوصف الطبيعي حتى لم يوفروا شهيرات القوم .

افرأيت الرسام ، كيف يستقبل اياماً ، في متاحف اوروبة ، الصور المنسوبة لمشاهير الرسامين ينقلها ، وقد يكون هذا الرسم صورة امرأة عارية ؟

افرأيته مطمئناً في عمله ، لا يخشى الريبة ولا الملاحظة ، معتقداً بان قومه يعرفون بأن غايته محصورة في رسم الجمال الطبيعي ؟

فهكذا كان شعراء العرب قد يصورون بقصائدهم ابدان النساء ، بلا حرج ، لا يهملون عضواً منها ، فتجسم بلاغتهم ما تجسمه ريشة المصور ، حتى يكاد السامع يرى صورة ما يسمع !

وما كان ذلك، على غرابته لدينا ؛ ليثير حفيظة، ولا سخط رجال تلكن النسوة، وثوقاً منهم في عفاف نساءهم .

ومن اشهر القصائد في وصف النساء : قصيدة النابغة الذبياني* في المتجردة، زوجة النعمان، صاحب الحيرة، التي مطلعها :

امن آل دمية رائح او مغتدي عجلان ذا زاد وغير مزود

ومنها في وصفها :

نظرت بمقلة شادن متربب احوى احم المقلتين مقلد
والنظم في سلك يزين نحرها ذهب توقد كالشهاب الموقد
صفراء كالسيراء اكمل خلقها كالغصن في غلوائه المتأود
قامت ترائي بين سجفي كلة كالشمس يوم طلوعها بالاسعد
اوردة صدفية غواصها بهج متى يرها يهل ويسجد
اودمية من مرمر مرفوعة بنيت بآجر تشاد وقرمد
سقط النصيف ولم ترد اسقاطهُ فتناولته واتقتنا باليد
بمخضب رخص كأن بنانهُ عنم يكاد من اللطافة يعقد

وهكذا ينبسط النابغة في وصف سائر اعضائها حتى لا يهمل منها شيئاً ظاهرا، ولا مما يستحى من ذكره .

ومن شهيرات القصائد الوصفية في النساء، قصيدة (اليتيمة) التي ادعاها جمهور كبير من الشعراء في دعد .

وخلاصة قصتها، التي هي دليل على الزكاء المتوقد؛ انه كان لامير من امراء الجاهلية، ابنة اسمها دعد، اعلنت انها لا تتزوج الا بمن يصفها

(*) توفى النابغة سنة ٦٠٤ م

أحسن وصف ، فتوافد الشعراء على دارها من كل حدب ينسلون ، يأتونها بكل شعر ثمين ، فلم يرق لها غير قصيدة ، لمّا اتى منشدها على اخرها ، اقبلت على قومها قائلة لهم : « اقتلوا قاتل بعلي ... ، قالوا لها : « وكيف علمت ذلك ؟ » قالت : « اني رايت الرجل ينتسب لكندة ، وليس في لهجته مايدل على انه منها ، فعلمت انه قتل قاتلها ، وانتحلها لنفسه !! » فاستجوبوا الرجل فاقر بفعلته ، فقتلوه ، فسميت القصيدة « اليتيمة » ومطلعها :

هل بالطلول لسائلٍ ردُّ أم هل لها بتكلم عهدُ
درس الجديدُ جديد معهدها فكأنما هي ريطة جرد
من طول مايبكي الغمام على عرصاتها ويقهقه الرعد

ومنها قوله في الوصف :

فالوجه مثل الصبح مبيضٌ والشعر مثل الليل مسودُّ
ضدان لمّا استجمعا حسَنا والضد يُظهِر حسنه الضد

واسترسل الناظم بالوصف ، حتى بلغ ملمس العفاف واجتازه . على ان بينهم من وصف هكذا أمه ، مثلما فعل عمرو بن كلثوم ، فقد جاء في معلقته في وصف والدته ليلى ، نحو ما فعل النابغة بالمتجردة (١) ، فهؤلاء اللذين كانوا يتسامحون الى هذا الحد في التشبيب بالنساء ، لم يكن اشد منهم غيرةً على العِرض ، فاذا توهم رجل من رجل نظرة الى امرأته ، او أخته بريبة ، طلبه الى التبارز ، او التجالد ، او المصارعة . وربما

(١) جرجي زيدان اداب اللغة العربية ص ١١٤

انتشب القتال بين القبائل، غيرة على نظرة م، كما حدث يوم الفجار الثاني (١)، ومثلما وقع بالحرب التي قتل فيها زهير بن جذيمة العبسي. وكان سببها ان ابنه شاساً اغتسل بجانب أبيات لبني غني، بماء لبني عامر، فناداه رجل غنوي ان يستتر، فلم يحفل به، فرماه بسهم فقتله، فاستعرت الحرب بين قوميهما.

وهؤلاء الذين كانوا يرضون ان توصف نسائهم بين جماهير العرب علناً، ذاك الوصف الطبيعي، هم الذين ظهر من بينهم، من بلغت بهم الغيرة ان يئدوا بناتهم احياء لئلا يرتكبن ما يجر عليهم العار.

فهذه الجراة الادبية التي كانت طبيعية، قومية، كانت بالطبع عزيزة في النساء ايضاً، وقد رايناحرية ليلى العفيفة، في قصيدتها. وفضلاً عن ذلك فان في عناية الشعراء الوصافين، اشارة ايضاً الى جرأه النساء. لانه لو كان في وصفهم لهن، أذى لانفسهن، لما تجرأ عليه الشعراء.



فيما تقدم، امثلة عن اشتراك النساء مع الرجال بكثير من الفضائل، مما يشير الى ان عرب الجاهلية، كانوا لا يزالون يحافظون على خواص عصور البشر الاولى، حيث تضعف الميزات الجنسية بين الرجل والمرأة. ولابدع فأن قلة التباين بين عيشة الجنسين مدعاة لقلة الفروقات بينهما.

وليس مثل الحضارات يعمل على التفريق بين الاخلاق، وجعلها مراتب. على انه يجب ان لا يتوهم بان عصر الجاهلية، كان عهد مساواة في اخلاق الجنسين. كلا بل ان الميزات الاجتماعية عملت فيه ايضاً على

(١) الاغاني ج ٩ ص ٧٤

ايجاد ميزات في الاخلاق كما نبينه فيما يلي :

. . . . . .

اجل ، تشابه الجنسان في الجاهلية ولكن تشابهاً نسبياً اذ لا يجوز ان نغفل عن ان العرب رجال حرب ، وان المرأة ما كانت حيث تغلبت فكرة القتال الا مهانة ضائعة الحقوق ، ولا يقتضي ان ننسى ايضاً ما اثره في اخلاقها استئثار الرجل بها . ولا يخفى على بداهة القراء ما هي التطورات التي تصيب اخلاق المستضعفين ؟ وكم هي مؤثرات الانحطاط في المحكومين ؟

أجل ان طبيعة البداوة كانت تدفع عوامل الرجل على اخلاق المرأة ، ولكن كرور الزمان وما كان فيه من الثبات على ذلك الاستئثار ، كانا يغالبان الطبيعة ، حتى صارت لهما اليد العليا في تحوير بعض اخلاقها.

انظر الى اشهر شاعرات الجاهلية ، والى ميادين الافكار التي تركن لقرائحهن الاعنة للجولان فيها ، فماذا ترى ؟ تراهن كلهن لم يجدن لجياد افكارهن مخرجاً ، الا من باب التزلف الى الرجل ، وهو « باب الرثاء » ، واما ما سواه فكان محظوراً عليهن ، الا ما ندر والنادر لا يقاس عليه .

نعم ان بين نساء الجاهلية من كان لهن صوت عال في الشعر الحماسي . بيد ان ذلك كان مما جوزته الحاجة بقصد التنشيط ، للاخذ بالثار ، او للصبر على الحرب ، فهو اذاً لخدمة الرجال في الجاهلية كذلك.

وصفوة القول ان طبيعة البداوة وان كانت تغالب تأثير التقاليد في تحوير اخلاق المرأة في الجاهلية ، الا ان منزلتها العائلية ، والاجتماعية المنحطة وقتئذٍ ، كما سنبينه ، افسدت بالطبع في اخلاقها . حسبما يدلنا على ذلك قلة طمأنينتهم اليها.

مدارك المرأة في الجاهلية

الطبيعة، هي المدرسة الجامعة، التي علمت العربي في الجاهلية النظم، والخطابة، والكهانة، والطب، والفلك، والميثولوجيا، والتوقيت، والانساب على مقاعدها، وفي الواحها الواسعة، وازاء خارطاتها الجغرافية، وفي صفحات كتبها التي تطوى وتنشر كل يوم. وهي لم تكن بلا ريب لتضن بفوائدها هذه على المرأة، رفيقته في فضائها، وعلى مقاعدها.

اجل لما كانت مدارك العربي في ذلك الحين، من قبيل المواهب الطبيعية، كان من البديهي ان تشمل هذه المدارك الجنس اللطيف لتوحيد اساليب الحياة بين الجنسين، فضلاً عن وحدة الزمان والمكان. ولذلك كان عصر الجاهلية الغني بالرجال المفكرين والادباء، طافحاً ايضا بالنساء اللاتي تفوقن في زكاء مفرط اوبلاغة ساحرة او علم مفيد. فاذا ذكرنا المواهب العقلية. يجب ان لا نغفل عن دعد الموصوفة بقصيدة اليتيمه، التي ذكرناها، فهي ان صحت قصتها من النابغات.

على ان بالجاهلية نساء كن على شكل اخر من النبوغ، كن مرجعا لرجالهن، اوذخيرة لعشائرهن وقت الشدائد. ولا يسع المقام ايراد تراجمهن، وانما نقتصر على جمع اسماء بعض مشاهيرهن في جدول، تاركين للذين يرغبون في معرفة سيرهن ان يلجوأ الى الفهارس والمطولات

حليمة الحضرية من عبس	موصوفة بالتعقل والحكمة
اسماء بنت رويم	معروفة بالتفكير والتدبير
هند بنت عتبة القرشية	والدة معاوية مشهورة بالرأي ، والعقل والانفة ، توفيت سنة ١٣ ه
هنيئة بنت أوس بن حارثة الطائية	حكيمة عملت على ابطال حرب قيس وذبيان
ام خالد النميرية	مشهورة بالعقل ، والتدبير ، في بني نمير ، ولها شعر رائق
حبيبة بنت مالك بن بدر	ذات عقل ثاقب ، وفكر صائب ، ترجع اليها رؤساء قبيلتها بالرأي ، ولها شعر رائق .
دختنوس ابنة لقيط بن زرارة	حكيمة مفكرة يرجع ابوها الى رأيها ، ويستصحبها معه في غزواته لاستشارتها ، وقد برهنت على ادراكها الراجح في حكاية طويلة في يوم شعب جبلة ، الذي حصل بين ابيها وبين بني عامر وعبس .

تلكن بعض النسوة ، اللاتي كان لهن في عقولهن الطبيعية سداد ، وحكمة ، حتى اثبتن انفسهن في التاريخ ، وصار يشار اليهن بالبنان .

على ان الجنس اللطيف لم يقتصر على المواهب العقليـة فقط ، بل نبغ ايضاً منه نفر بالاداب ؛ ونخص بالذكر الشعر ، لمقامه عند اهل الجاهلية .

- ٤ -

الشعر : كان الشعر سليقة في الجاهلية ، سيان فيها الجنسان ، يتوارثونها بل يكاد يرضعونها مع ألبان امهاتهم : فالنساء استرسلن في قول ، وحفظ ، ونقد الشعر كثيرا ؛ حتى ان ابا نواس وحده ، كان يروي لستين شاعرة غير ان الاكثر من الشعر النسائي اضاعته الازمان ، لعدم تدوينه ، كما نسي اسماء كثيرات من الشاعرات ، ولولا ان اشعار بعضهن ، جاءت عرضا في بعض الاخبار ، لطمس على اسمائهن كذلك .

واشهر الشاعرات في الجاهلية الخنساء ؛ بل انها على رأي بشار بن برد ، فوق الرجال : قال بشار : لم تقل امرأة شعراً الا تبين الضعف فيـه : فقيل له : أو كذلك الخنساء ؟ : قال : « تلك فوق الرجال ! »

والخنساء هي تماضر ، بنت عمرو بن الشريد ، من سراة سليم من اهل نجد ؛ وقد اشتهرت في الجاهلية برثاء اخويها معاوية ، وصخر ؛ وادركت الاسلام ، فاشتهرت ايضاً بالشعر ، وفي جهادها في سبيل هذا الدين . وتوفيت في البادية في خلافة معاوية بن ابي سفيان (٦٤٦٠ م .)

كان للنابغة الذبياني منزلة كبرى عند شعراء عصره ، فاذا جاء عكاظ ، ضربوا له في سوقها قبة من جلد ، وجاء الشعراء ينشدون اشعارهم ففي احد المواسم كان اول من انشده الاعشى ، ثم حسان ، ثم الخنساء [١]

(١) جرجي زيدان اداب اللغة العربية ج١ ص ١٠٧

فلما انشدت شعرها على النابغة ، اعجب به ، وقال لها : « لولا ان هذا الاعمى (يعني الاعشى) أنشدني قبلك ، لفضلتك على شعراء هذا الموسم [١] » وكان ممن عرض شعره في ذلك الموسم ايضاً حسان بن ثابت ، فغضب ، وقال : « انا اشعر منك ومنها » فقال : « وليس الامر كذلك » ثم التفت الى الخنساء وقال : « ياخناس خاطبيه ؛ » فالتفتت اليه ، وقالت « ما اجود بيت في قصيدتك هذه ، التي عرضتها انفاً ؟ » فانشدها :

« لنا الجفنات الغر يلمعن في الضحى ،
واسيافنا يقطرن من نجدة دما »

فقالت : « ضعفت افتخارك ، واندرتها ، في ثمانية مواضع [٢] » وبينتها له فاسكتته . على ان اقوال هذه الشاعرة ؛ خير واصف لفضلها . واليك شيئاً من شكايتها الزمان . قالت :

تعرقني الدهر نهساً وحزا ... واوجعني الدهر قرعا وغمزا
وافنى رجالي ، فبادوا معا ... فاصبح قلبي لهم مستفزا

ألى ان عطفت تعزّى نفسها بقولها الحق ، الذي جعلته سنة بقاء الانسب ، يجري مجرى الامثال :

ومن ظن ممن يلاقي الحروب ـ م ـ بأن لن يصاب فقد ظن عجزا

ومن شعرها ايضاً في رثاء اخيها صخر ، قولها [٣]

الا ما لعينيك أم ما لها ... لقد اخضل الدمع سربالها

(١) الكوثر ج ١ ص ٩٣
(٢) زينب فواز الدر المنثور ص ١١٠
(٣) ديوان الخنساء

ابعد ابن عمرو من آل الشريد حلت به الارض اثقالها ؟
فان تك مرة اودت به فقد كان يكثر تقتالها

ثم بعد هذا التساؤل ، وتعزية النفس المشوبة بالمدح ، عادت ايضاً لنثر الحكم ، ووصف الناس ، من خير وصف حُفظ في منتخبات العرب قالت :

ساحمل نفسي على خطة فاءما عليها واما لها
فان تصبر النفس تلق السرور م وان تجزع النفس اشقى لها

وعلى هذا النسق ، من البلاغة والسلاسة ، تركت الخنساء اشعار جمع ما وصل منها الى ابناء القرن التاسع عشر ، في ديوان طبع في بيروت سنة ١٨٨٨ ، وفيه مراث لستين شاعرة

ومثل الخنساء في الشهرة بالشعر ، خرنق* بنت بدر ، بن هفان ، اخت طرفة بن العبد ، لأمه ، لها اشعار كثيرة في اخيها ، وزوجها ، لم يصل الينا منها الا بضعة وخمسون بيتاً . وكذلك جليلة بنت مرة** اخت جساس الشيباني ، وزوجة كليب بن ربيعة . قتل اخوها جساس زوجها كليبا فاثار الحزن شاعريتها ، حتي عد رثاها من ارق المراثى . ومن اول تلك المرثيات قصيدة قالتها لما رحلت عن المأتم حزينة وبلغها ان اخت كليب قالت « رحلة المعتدي ، وفراق الشامت ، ويل غدا لال مرة ، من الكرة بعد الكرة » فانشأت جليلة معاتبة :

يابنة الاقوام ان لمت فلا تعجلي باللوم حتى تسألي

* توفيت خرنق سنة ٥٧٠ م

** « جليلة « ٥٢٨ م

فـاذا انت تبينـ الذي يوجب اللوم فلومي واعذلي
ان تكن أخت امرء ليمت على شفق منها عليه فافعلي

ثم عطفت الى استكبار فعل اخيها ووصف تاثير فعله عليها فقالت

جل عندي فعل جساس فيا حسرتي عما انجلى او ينجلي
فعل جساس على وجدي به قاطع ظهري ومدن اجلي
لو بعين فقئت عيني سوى اختها فانفقأت لم احفل
تحمل العين اذى العين كما تحمل الام اذى ما تفتلي

وعقب ذلك تحولت الى رثاء زوجها رثاء طبيعياً صادقاً ، ليس كرثاء المتأخرين ، الذين اذا رثوا رجلاً من السوقة ، أوهموا السامع ، ان ملائكة السماء ، وطيور الهواء ، وحيتان الماء ، اشتركت في المصاب ، ذلك المصاب الذي دكّ الكرم وأودى بالشجاعة ، وافنى الحسن ؛ بل هي بيّنت تأثير ذلك الحادث عليها مزدوجاً ، اذهد اركان داريها ، في حين ان ما يزيد في افجاعها عدم استطاعتها أن تشفي غليلها بثأر ؛ فقالت :

يا قتيلا قوّض الدهر به سقف بيتيّ جميعاً من عل
ورماني فقده من كثب رمية المصمى به المستأصل
هدم البيت الذي استحدثته وسعى في هدم بيتي الأول
مسّني فقد كليب بلظى من ورائي ولظى مستقبلي
ليس من يبكي ليومين كمن انما يبكي ليوم ينجلي
درك الثائر سافيه وفى دركي ثأرى ثكل الشاكل
ليته كان دماً فاحتلبوا دركاً منه دمي من اكحلي

هذا وقد ثابرت جليلة على نظم مثل هذه الاشعار الرقيقة الطافحة بالمعاني حتى عدت من شهيرات الشاعرات . فاذا قلنا لشعرائنا ؛ تجددوا في اسلوب

الرثاء ؛ واقتصروا في المدح على سرد اعمال الممدوح الحقيقية ؛ فلانكون حضيناهم على التمثل بالغربي الحديث ، بل نكون قد رغبنا اليهم ان يتحدوا شعرائنا العرب القدماء ، حينما كانت البلاغة في اوجها

على انه فضلا عمن ذكرنا ، كان في عصر الجاهلية نفر غير قليل من الشاعرات البليغات المؤثرات ، ولكن لايسع المقام التوسع في الكلام عنهن

غير انا لما كنا ضنينين ايضاً على عدم اهمالهن ، راينا ان ندرج لمحة من سيرهن في جدول مع اللاتي اتينا على شيء من ترجماتهن

اشهر شاعرات الجاهلية

امنة ابنة عتيبة ابن الحرث اليربوعي	شاعرة مقلة ، غير ان شعرها بليغ ، عرفت برثاها اباها .
امامة ابنة ذي الاصبع العدواني	شاعرة مشهورة ، يشار اليها بالبنان
ام بسطام بن قيس سيد شيبان	من المتقدمات في الادب ، ولها شعر رائق ، ورثاء لولدها فائق .
اميمة أم تأبط شرا من بني القين من فهم	شاعرة قولها منسجم طلي ، اغلبه مراثٍ في ولدها تابط شراً ؛ من ذلك قولها من مرثية : والمنايا رَصدٌ للفتى حيث سلك اي شيءٍ حسنٌ لفتى لم يكُ لك
تماضر الشهيرة بالخنساء	ابنة عمرو بن الحارث ، اشهر الشاعرات في الجاهلية ، ولكنها تعد من الطبقة الثانية بين الشعراء

ثبيتة ابنة مرداس بن قحفان العنبري	شاعرة جوادة ؛ ذكرناها في باب الكرم
حبيبة بنت عبد العزى العوراء	من الشاعرات الموصوفات بالكرم ، لقبت بالعوراء لانها كانت ذات حول .
جليلة بنت مرة الشيباني	اخت جساس ، قاتل زوجها كليب ؛ شاعرة بليغة اشتهرت برثاء زوجها
جنوب اخت عمرو ذي الكلب الهندي	شاعرة اديبة ، فصيحة ؛ لها في اخيها مراث ومدح من ذلك قولها : لقد علم الضيف والمرملون اذا اغبر أفق وهبت شمالا تخلت عن اولادها المرضعات ولم ترعين لمزن بلالا بانك ربيع وغيث مريع وانك هناك تكون الثمالا وحرب رددت وثغر مددت وعاج شددث عليه الحبالا ومال حويت وخيل صحبت وضيف قريت يخاف الوكالا .
خرنق بنت بدر	شاعرة شهيرة ؛ توفيت ٥٧٧ م
ريطة بنت العجلان بن عامر الهذلي	من النساء الموصوفات بالادب والفصاحة ، والحماية ، لها مراث باخيها عمرو
اميمة امرأة ابن الدمينة	شاعرة معروفة

صفية بنت عمرو الباهلية	شاعرة قومها ، رقيقة النظم ، لها مراث كثيرة باخيها ، منها قولها اللطيف : كنا كغصنين في جرثومة سميا حيناً بأحسن ما يسمو له الشجر حتى اذا قيل قد طالت فروعهما وطاب فيوأهما واستنظر الثمر أخنى على واحدي ريب الزمان وما يبقى الزمان على شيء ولا يذر كنا كانجم ليل بينها قمر يجلو الدجى فهوى من بينها القمر
عاصية البولانية بنت عبد العزى الطائي	شاعرة مقلة ؛ ولكنها مجيدة .
فاطمة بنت احجم بن دندنة الخزاعية	من فصحاء العرب ، وشاعرة ؛ كانت أشعارها لا تخرج عن الحكم ، والامثال ؛ وا كثرها رثاء ؛ وكانت العرب تتمثل بها .
كبشة بنت معديكرب الزبيدي	شاعرة مجيدة ، تغلب على شعرها الحماسة ؛ ولها مراث في زوجها ؛
كنزه ام شملة بن برد المنقري	من شاعرات العرب المتحمسات ذوات الشجاعة
ليلى بنت لكيز بن وائل	شاعرة كأن شعرها النسيم العليل وهي التى اثارت الحرب بين العرب والفرس وماتت سنة ٤٨٣م

ميسة بنت جابر

امرأة حارثة بن بدر ؛ شاعرة معروفة من شاعرات العرب اللاتي يحضرن الوقائع ويحرضن على القتال ؛ لها اشعار في اخيها هرم ، ومنها قولها :

ناجية بنت ضمم المرى

الواهب المائة التلا — دلناويكفيناالعظيمة
والدافع الخصم الالد — م اذا تفوضح في الخصومة
بلسان لقمان بن عا — د وفصل خطبته الحكيمة
الجمتهم بعد التجا — ذب والتدافع في الحكومة

هند بنت عتبة القرشية

شاعرة أديبة فصيحة ، كانت تحرض على قتال الاسلام ، ثم أسلمت وتوفيت في خلافة عمر سنة ١٣ للهجرة

هند بنت معبد بن خالد بن نافله

كانت من اشعر نساء زمانها ، قالت ترثى والدها من قصيدة :

ما حيلتى الا البكاء عليهم
ان البكاء سلاح كل مصاب

وهيبة بنت عبد العزى بن عبد القيس

من الشاعرات الاديبات ؛ كانت متزوجة بزيد بن مية ، فلما قتل قالت شعراً في توبيخ الزبرقان بن بدر جار زوجها على تخلفه عن الثار فاهاجته . ولكن العرب اصلحت بينهما

تلكن بعض شهيرات الجاهلية في الشعر، نقتصر عليهن، ولو انصفنا لكدنا ان نتعرض لكل النسوة، لما قدمنا من ان الشعر كان سليقة عامة، يجري على الألسنة مجرى سائر الكلام.

ولكن الشعر النسائي كان محصوراً في الرثاء، لما ذكرناه من تسلط الرجال عليهن، واعتبارهم مع ذلك، من فضائلهن اتقان الرثاء، والندب، والنوح، وليس بخاف انهم كانوا حريصين على ذلك، الى حد انهم كانوا يستاجرون، احتفاء بالموتى، صاحبات الفن من النادبات.

وبلغ من اهتمامهم بتعليم بناتهم الرثاء، انهم صاروا الى اختبارهن، يتطلبون منهم، ان يرثوهم، وهم في قيد الحياة. وممن فعل ذلك عبد المطلب، جد صاحب الرسالة: قال لبناته اميمة، وبرة وعاتكة « اسمعنني شعر كن كأني ميت » فقالت كل واحدة منهن ابياتاً رثية، مشهورة.

بيد ان شاعرية المرأة التي عني باتقانها الشعر، لرغبتهم في ان ترثى، لم تبق محصورة ضمن هذه الدائرة، بل تعدت للمدح، والحماسة، والفخر والهجاء، ولكن على قدر قليل. واما الغزل، ووصف الجمال، واظهار العواطف، فقد حظر عليها.

وفي الاجمال فان النساء وان كن مقلات بالشعر، ولا سيما فيما عدا الرثاء، فقد صار لهن مع ذلك، ذوق فيه على وجه عام، بل قد بلغ من سمو مدارك بعضهن فيه، وثقة الشعراء في ذوقهن بنقده ان لجأ بعض الشعراء اليهن يحكمونهن فيما كانوا فيه يختلفون.

فقد كان علقمة بن عبدة من تميم، معاصر الامرىء القيس، وينازعه الشعر، فتحا كما مرة الى ام جندب زوجة امرىء القيس، فاقترحت عليهما، نظم قصيدتين، من وزن واحد. وقافية واحدة في وصف الخيل. فنظم

امرؤ القيس قصيدته التي مطلعها :

« خليليَّ مرَّابي على أم جندب لنقضي لبانات الفؤاد المعذَّب »

وكأنه اراد في هذا المطلع. التأثير على زوجه بتحريك العواطف، فسلك مسالك اظهار الحب، والمدح، الذي هو اسهل المسالك لخداع النساء (كما يفيد شعر احمد شوقي بك :

خدعوها بقولهم حسناء والغواني يغرهن الثناء)

بيد ان تأثير الحق على ام جندب، كان اكبر تاثير، فلم تحفل باثارة العواطف، ولا بالصلة الزوجية، فلما سمعت قصيدة علقمة التي مطلعها :

ذهبت من الهجران في كل مذهب ولم يك حقا كل هذا التجنب

حكمت له وايدت حكمها بالبرهان : من ذلك ان امرئ القيس لما وصف سرعة فرسه علق هذه السرعة على اجهاد الفرس بالسوط اذقال :

فللسوط الهوب وللساق درة وللزجر منه وقع اهوج منعب

واما علقمة فان فرسه ادرك طريدته وهو ثان عنانه، حيث يقول :

فادركهن ثانيا من عنانه يمر كمر الرائح المتحلب[1]

وقد اثر هذا الحكم على امرئ القيس حتى طلق ام جندب كما انه اثر على علقمة فاستحسن ان يعوضها بنفسه زوجاً، اعترافا بحريتها وتقديرا لادراكها.

فترى في ذلك كيف ان رجال الجاهلية وان كانوا ينسجون على منوال محتقري الجنس النسائي، غير انهم ما كانوا يغمطون حق الافراد منه الممتازة. ولا نبالغ اذا قلنا انه حتى في تمدننا الحديث لم نسمع برجوع

(١) الاغاني ج ٧ ص ١٢٨

مشاهير الشعراء ، كما هو امرؤ القيس وعلقمة عند العرب ، لتحكيم السيدات بينهم



الفصاحة ومثلما راج الشعر بين نساء الجاهلية ، فقد توفر بينهن ايضاً صنعة انسجام الكلام البليغ ، مع توخي الايجاز في التعبير ، فان العيشة الصحية التي كان يعيشها عرب الجاهلية ، اشعلت ادمغتهم بالذكاء كما ان الحياة البسيطة ، والتقشف ، والبعد عن التعمق ، والاسترسال في الحضارة ، والترف ، صرفت كل قوى ادمغتهم ، للنبوغ في ترصيف الكلام والتخيل

ولما كان من جد وجد ، ولكل مجتهد نصيب ، فانهم بلغوا من الفصاحة والبيان نظما ، ونثرا مبلغاً لم يسبقهم اليه قوم ، حتى ان كلامهم اصبح في ايجازه كالاختزال ، تدل كلمات منه قليلة ، على جمل ومعاني كثيرة .

ولما كانت واجبات المرأة العائلية عندهم بسيطة ، وغير شاغلة كل اوقاتها فانها استسلمت مثل الرجل للتخيل ، وللعناية في انسجام الكلام وترصيفه ، فبلغت درجة سامية بالفصاحة والبلاغة ، حتى الف المؤلفون في بلاغات البليغات من العرب الاسفار ، والكتب

ولكنا جرياً على طريقة الاختصار ، نظمنا جدولا في بعض الشهيرات بالبلاغة . فيه اشارة الى شيء مما روي عنهن . تفكهة وفائدة



سلمى الكنانية زوجة عروة بن الورد	اوردنا في البحث عن الصدق شطرا من كلامها اذ وصفت رجلها الاول مادحة والثاني قادحة ، فاتت بايجاز على احسن وصف تشترك فيه القلوب .
العجفاء بنت علقمة السعدي	الشهيرة بحديثها مع ثلاث نسوة ، في الاجادة بوصف النساء والرجال
عصام	رسولة الحارث بن عمرو ملك كندة ، الى ابنة عوف بن محلم الشيباني وقد صورت له جمال كل عضو في ابنة عوف في بيان وبلاغة يغنيان عن ريشة الرسام .
زوجة عوف بن محلم الشيباني	لما زفت ابنتها الى الحارث بن عمرو ، زودتها بوصية حرية بان تكتب بماء الذهب ، وتحمل في جهاز كل امرأة الى دار بعلها ، حيث تعلق فوق سريرها .
ام زرع ورفيقاتها	حديثهن مشهور نقله البخاري . وقال عنه الالوسي "تكلمت كل واحدة منهن في وصف زوجها بكلام بلغ من فصاحة الالفاظ وبلاغة العبارة والبديع بما لا مزيد عليه ، ولا سيما أم زرع ...

جمعة بنت حابس وهند بنت الخس

وما جمعة ، وهند ، الا فارستا البلاغة ، والخطابة ، فبيدهما زمامهما يجولانهما ويجريان عليهما الى حيث شاءتا . وقد امتحنهما التلمس الكناني في سوق عكاظ ، فسأل كلاً منهما وصف اشياء : منها في الارض ، ومنها في السماء ، فألفاهما في الاجادة سواء

عشمة ابنة مطرود والشعثاء الكاهنة

جاءت الشعثاء مع سبعة إخوة من الازد خاطبةً خوداً الى ابيها مطرود ، فوصفت الشعثاء كل واحد من اخوتها وصفاً بليغاً موجزاً معاً فشاورت خود اختها عشمة ، فجاوبتها « ترى الفتيان كالنخل . ومايدريك ما الدخل ؟ ، اسمعي مني كلمة ، ان شرّ الغريبة يعلن ، وخيرها يدفن انكحي في قومك . ولا تغررك الاجسام »

الزباء بنت علقمة الطائي وامها .

جاء الحارث بن سليل الازدي خاطباً الى علقمه ابنته ، فدار بينها وبين امها في شان الزوج والزواج ، والفتى والكهل حديث ارق من النسيم : فمن ذلك قول الام : ان الفتى يغيرك (يتزوج عليك) وان الشيخ يميرك (يوسعك) وليس الكهل الفاضل ، الكثير الناقل ، كالحديث السن ، الكبير

المن ! » فاجابتها الزباء وابلغ القول اصدقه : «يا اماه . ان الفتاة تحب الفتى ، كحب الرعاء أنيق الكلا .»

بنات ذي الاصبع العدواني

زار ذو الاصبع بناته الاربع ، بعدحول من زواجهن . فسال كلاً منهن عن زوجها . وما لها . فالقادحة ، والمادحة منهن تساوتا في الاجادة والبلاغة والوصف . فمن المادحات قول احداهن في وصف البقر الذي لها «تألف الفناء . وتملأ الاناء . وتودك (تدسم) السقاء . ونساء مع نساء ، ومن القادحات وصف احداهن الضأن «جوف لا يشبعن . وهيم (عطاش) لا ينقعن (لايروين) وصم لايسمعن . وامر مغويتهن يتبعن .

جليلة بنت مرة

كلا قوليها لما فارقت دارها بعدان قتل اخوها جساس زوجها كليبا ولما بلغت دار ابيها ، يبرهن على اقتدارها في استخدام المعانى ، والالفاظ ، قالت وقد اتهمتها اخت كليب بالشماتة ، اذ تركت دار زوجها بعد قتله ، وكيف تشمت الحرة بهتك سترها ، وترقب وترها اسعد الله جد (حظ) اختي افلا قالت نفرة الحياء ، وخوف الاعتداء»

وفي التاريخ عدة من تلك الامثله ، و كثرة من نظيرات تلك النسوة لا يسمح المقام في التوسع بايراد اخبارهن . ففاطمة بنت الخرشب ، وقيلة بنت الحسحاس الاسدية ، وتماضر بنت الشريد ، والرواع النميرية ، كل منهن شهير بالبلاغة ايضاً ، وحديثهن مع النعمان بن امرئ القيس معروف. و كذلك شأن جمانة بنت قيس بن زهير العبسي ، مع جدها الربيع بن زياد واما سجاح المتنبية فقد بلغ من اعتمادها على فصاحتها ان عارضت القران

وليس هذا النبوغ بمستكثر على نسوة قوم فيهم من الاستعداد الفطري ، ومميزاته ، النصيب الاوفى ، واللغة مرآة عقول اصحابها ، ومستودع ادابهم ومعارفهم ، ثم لا مشاحة باجادتهن عند قوم كانت تجارتهم وصناعتهم وزراعتهم الكلام . انما الغرابة فيما لو توجد الركاكة في اقوال من كان هذا شأنهن ، بين امة كانت تسجد تقديساً للفصاحة .



الخطابة : واشتهر من نساء الجاهلية جمهور نبغن في فن الخطابة والتأثير بها . فان ذكر الخطباء فما كان الجنس اللطيف بالمنسي ، و كيف ينسى وفيه مثل هند بنت الخس وهي الزرقاء . وجمعة بنت حابس اللتين كانتا تذهبان الى اسواق العرب : عكاظ وذي المجاز وغيرهما ، واسوة بقس ساعدة وبالقلمس الكناني خطيبي العرب وحكيميهم ، كانتا تعرضان اقوالهما على الناس ، فتتناقله القبائل تناقل القصائد والامثال

قيل لهند : « اي الرجال احب اليك ؟ » قالت « البعيد الامد ، الواسع

البلد ، الذي يوفد ولا يفد » قيل « فأى الرجال ابغض اليك ؟ » قالت «البرم الافاف ، اللزوم اللحاف ، الذي شربه الشفاف ، وشملته التفاف ، ينام حيث يخاف ، ويشبع حيث يضاف » قيل « فاي الاشياء احسن ؟ » قالت « اثر غادية ، في اثر سارية ، في متن رابيــة » قيل فأي العرب اشرف ؟ » قالت « الاعظمون قبابا ، الاهذلون سقابا ، الاسمنون كلابا» قيل « فمن اعظم الناس ؟ » قالت « من كان لي اليه حاجة(١) »

فقد عبرت هند في وصفها كلا الرجلين : المحبوب والمكروه عما في ضمير بنات جنسها خير تعبير ، ولا بــدع في ذلك وهي المعروفة بسحر العقول .هذا واشتهر النساء في الاجادة بالوصف ، ولاسيما وصف الرجال ، وقد سئل الامام علي « كيف لم يصف احد النبي كما وصفته ام معبد ؟ » فقال « لان النساء يصفن الرجال باهوائهن فيجدن في صفاتهن »



الطب : كان يقتصر في المدنيات السابقة ، طلب العلم ، على طبقة خاصة ، تكون بالاكثر من رجال الدين . واما بقية الشعب فكانت تبقى أمية غالباً . وبالنظر للجهل العام ، كانوا يتوهمون بان المتعلمين من رجال الدين والكهان مامون بكل العلوم ؛ كما ويعزون معظم الامراض الى الارواح الخبيثة ، وبالنظر الى هذه الجهالة فان المتعلمين كانوا يحاولون ان يلموا من كل فن بخبر ، ترويجاً لشعوذتهم .

(١) البخارى وكتاب آثار ذوات السوار

ولذلك كان اطباء العالم هم الكهان ، حتى في اثناء التمدن اليوناني العظيم ، واستمر في اوروبا حتى ظهر التمدن الحديث . وعلى هذا المنوال جرى العرب في جاهليتهم كما يدل على ذلك عروة بن حزام :

اقول لعراف اليمامة داوني فانك ان داويتني لطبيب

واسوة بالرجال فقد كان من النساء جمهور من الكاهنات في فترة الجاهلية اشتهر ، منهن طريفة كاهنة ، اليمن وهي اقدمهن واليها ينسبون الانذار بخراب سد مأرب بسيل العرم . والكاهنة زبراء فيما بين الشحر وحضرموت ، وسلمى الهمدانية الحميرية ، وعفيراء الحميرية ، وفاطمة بنت مر الخثعمية بمكة ، وزرقاء اليمامة [1]

على انه فضلاً عن تلكن الكاهنات فقد اشتهر غيرهن كذلك من نساء الجاهلية بالطب . واشهرهن زينب ، طبية بني اود . فكانت فضلاً عن معالجة الابدان تحسن تطبيب العيون وتتقن الجراحة .

هذا ولما كانت اصول الكهانة لا بد لها من علم وذكاء وحذاقة ، وكان للنجاح بها في التمويه على السامعين التأثير الكبير . فمن يدرك سر هذه الصناعة ، وما تحتاج اليه ايضاً من استطلاع الافكار ؛ والاخبار ، قدر الذكاء الطبيعي الذي اشترك فيه نساء الجاهلية مع رجالهن .



التاريخ : ولقد كان التاريخ من جملة العلوم التي اشترك نساء الجاهلية مع رجالهن في الوقوف عليها ، اذ كان التاريخ عندئذٍ عبارة عن

(١) جرجي زيدان اداب اللغة العربية ج١ ص ١٨٨

معرفة اخبار العرب وايامهم واقوالهم مع شيء من اخبار مجملة عن الامم السالفة ، يحصلون عليه بالسماع لا بالقراءة . لانه لم يكن لديهم كتب مدونة .

ولما كان الجنس اللطيف قوي الاستعداد بالفطرة لتسقط وحفظ الاخبار ونقلها ، فلا غرابة في اشتهار بعض العربيات في ذلك ولا سيما لان تاريخهم كان في اشعارهم وهم على شغف في حفظ الشعر .

....

وبالاجمال فانه كان للمرأة الجاهلية نصيب من مدارك الرجال العقلية والادبية ، وذلك لانه لما لم يكن في حياة البداوة ما في الحضارة من الزحام ، والضغط على النفوس ، في سبيل التفوق ، استطاعت العربية الجاهلية ان تجاري الرجل في مداركه ومعارفه اكثر من نساء الحضر .

هذا ولما كانت وظيفة المرأة في الجاهلية على اطلاقها ؛ لم تخرج عن تدبير شؤن العائلة اسوة ببقيـة الامم ، فان مداركها لبثت اكثر انحصاراً في المرأة منها في الرجل ، ولذلك فان المساواة العقلية لم تحصل بينهما بالفعل ، بل كان جهاد الرجل الحيوى الاوسع ، وتنازعهُ فيه ، يوحيان اليه ما اوحيا من تدبير وتفكير وادب ، مما لا يتهيأ لربة البيت . ولا بدع فالحاجة ام الاختراع .

منزلة المرأة في الجاهلية

ان العرب وان نزلوا امصارا تحيط به البحار والرمال ، فتفصله عن بقية العمران حتى اطلق عليه [جزيرة العرب] . بيد انهم مع ذلك لم

يكونوا جاهلين تطور افكار العالم ، لرحلاتهم الشتائية والصيفية ، وتنقل قوافلهم التجارية بين الحبشة وفارس ، شرقاً وغرباً ، وبين الرومان والهند شمالاً وجنوباً ، وناهيك باقتباساتهم الاخبار ، والافكار ، من الوافدين اليهم ، ومن النازلين بينهم : من يهود ، ونصارى ، ومجوس ، ووثنيين . ولذلك ، فأن المدقق في احكامهم ، يرها غير غريبة عن شرائع معاصريهم ؛ ويجدهم من ثمّ ، جارين ايضا مجرى الفكرة العامة في نظرهم الى المرأة .

وليس للجاهلية شريعة وتاريخ مدونين يرجع اليهما ، لمعرفة شأن المرأة فيها او غير ذلك ، من سائر شؤونها ؛ وانما تستقصى اخبارهم وتقاليدهم ، من اشعارهم بحكم قول الشاعر :

يقولون قول المرء يكشف عقله

ويبدي سجاياه وما كان يكتم

وكذلك يرجع ايضاً في معرفة احكامهم الى الشريعة الاسلامية ، استنتاجاً مما اصلحته من سننهم . فلذلك لجأنا الى العلامة امين الفتوى في بيروت : الشيخ هاشم الشريف الخليلي ، فكتب الينا سيادته حسبما ورد في كتب الشرع عن احكام الجاهلية في المسائل الثلاث ، التي هي ام القضية النسائية : (١) النكاح . (٢) الطلاق . (٣) الحجاب . فننشر ما تكرم به حسب التقسيمات المذكورة ، ثم نختم هذا البحث في خلاصة من مطالعاتنا بهذا الموضوع ، وزبدة من ملاحظاتنا بشأن منزلة المرأة في الجاهلية .

....

— انكحة الجاهلية : « كان النكاح في الجاهلية على انحاء : فنكاح منها نكاح الناس اليوم ، يخطب الرجل الى الرجل وليته ، او ابنته ، فيصدقها ويسمي مقدار الصداق ، ثم يعقد عليها . ولقد كانوا يخطبون المرأة الى ابيها او اخيها ، او عمها ، او بعض من بني عمها ، فمنهم من كان يأتي الحي خاطباً فيقال له : (نكْحٌ) اي انكحناك اياها . ومنهم من يقول انعموا صباحا : ثم يقول : نحن اكفاؤكم ونظراؤكم ، فان زوجتمونا ، فقد اصبنا رغبة واصبتمونا ، وكنا نصهركم حامدين ، وان رددتمونا لعلة نعرفها ، رجعنا عاذرين : فان كان قريب القرابة من قومه ، قال له ابوها او اخوها ، اذا حملت اليه : ايسرت واذكرت ولا أثنيت ، جعل الله منك عدداً وعزاً . احسني خلقك واكرمي زوجك ، وليكن طيبك الماء : واذا زُوِّجت في غربة ، قال لها : لا ايسرت ولا اذكرت ، فانك تدنين البعداء ، اوتلدين الاعداء . احسني خلقك . وتحببي الى احمائك ، فان لهم عيناً ناظرة اليك ، واذناً سامعة اليك ، وليكن طيبك الماء » . وكانت قريش وكثير من قبائل العرب على هذا المذهب في النكاح ، فان الله استخص رسوله من اطيب المناكح ، وحماه من دنس الفواحش .

« ومنها نكاح اخر ، يسمى نكاح الاستبضاع ، كان الرجل يقول لامرأته اذا طهرت من حيضها : ارسلي الى فلان فاستبضعي منه : اي اطلبي منه الاجتماع لتحملي منه ، ويعتزلها زوجها ولا يمسها ابدا حتى يتبين حملها من ذلك الرجل الذي تستبضع منه . فاذا تبين حملها اصابها زوجها اذا احب ، وانما يفعل ذلك رغبة في نجابة الولد . يطلبون ذلك من اكابرهم ورؤسائهم في الشجاعة ، او الكرم او غير ذلك .

«ومنها نكاح اخر وليس له اسم معروف وينبغي ان يدعى (نكاح الرهط) كان يجتمع مادون العشرة من الرجال فيدخلون على المرأة، كل يصيبها عن رضا منها، وتواطوء بينهم وبينها، فاذا حملت، ووضعت ومرَّ ليال بعد ان تضع حملها، ارسلت اليهم، فلم يستطع رجل منهم ان يمتنع، حتى يجتمعوا عندها، تقول لهم : قدعرفتم الذي كان من امر كم وقد ولدت، فهو ابنك يافلان، (تسمي من احبت باسمه)، فيلحق به ولدها، لا يستطيع ان يمتنع به الرجل، قيل هذا ان كان ذكرا. والا فلا تفعل ذلك، لما عرف من كراهتهم في البنت، وقد كان منهم من يقتل بنته التي يتحقق انها بنت، فكيف بمن على هذه الصورة ؟

«ومنها نكاح المسمى بالسفاح. والذي ذكرناه قبله نوع منه : كان الناس الكثير يجتمعون فيدخلون على المرأة لا ترديد لامس. وهي من البغايا اللاتي كن ينصبن على ابوابهن الرايات، تكون علماً لمن ارادهن دخل عليهن، فاذا حملت احداهن ووضعت حملها، جمعوا لها ودعوا لهم القافة، ثم الحقوا ولدها بالذي يرون، فالناطقة به. ومن دُعى ابنه لا يمتنع من ذلك. ومن صواحبات الرايات في الجاهلية امرأة يقال لها (ام مهزول) كانت تسافح في الجاهلية فاراد بعض الصحابة ان يتزوجها فنزل النهي عن ذلك بقوله تعالى (والزانية لا ينكحها الا زانٍ او مشركٌ)

« ومنها نكاح الخدن، وهو المشار اليه بقوله تعالى (مُحصنات غير مسافحات ولا متخذات أخدان) قال الشعبي : الزنا ضربان : السفاح وهو الزنا على سبيل الاعلان، واتخاذ الخدن وهو الزنا في السر. والله تعالى حرمهما وأباح التمتع بالمرأة على جهة الاحصان، وهو التزوج. وكانت العرب تقول (ما استتر فلا بأس وما ظهر فهو لوم)

« ومنها نكاح المتعة وهو ترويج المراة الى اجل معلوم: كسنة، او مجهول كقدوم زيد . وسمي بذلك لان الغرض منه مجرد التمتع دون التوالد والتناسل وسائر اغراض النكاح ، فاذا انقضى الاجل وقعت الفرقة، وهذا النكاح مما تداوله الاباحة والتحريم في الاسلام مرتين ، كان حلالا قبل خيبر ، ثم حرم يوم خيبر ، ثم ابيح يوم فتح مكة ، وهو يوم اوطاس لا تصالهما ثم حرمت يومئذ تحريماً موءبدا ، ووقع اجماع العلماء على تحريمها الا الروافض .

« ومنها نكاح البدل : وهو ان يقول الرجل للرجل : انزل لي عن امرأتك ، وأنزل لك عن امرأتى .

« ومنها نكاح الشغار : هو ان يزوج الرجل امرأته ، او موليته ، من اخت وغيرها ، على ان يزوجه الاخر ابنته ، او موليته ، ليس بينهما صداق بل يضع كل منهما صداق الاخرى . وصح ان رسول الله صلى الله عليه وسلم نهى عنه ، فقال « لا شغار في الاسلام » وابطل هذا النكاح الشافعية وصححه الحنفية واوجبوا فيه مهر المثل . وقال الحنابلة : « ان سمي المهر في الشغار صح ، وان سمى لاحدهما ولم يُسمّ للاخرى ، صح نكاح من سمي لها .»

فهذه جملة الانكحة التي في الجاهلية وبعضها في الاسلام .

هذا وقد كاد الرجل في الجاهلية يتزوج من النساء ما شاء . وكان عيلان بن سلمة تحته عشرة نسوة ، حين اسلم فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم « امسك اربعاً وفارق سائرهن » .

......

الطلاق في الجاهلية : « كان الطلاق في الجاهلية جائزاً . وكانوا يطلقون ثلاثاً على التفرقه ، واول من سنّ ذلك لهم اسماعيل ابن ابراهيم عليهما الصلاة والسلام ، ثم فعلت العرب ذلك ، فكان احدهم يطلق زوجة واحدة ، وهو احق الناس بها ، حتى اذا استوفى الثلاث انقطع السبيل عنها . ومنه قول الاعشى حينما تزوج امرأة فرغب بها عنه ، فاتاه قومها فهددوه بالضرب اويطلقها :

ايا جارتي بيني فانك طالقه　　كذاك امور الناس غادٍ وطالقه

قالوا ثانية فقال :

وبيني فان البين خير من العصا　　والا تراني فوق رأسك بارقه

قالوا ثالثة فقال :

وبيني حصان الفرج غير ذميمة　　وموموقة قد كنت فينا ووامقه

هذا وقد ورد ما يدل على انهم كانوا يوقعون الثلاث دفعة بلا تفريق قال الشاعر :

فان ترفقي ياهند فالرفق ايمن　　وان تخرقي ياهند فالخرق اشأم

فانت طلاق ، والطلاق عزيمة　　ثلاث ومن يخرق اعقّ وأظلم

فبيني بها ان كنت غير رفيقة　　ومالامرىء بعد الثلاث مقدم

والظاهر ان الاقتصار على الثلاث ، كان على مذهب العرب الذين تمسكوا بسنة اسماعيل عليه السلام . والا فقد نقل الرازي في تفسيره عنهم مجاوزة هذا العدد مما كان سبباً في نزول قوله تعالى (الطلاق مرتان

فامساك بمعروف او تسريحٌ باحسان) فقال : كان الرجل بالجاهلية يطلق امراته ثم يراجعها قبل ان تنقضي عدتها . ولو طلقها ألف مرة كانت القدرة على المراجعة ثابتة له ، فجاءت امرأة الى عائشة رضي الله عنها فشكت ان زوجها يطلقها ويراجعها يضارها بذلك فذكرت عائشة رضي الله عنها لرسول الله صلى الله عليه وسلم فنزل قوله تعالى (الطلاق مرتان) الخ ..

......

الحجاب في الجاهلية : « المشهور في نساء الجاهليـة عدم الحجاب ، ويؤيده ما صرح به الرازي في سورة الاحزاب عند قوله تعالى « يا ايها النبي قل لازواجك وبناتك ونساء المؤمنين يُدنين عليهن من جلابيبهن ، ذلك ادنى ان يعرفن فلا يؤذينْ ، وكان الله غفوراً رحيما » . فقال : كان في الجاهلية تخرج الحرة والامة مكشوفات ، وما روي من ان النبي صلى الله عليه وسلم ، لمّا قدم مكة في عمرته (*) ، ترين نساء مكة فشكا اصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم طول العزوبة فقال : « استمتعوا به منهن ، وأتوهن اجورهن فريضة » . ومن غير المشهور مـا روي ان بعضهن كن يتحجبن . وذلك مانقله الحلبي في سيرته عن امرأة ابي سفيان قبل اسلامها من انهـا اتته (اي صلى الله عليه وسلم) متنقبة بالابطح وقالت : اني مؤمنة ، اشهد ان لا إله الا الله وانك عبده ورسوله ، ثم

(*) اى في عام الفتح سنة ثمان للهجرة كما في سراج مسلم ح ٥ ص ٣٧١_٤٧٣

كشفت عن نقابها وقالت : انا هند بنت عتبة : فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « مرحباً بك »

هذا ومن عوائدهن الفاشية في الجاهلية لبس الخمار ، فقد كن يتخمرن ، ويسدلن الخمر من ورائهن ، والخمار ما تستر المراة به رأسها ، فامرن في الاسلام بأن يضربن بخمرهن على جيوبهن » اه



كتب الاستاذ امين الفتوى في الزواج ، والطلاق ، والحجاب ، في الجاهلية ، فكفانا موئنة هذا الموضوع ، فله الشكر ؛ بيد اني رأيت ان اذيل ما كتبه عن الحجاب في الجاهلية ببعض ملاحظات لرفع كل نقاب عن وجه هذا البحث . ثم اعود بعد ذلك الى ذكر خلاصة عمومية من ملاحظاتنا في احكام الجاهلية بشأن المرأة .

ان تتبعاتي في التاريخ ، وان بعثتني على الاعتقاد بالقول بوجود الفاشية في الجاهلية ، وهي : لبس الخمار غير انه يترجح لدي ان الاشهر وجود النقاب ، الذي يستر الوجه ، ذلك لانه فضلا عما استدل به سيادته من حادثة هند بنت عتبة ، حيث اثبت على الوجه الضعيف ، وجود الحجاب ، فان اشعار واخبار عرب الجاهلية ، طافحة في تأييد ذلك فلنرجع اولا الى الاشعار ثم الى الاخبار

ليس في الاشعار التي عليها المعول في تاريخهم ما يشير الى وجود النقاب فحسب ، بل فيها ما يبرهن على الحجاب وستر الوجه ، ايضاً ، حتى

لا يدع اشكالا بهذا الشأن . اعتبر ذلك بما جاء صريحاً في شعر ام عمران ابنة وقدان ، من النساء المتحمسات في الجاهلية ، تحرض قومها على اخذ ثار :

ان انتم لم تطلبوا بأخيكم   فذروا السلاح ووحشوا بالابرق
وخذوا المكاحل والمجاسد والبسوا   نقب النساء فبئس رهط المرهق
الهاكم ان تطلبوا باخيكم   اكل الخزير * ولعق اجرد امحق

واذكر ايضاً ما ورد في رثاء المهلهل اخاه كليباً حيث يقول :

كنا نغار على العواتق اذ ترى   بالامس خارجة عن الاوطان
فخرجن حين ثوى كليب حسرا   مستيقنات بعده بهوان
فترى الكواعب كالظباء عواطلا   اذ حان مصرعه من الاكفان
يخمشن من ادم الوجوه جواسرا   من بعده ويعدن بالازمان
متسلبات بكدهن وقد روى   اجوافهن بحرقة ورواني

فاذا لم يكن في هذا كفاية لاثبات عادة ستر الوجوه حينئذٍ ، فما لنا من محيص عن التسليم بوجودها ، بعد تصريح الربيع بن زياد العبسي في رثاء مالك بن زهير حيث يقول :

من كان مسروراً بمقتل مالك   فليأت نسوتنا بوجه نهار
يجد النساء حواسراً يندبنه   يلطمن اوجههن بالاسحار
قد كن يخبئن الوجوه تستراً   فاليوم حين برزن للانظار
يضربن حر وجوههن على فتىً   عف الشمائل طيب الاخبار

فبناءً على ما جاء في اشعارهم تصريحاً ، غير تلميح ، لم يبق لنا مناصاً عن القول في شيوع النقاب ، وستر الوجه ، والحجاب ، على وجه اعم لدى

قبائل عرب الجاهليه ، ان لم يكن كلهم ، فاكثرهم .

هذا وان اخبارهم لتوءيد ايضاً ما اثبتته اشعارهم ، من حيث وجود الحجاب عندهم : اعتبر ذلك فيما جاء بخبر احد شهيري العشاق عبدالله بن علقمة وصاحبته حبيش : فقد روي عن سبب اعتلاقه بها ، انه اضاف اهلها فاجلسوه في متحدث لهم : فخرجت حبيش وعلى وجهها سب اخضر فوقفت تحلب ناقة ، وهو ينظر ، فضرب الهواء السب ، فكشف وجهها ويديها (١) ، ولا يخفى ان عبد الله وحبيبته عاصرا صاحب الرسالة فلم يسلما ، بل كان عبدالله ممن خيرهم المسلمون في اوائل الهجرة بين الاسلام والقتل ، فقتل ولم يسلم .

وفي تاريخ العرب كثير من الحكايات كهذه تشير الى شيوع الحجاب . فاستناداً على هذه الأشعار والاخبار وامثالها ، فضلاً عما في كتب الاسلام مما يوءيد ذلك ، ترجح لدينا ان الاشهر وجود الحجاب عندهم بما يفيد النقاب وستر الوجه . على اننا لا ننكر ان بعض اخبارهم يشير الى السفور ومخالطة الرجال : فنذكر منها على سبيل المثال حادثة عبدالله بن عجلان وصاحبته هند بنت كعب ؛ وذى الرمّة وصاحبته مي ؛ فمن تدبر في وعد أبى عبدالله بن عجلان ولده بان يتربص عن قصد هند ريثما تجمع بينهما سوق عكاظ ؛ وفكّر في دعوة ميّ ذا الرمة الى النزول لاضافتها عن غير سابق معرفة ، وفي اجابة ذى الرمّة دعوتها حسبما رواها الانطاكي ، علم بان الحجاب كان غير عامٍ شامل

فالذي يلوح لنا بعد ذلك ، ان عادة الحجاب ، كانت شائعة ؛ حتى وان لم تكن عامة ؛ وكانت تختلف القبائل في مزاولتها والمحافظة عليها ، كما

(١) الشيخ داوود الانطاكي تزيين الاسواق ص ٨١

تختلف الآن امم الاسلام في ذلك، بحسب التأثيرات عليهن، وحسب المواطن حضرية او بدوية

ولكن على كلا الحالين، فقد كانت المرأة في الجاهلية من المخدرات المعتزلات الرجال، ويتطلب منها الاخلاق التى تحصل عن تاثير مثل هذا الاعتزال : من حياء ودلال وتأنث، بالرغم عن خشونة البداوة. وان من يرجع الى ما جاء في اقوال العرب في وصف النساء، ير أنهم كانوا متفقين على استحسان هذه الاخلاق فيهن : اعتبر ذلك فيما ورد في وصف افضل النساء في حديث العجفاء بنت علقمة، ورفيقاتها، فقد قالت احداهن : «خيرهن ذات الفناء، وطيب الثناء، وشدة الحياء» وكذلك في حديث جمعة وهند بنت الخس، حيث قالت الاولى بوصف المرأة الممتازة «ذات الجمال والبهاء، والستر والحياء الخ[1]»

اجل كانت المرأة تعتزل الرجال، وتنزل في الخباء وبينها وبينهم ستار؛ فاذا ما خرجت لملاحظة انعامها، او لحاجة لبيتها، سارت على عزلة، وحياء مجتنبة مخالطة الرجال. ومما يدلنا على ذلك قول هند بنت معبد بن خالد بن نافلة في رثاء ابن اخيها خالد بن حبيب يوم ماته :

أمسى بواكيك مللن البكا | وشر عهد الناس عهد النسا
فابن حبيب فابكيا خالداً | لجفنةٍ ملأى وزقٍّ روى
وابن حبيب فابكيا خالداً | لطعنةٍ يقصر عنها الأسى
إن تبكيا لا تبكيا هيناً | وما بما مسكما من خفا

(١) محمد علي حامد حشيشو اثار ذوات السوار ص ٢٨

اذتخرج الكاعب من خدرها يومك لا تذكر فيه احيا [*]

هذا ولم يكن الرجال يتعففون عن مراقبة النساء ، فلا يحاولون متى خرجن ، ان يتبعونهن بانظارهم ، بل كانوا يفتخرون بغض النظر عنهن في مثل هذه الحالة ، كما اشار عنترة العبسي حيث قال :

واغض طرفي ان بدت لي جارتي حتى يواري جارتي مأواها

ثم اذا سار الركب تركب نساء القبيلة جملة واحدة ، في مؤخرته اجتناباً للاختلاط .

. . . . . .

ولم يكن للرجل في الجاهلية حد محدود في تعدد الزوجات ؛ وقد يتزوج احدهم امرأة ابيه التي ليست امه بعد طلاقها او موت ابيه [١] . وممن فعل ذلك عمرو بن أميه بن عبد شمس [٢]

وكما كان الزواج عندهم سهلا لكثرة انواعه ، كان الطلاق مثله في السهولة ، ولكن على غير حد ، ولا نظام يكفل حق المرأة ؛ بل كان الرجل يضارها فيه ما شاء [٢]

واذا مات لم يكن لها نصيب بالارث . وكيف ترث وهي تعتبر من جملة متروكات الرجل قد يلقي عليها قريبه ثوبه ، فيمنعها من الناس ، فان كانت جميلة ، تزوجها ، وان كانت ذميمة ، حبسها حتى تموت ، فيرثها؟ وكان اهل يثرب (المدينة) اذا مات الرجل عندهم وله زوجة ، ورثها من

---

(١) زينب فواز الدر المنثور ص ٥٣٩

(١) مصطفى الغلاييني الاسلام روح المدنية ص٢٢٢ ـ ٢٢٤

(٢) زينب فواز الدر المنثور ص ١٧

(٣) الشيخ محمد عبده تفسير المقتبس من دروسه

يرث ماله [١]

وهكذا كانت المراة في احكامهم كأنها شيء من الاشياء ، او كأنها أمة من الاماء ، ولكن تمتاز عن الجوارى ، بان اولادها يلحقون بالاب قولا واحدا ، وأما ابناء الجواري ، فلا يلحقونهم بانسابهم الا نادرا حينما ينجب احدهم ، ويصير الانتساب به فخرا [٢] اعتبر ذلك بعنترة فارس بني عبس ، فان اباه لم يعترف به ، الا بعد ان استكمل مكانته في عمله ، كما يفهم ذلك من قوله :

اني امرؤ من خير عبس منصبا   شطري واحمي سائري بالمنصل

واذا الكتيبة احجمت وتلاحظت   ألفيت خيراً من معم مخول

....

ان المرأة التي تكاد تعتبر كما قدمنا بمصاف الاماء ، او الاشياء ، ليس لها بالطبع منزلة في نظر أمتها .

كلا بل كان العرب ، مثل معظم الامم القديمة ، يتوهمون بانها من المخلوقات التي اعدت خصيصاً لراحة الرجل : وبالنظر لاعتبارها قاصرة فلم يعودوا يثقون بها . فاسمع علقمة الفحل مناظر امريء القيس ، فهو يفصح عن نظر قومه اليها حيث قال :

فان تسألوني بالنساء فانني   بصير بأدواء النساء طبيب

اذا شاب رأس المرء اوقل ماله   فليس له في ودهن نصيب

(١) مصطفى الغلاييني الاسلام روح المدنية ص ٢٢٢

(٢) جرجي زيدان اللغة العربية ج ١ ص ٢٦

يرون ثراء المال حيث علمنه   وشرخ الشباب عندهن عجيب

هذا واننا لنرى سبيلا يبلغ بنا الى معرفة تقيد المرأة في ذلك الزمن، وعدم اطلاق افكارها، وهو: بالبحث في المأثورات عن الشاعرات الشهيرات: فاذا رجعت الى اشعارهن الفيتها كلها تقريباً من نوع الرثاء. فالخنساء اشتهرت برثاء اخويها، وخرنق برثاء اخيها وزوجها، وجليلة برثاء زوجها كليب. وكما يدل انصرافهن الى الرثاء على تغيير العادة لهن فأن منعهن من الغزل مطلقا والفخر الا قليلا وغيرهما، يشير الى تاثير استبداد الرجل حتى جعلها بطبيعتها تتزلف اليه بالرثاء. والعادة طبيعة ثانية

ولمنزلة المرأة الوضيعة كانوا يمتعضون من ولادة البنات، بل كانوا يستترون اذا ولدت لهم بنات حياء من القوم، كأنهم اقترفوا ذنبا، او ارتكبوا عارا، حسبما حكى عنهم القرآن الكريم بقوله «واذا بشر احدهم بالانثى ظل وجهه مسودا وهو كظيم، يتوارى من القوم من سوء ما بشر به، ايمسكه على هون ام يدسه في التراب؟ الا ساء ما يحكمون»

على ان اهل الجاهلية كانوا مثل الامم القديمة ايضاً في تمييز الوالدة واختصاصها بالاكرام: فالمرأة كانت محتقرة حتى تصير أما فيعلو مقامها. ولذلك لم يكونوا يُعزّون بالمرأة بعد موتها الا ان تكون أماً (١) وكان الرجل منهم يفضل امه على امرأته: لان امه في اعتقاده، أبقى له من زوجته. فها كم ما انشده صخر بن عمرو، اخو الخنساء، وهو على فراش المرض الشديد من جرحه، يقابل بين صبر امه، وملل امرأته سليمى، في مداراته مدة حول:

(١) ابن عبد ربه. العقد الفريد ج ٢ ص ٢٦٤

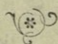
اری ام صخر لا تمل عيادتي　　وملت سليمى مضجعي ومكاني
وأي امريء ساوى بام حليلة　　فلا عاش الا في شقا وهوان [١]

ولا بدع في ذلك لقلة ما كان بين الزوجين من التواثق ، والارتباط الروحي .

غير ان العرب اذا جروا مجرى الامم القديمة على سنة هضم حقوق المرأة ، فربما انهم كانوا من جهة ما تخوله الحياة البدوية ، من الحرية والاستقلال الطبيعي ، اخف وطأة عليها ، بالنسبة لغيرها كما تشير الى ذلك عادة استشارتهم اياها قبل الزواج .

ولا نظن ان اليونانية ، او البوذية ، او الاسرائيلية ، او غيرهن ، كن يجران على الطلب من آبائهن ان لا يزوجن من احد قبل ان يعرض الامر عليهن . كما فعلت هند ابنة عتبة وكما كان يفعل كثيرات امثالها .

على انه يحسن بنا ايضاً التذكير بانهُ وان كانت منزلة المرأة على وجه عام وضيعة في الجاهلية ، غير ان هذا لا يفيد ان عامة النساء كن في مقام سافل : فان تاريخ الجاهلية حافل بالنسوة اللاتي كان لهن مرتبة سامية بين قومهن ، ومنهن فريق كانت له هذه المنزلة بين سائر العرب . ويحسن بنا ان نأتي على سبيل المثال ، على ذكر بعضهن .



صاحبات المنزلة في الجاهلية

ام ندبة الفزارية	زوجة بدر بن حذيفة ، كانت عقيلة قومها ، كريمة بيتها ، مسموعة الكلمة .
تماضر العبسية	زوجة زهير ، ذات كلمة ومجد موروثان ؛ ولها شعر قليل .

(١)　ابن خلكان ج ١ ص ١٣٢

سبيبة ابنة عبد شمس ابن عبد مناف	زوجة مسعود بن مالك ، من ثقيف ، كانت مسموعة الكلمة حتى انه لما كان يوم الفجار الرابع ، ودارت الدائرة على بني قيس ، وانتصر زوجها ، لجأ المهزومون خباها ، فحمتهم ، فقيل لذلك الموضع "مدار قيس" ، وكان يضرب به المثل .
سجاح بنت الحارث بن سويد التميمية	كانت على قدر من المدارك حتى انها استمالت اكابر قومها وغيرهم الى رأيها ، والتسليم بنبوتها ، فقادتهم تريد غزو ابي بكر ، والتغلب على الاسلام ، ففشلت ثم اسلمت وماتت في خلافة معاوية وفيها يقول عطارد بن حاجب : امست نبيتنا أنثى نطوف بها واصبحت انبياء الناس ذكرانا .
امنة ابنة ابان بن كليب	زوجة امية بن عبد شمس ، كانت مسموعة الكلمة مطاعة موصوفة بالشجاعة والمنعة ، وطالما افتخرت بعزها ورجالها وفيها يقول نابغة بني جعدة : وشاركتم قريشاً في تقاها وفي انسابها شرك العنان بما ولدت نساء بني هلال وما ولدت نساء بني ابان

ويمكن اضافة جدول الشهيرات في العقل ، الذي درجناه ، الى جدول صاحبات المنزلة ، اذ من البديهي ان يكون في نفوس العرب مقام واحترام

للآتي كانوا يرجعون اليهن في الرأي ، ولكن يجب ان لا ننسى ان بعض صاحبات المقام ما صعدن الى مرتبتهن الرفيعة ، على مرقاة الاقتدار الشخصي ، بل كان ذلك على سلم نفوذ رجالهن ، ومهما كان مصدر تلك الرفعة ، فان وجود نفر من نساء الجاهلية في درجة حسنة بالهيئة الاجتماعية لا يصح ان يكون دليلا على حسن منزلة المرأة عموما ، بل كان ذلك من قبيل الخاص النادر ، وانما الحكم على العام الشامل .

الجزء السادس

المرأة في الشريعة الاسلامية

— عهد الابوة —

لما كان الاسلام ، قد اثر في تكييف حالة المراة في البلاد التي انتشر فيها ، وفي مقدمتها العربية ، تأثيره في احوال الهيئة الاجتماعية كافة ، ولما كان مفعوله هذا لم يقتصر على ما نتج عنه من الانقلابات السياسية ، بل تناول الانظمة ايضاً ، فلذلك ، رأينا من الفائدة ، قبل الانتقال الي البحث عن تطور احوال المراة في الاسلام ، ان نأتي على توضيح نظر هـذا الدين اليها ، وعلى تبيان تلك الانظمة التي سنها لها ، فكانت الطابع الذي طبعت به طينة اخلاقها

ولما كانت شرائع البشر سلسلة متصلة الحلقات ، وكانت المقابلة بين الاشياء مما يزيدها جلاء رأينا من المفيد ، بعد ان فصلنا في الاجزاء السابقة تطور حال المرأة حتى عهد الدعوة الاسلامية ، ان ناتي علي خلاصة من ذلك في مقدمة هذا الجزء

فقسمنا هذا القسم الى ثلاثة اقسام :

١ - تطور الافكار في الاسلام

٢ - المراة في نظر الاسلام

٣ - الاصلاح الاسلامي في شأن المرأة

وكما انا لا نتعرض جهدنا في بحثنا للانتقاد ولا للتقريظ ، اذ اننا في مقام المؤرخ ، فلا نحاول طاقتنا ان نقلب حقائق الدين واحكامه رغبة في تطبيقها على نظام التمدن الحديث ، كما يفعل كثير من الكتاب

***

- ١ -

تطور الافكار حتى الاسلام

اشترك الرجل والمرأة في معترك هذه الحياة ، وبحسب سنة الكون من سيطرة الاقوى ، واستئثاره ، وغرور القوي بقوته ، تسيطر الرجل على رفيقته في الحياة ، واستبد بمعاملتها ، وجعل نفسه ونفسها ، زيادة على ذلك ، يتوهمان بان كلا من سلطته واستعبادها ، امر طبيعي ديني . وقد افصح عن مثل ذلك القران الكريم بقوله : « ان الانسان ليطغى ان رآه استغنى »

جرت على ذلك الامم منذ وجدت الامم ، حتى لا يستثنى منها امة عرفت ، ولو بالتمدن الواسع ، ولا نظام اشتهر بالعدل والتسامح . فتعدد الزوجات ، والتسري ، والحجاب ، والاجحاف بالحقوق الارثية ، والمدنية كل ذلك شاع عند اكثر الامم القديمة ، سيان منها المتمدنة والمتوحشة . شاع حتى كادت ان تكون عمومية ، شاملة احدى مواد شريعة « مانو » الهندية القائلة (ان المرأة تابعة لوالدها في طفوليتها ، ولزوجها في شبابها ، فاذا مات زوجها ، تبعت ابناءها ، وان لم يكن لها ابناء ، تبعت اقارب زوجها ، لانه يجب ان لا تترك المرأة لنفسها في حال من الاحوال)

وكما ان اليونان والرومان كان كل منهما على مثل تلك الشريعة في معاملة المرأة ، اذ المرجح ان حضارة الهند اصل لحضارتهما ، فان فارس والصين واليابان كانت تنظر ايضاً الى المرأة نظرها الى الرقيقة . ومثلما كان لليوناني الحق ان يهدي امرأته بموجب وصية منه الى اي صديق يختاره .

وبذلك لم يقتصر على التصرف بها في حياته ؛ بل جعلها تحت الوصاية من المهد الى اللحد؛ فكان للفارسي ايضاً التصرف بها كأنها سلعة ؛ وان يحكم عليها بالموت [٢] كانها حيوان أعجم .

وزيادة على ذلك فقد اعتقد بعضهم بانه ليس لها روح خالدة ، وقرر آخرون : انه لا ينبغي ان تعيش بعد زوجها ، وتسامح البعض بجواز تقديمها للضيف تكريماً له .

على ان بعض رجال الاصلاح ، كانوا ينكرون هذا الاجحاف في حقوق المرأة ، فيحاولون تحسين حالتها ، ولكن اصلاحهم كان تدريجياً وتحويرهم بطيئاً ، ذلك لان الانسان (اولا) مهما كان بعيد النظر ؛ سامي المدارك ، فلا مندوحة لنظرته وافكاره عن التقيد بسلسلة الافكار العامة : لان الاستقلال الفكري التام اشبه بالمحال ، (وثانيًا) لان البشر يسيرون في تحوير افكارهم تدريجاً ، فينكرون كل انقلاب فجائي ، لعدم ملائمته لتربيتهم وعاداتهم ؛ ولمضرته ايضاً بحياتهم ، كما اوضح ذلك غوستاف لوبون في كتابه « روح الاجتماع »

فلهذا السبب فأن مصلحي الامم ، ومنهم الانبياء ، لم يحاولوا ان يخلصوا المرأة من سلطة الرجل ، فضلا عن عدم تعرضهم لقضية التسوية التامة في الحقوق ؛ بل تحولوا غالبا للتوصية بها ، ولاصلاح بعض الاحكام في شأنها ، حسب التطور العام

ولقد بينا كيف ان موسى اوصى بالمرأة خيرا ، ونهى عن الشدة في معاملتها ، ثم كيف جاء بعده عيسى ، فقرر وايد وصية موسى ، واتباعه ، فضلا عن منعه تعدد الزوجات ، ودفعه تيار الطلاق ، ثم خلفهما

(١) قاسم امين . تحرير المرأة ص ٢١٣

نبينا العربي ، فبذل ايضاً اهتماماً في اصلاح شأن المرأة، وتحسين معاشرتها، وفي اعطائها كثيرا من الحقوق التي ساوتها بالرجل في بعض المقامات الاجتماعية ، وبلغ من اهتمامه بالتوصية بها ، انه ذكرها في خطبته في حجة الوداع ؛ بل لم ينسها ايضاً في وصيته لاصحابه عند ساعة الموت : فقد لبث يوصي بها حتى تلجلج لسانه

ومن يدقق في منح نبينا النساء من الحقوق المدنية، مالم يبلغه قبله ير ان استعداد الافكار العامة ، وقتئذ بتأثير المتسيطرين الرومان ، وشريعتهم، التي كانت قد صارت الى تحسين حال المراة الاجتماعي ، هو الذي ساعده على قبولهم ما وضعه من الاصلاح

على انا اذا امعنا النظر في مساعي اصحاب الاديان الكبرى اجمالا ، نراها منصرفة نحو الرافة بالمرأة والشفقة عليها ، اسوة بوصيتهم بالاسرى والارقاء، مما يدخل في باب مكارم الاخلاق ، ولكن لم تكن وصاياهم تلك بناءً على ان المرأة نظيرة الرجل، وشريكته في سراء الحياة العامة ، وضرائها ، مساوية له في العالم الاجتماعي .

***

- ٢ -

المرأة في نظر الاسلام

جاء الاسلام ، مصدقاً لما قبله من الرسل ، ونخص منهم بالذكر اصحاب التوراة ، والانجيل ، والزبور ، وعلى حسب تطورات الافكار ومقتضيات الزمان ، وطبيعة الامة ، ادخل في شأن المراة بعض التبديلات ، وكثيرا من الاصلاحات ؛ ولا سيما من حيث الحقوق القضائية ، والاجتماعية .

ولكن الناظر ، خلال تلك الاصلاحات ، الى المرأة في العائلة الاسلامية ، يجدها لا تزال مستمرة على اكثر ما اقرتها عليه الشرائع السالفة :

فالرجل هو السيد ، المتبوع ، نافذ الامر ، والنهي ، المختص بحقوق تعدد الزوجات ، والتسري ، والطلاق . والمراة هي التابعة له ، المحتجبة عن سواه ، المقيدة بارادته ، المعدة لشخصه في الدنيا ، وكذلك في الاخرة .

حقاً ان النبي جعل المرأة راعية على بيت زوجها وولده ، لقوله : « كلكم راع ، وكلكم مسئول عن رعيته : والامير راع على اهل بيته ، والمرأة راعية على بيت زوجها ، وولده ؛ فكلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته »[١]

(١) صحيح البخاري . كتاب النكاح ص ٢١٦

وحقاً جاء في القران « ولهن مثل ما عليهن بالمعروف »

ولكن مع ذلك فقد بسط كلا القولين ، رعاية الرجل على المراة : في الحديث المذكور « الرجل راع على اهل بيته » كما ان في بقية الاية القرانية التى اوردناها تقديمه « وللرجال عليهن درجة » وناهيك بما جاء صراحة عن سيادة الرجل ، وعظم حقه على المرأة في مواضع اخرى :

فقد جاء في « القران الكريم » اطلاق كلمة (السيد) على الزوج حيث قال : « والفيا سيدها لدى الباب »

وكذلك طالما اشار (الحديث الشريف) الى سمو مقام الرجل وحقه على زوجه وواجباتها له . من ذلك قوله « يامعشر النساء ، اتقين الله والتمسن مرضاة ازواجكن : فان المرأة لو تعلم ما حق زوجها ، لم تزل قائمة ما حضر غداؤه وعشاؤه »[١]

وقد قدر مقام الرجل ، وبين حقه على المرأة تمام التقدير والتبيين ما اورده ابن ماجه ، بعد ذكر السند ، عن النبي انه قال : لما قدم معاذ من الشام ، سجد للنبي ، صلى الله عليه وسلم — قال : « ما هذا يامعاذ !؟ » قال اتيت الشام ، فوافقتهم يسجدون لاساقفتهم ، وبطارقتهم ، فوددت في نفسي ، ان نفعل ذلك بك » فقال رسول الله ، صلى الله عليه وسلم : « فلا تفعلوا ، فاني لو كنت آمرا احدا ، ان يسجد لغير الله ، لامرت المراة ان تسجد لزوجها ، والذي نفس محمد بيده ، لا تؤدي المرأة حق ربها حتي تؤدي حق زوجها ، ولو سألها نفسها وهي على قتب لم تمنعه »[٢]

في ذلك اشارة الى مقام الرجل ، العظيم حتى يجعل حقه على امراته

(٢) يوسف النباوي (عن المنذر) الترغيب ج١ ص ٤٠١

(٢) سنن ابن ماجه ج ١ ص ٢٩١

فوق حق صاحب الرسالة على امته . وقد ايد النبي ذلك بالفعل في مناسبة اخرى تشير ايضاً لتقيد المراة بارادة الرجل :

« كان رجل ، قد خرج الى سفر ، وعهد الى امراته ان لا تنزل من العلو الى السفل ، وكان ابوها في الاسفل ، فمرض ، فارسلت المراة الى رسول الله (صلى الله عليه وسلم) تستأذن في النزول الى ابيها ، فقال صلى الله عليه وسلم « اطيعي زوجك » فمات ، فاستأمرته ، فقال « اطيعي زوجك » فدفن ابوها ، فارسل رسول الله صلى الله عليه وسلم اليها يخبرها ان الله قد غفر لابيها ، بطاعتها لزوجها »(١) .

على ان الاسلام لم يقل بارجحية الرجال على النساء ، لمجرد تفضيل الهي فقط ، بل بنى حجته ايضاً على قواعد اجتماعية من حيث ان سيد القوم خادمهم .

وضح ذلك القران بقولة : « الرجال قوامون على النساء ، بما فضل الله بعضهم على بعض ، وبما انفقوا من اموالهم . فالصالحات قانتات حافظات للغيب بما حفظ الله ، واللاتي تخافون نشوزهن ، فعظوهن ، واهجروهن في المضاجع ، واضربوهن ، فان اطعنكم ، فلا تبغوا عليهن سبيلاً ، ان الله كان عليا كبيرا »

. . . . . .

وكما ان الاسلام ، ميز مقام الرجل ، وحض المراة على الطاعة ، والاكرام ، فانه بين قلة ثقته بها ، اسوة ببقية الاديان : فنهى الرجل عن اطاعة هواه ، واعطاء السيادة لها ، كما انه لم يهمل التحذير منها : فقد

(١) الغزالي احياء علوم الدين ج ٢ ص ٣٧

روي عن صاحب الرسالة : « لا يفلح قوم تملكهم امرأة » و « تعس عبد الزوجة » و « شاوروهن وخالفوهن » و « يكفرن العشير وينكرن الاحسان لو احسنت الى احداهن الدهر كله ، ثم رات منك شيئاً ، قالت ما رأيت منك خيرا قط ! » و « استعيذوا بالله من شرار النساء ، وكونوا من خيارهن على حذر » و « اوثق سلاح ابليس النساء »

وقد علق الغزالي على حديث « تعس عبد الزوجة » ما يفيد اعتقاده في تملك المراة صريحا ؛ فقال : وانما قال « الرسول » ذلك ، لانه اذا اطاعها في هواها ، فهو عبدها ، وقد تعس ، فان الله ملكه المراة فملكها نفسه ، فقد عكس الامر ، وقلب القضية واطاع الشيطان ، لما قال : « ولآمرنهم فليغيرن خلق الله » ان حق الرجل ان يكون متبوعاً لا تابعاً وقد سمى الله الرجال قوامين على النساء ، وسمي الزوج سيدا ، فقال تعالى ، « وألفيا سيدها لدى الباب » فاذا انقلب السيد مسخرا ، فقد بدل نعمة الله كفرا[1] »

* * *

١ الغزالى احياء علوم الدين ج ٢ ص ٢٩٢ -

- ٣ -

الاصلاح الاسلامي

— في شأن المراة —

ان الاسلام وان جارى الروح العامة ، في النظر الى المرأة . وسلك سبيل الاصلاح التدريجي ، استنادا على ان الانقلاب الفكري فجأة ضار كل الضرر ، ولكنه مع ذلك اتى على اصلاح غير يسير :

فانه فضلا عن وضعه حدودا ، لتقييد التقاليد ، والسنن العامة ، لموءسسة على الاستئثار في المراة ، مثل : تعدد الزوجات ، والطلاق الشهواني والحجاب ، والوأد ، والمتعة ، والحرمان من الارث ؛ وغير ذلك ، فقد منح المراة ايضاً ، حقوقاً لم تبلغها نساء التمدن الحديث ، الا من امد غير بعيد ، ولا سيما من حيث الحقوق المدنية كالتملك ، والتصرف بالاستقلال ، وناهيك بعمله على تقييد الرجل ، اباً كان او بعلاً.

. . . . . .

ظهر الاسلام في اثناء ما كان العرب يحتقرون المراة ، الى حد ان بعضهم ، كان يرى وأد البنات ، من المكرمات

ظهر حين كان العرب يتمتعون باستخدام المرأة ، وفي الزواج منها

وطلاقها ، ووراثتهم اياها مثل امتعة بعلها ، على غير نظام او حد .

فانكر هذه الفوضية ، واتخذ في سبيل الاصلاح ، وظيفتين :

الاولى — تحوير الاخلاق ، والتقاليد ، بتحبيب النساء الى الرجال والحض على معاملتهن بالمعروف ، والنهي عن ايذائهن

والثانية — وضع احكام ، فيها حدود للمعاملات : من حقوق وواجبات متبادلة ، اصلاحاً للزواج ، والطلاق ، والحجاب ، وغيرها من العلائق الزوجية ، ولحفظ حقوق المرأة المدنية .

فايفاء لهذا الموضوع ، جعلنا الكلام على ثلاثة اقسام :

١ - اصلاح الاسلام في معاشرة المرأة

٢ - اصلاح الاسلام في العلائق الزوجية

٣ - اصلاح الاسلام في حقوق المرأة المدنية

فبذلك ، وبعد ان كشفنا عن نظرة الشرع الاساسية للمراة نكون قد جمعنا بين ما اثبته ، وما اصلحه .

***

اصلاح الاسلام في معاشرة المرأة

ظهر الاسلام بين قوم يقدسون القوة ، والاقوياء . ويحتقرون الضعف والضعفاء . فعز عليه ان يرى الرجل ، وهو صاحب الامر ، يسترسل في التحكم والاستبداد ، في شقيقته في الانسانية . فوقف موقف الآمر الناهي ، واضعاً من الوصايا بهذا الشان ، ما هو حريٌّ بأن يكون قواعد اصلاح لتقاليد الامم القديمة المتمدنة . فضلًا عن العرب .

فبحث الاسلام عن كل دور من ادوار المرأة . من المهد الى اللحد . وجهز الرجل بالتوصيات الجمة بها . سواء كانت طفلة ، او فتاة ، او اختاً او زوجة ، او اماً ، او ايماً ؛ وتبياناً لاصلاحه بهذا الشان ، نقسم الكلام على حسب هذه الادوار .

....

البنت منذ فرق البشر بين الذكر والانثى ، ورجحوا الاول على الاخرى ، صارت قلوبهم تختلف في شعورها ، بما بين ولادة الابناء والبنات ، ولا بدع فالانسان من طبعهِ اكثر رغبة في الراجح منهُ ، في المرجوح

ثم لما توسع في نظرهم الفرق بين الجنسين ، وقدّسوا الرجل القوي ، بقدر ما امتهنوا المراة الضعيفة ازداد استيائهم من ولادة البنات حاسبين استياءهم هذا طبيعياً حتى اثروا بذلك على عقائدهم

اعتبر ذلك فيما اوردناه عن شريعة اسرائيل . وما تقرر عندهم بشأن مدة الطهر بعد الولادة : من حاجة والدة الانثى الى ضعف الوقت الذي تقضيه

أم الذكر ! فليت شعري ما الفرق بين المولود من الجنسين من حيث الطبيعة، حتى يصح ذاك التمييز في تعيين مدة الطهر ؟ - فما هو الا الاستمرار على وهم تقديس القوة، الذي اثر على الاعتقادات، حتى نصب تلك المميزات ..

ولم يكن اليهود وحدهم خاضعين لذلك الوهم ؛ بل لتجدن هذا التأثير يشمل سواهم من الامم القديمة ؛ فان الهنود يعلقون على ولادة الذكور اهمية كبرى ؛ اعتقاداً منهم بانهم المخلصون من النار، بما يثابرون عليه من الصلوات لوالديهم، وتقديم الضحايا عنهم، تلك المهمة التي لا يسوغ للمرأة مزاولتها، فكانوا لذلك متى ولد لهم ذكر، يقومون بمهرجان كبير (1)، واذا بشر احدهم بالانثى ظل وجهه مسوداً وهو كظيم. ومثلهم الصينيون، فلطالما قتلوا طفلاتهم خشية املاق فضلا عن كره جنسهن .

هذا ولم يشذ قدماء الاوروبيين عن ذلك، فقد كانت العادة في اثينة حين ولادة الذكور ان يعلنوا بذلك فرحين، و يعلقوا اكليلاً من الزيتون فوق الباب (2). واما في اسبارطة فكان الاباء، يقتلون سبع بنات من عشرة يولدن لهم (3)

وما كان قدماء الرومان خيرا من اليونان، فكانت العادة عندهم ان لا يعترفوا بالمولود قبل ان يرفعه والده عن الارض عقب

---

(1) Lois de Manou Liv. IX P. 13

(2) Henri Marion, Psycologie de la Femme

(3) E. Le Gouvé Histoire Morale des Femmes P. 15

الولادة (١) . فكم مرة ادار وجهه الروماني الشريف (Patricien) المغرور تكبرا ، وغيظا ، عن طفله الجديد ، فتخلى عنه وما ذلك الا لانه انثى !

ولا يخلو ايضاً تاريخ للاجيال الاوربية الوسطى من امثلة ذلك مع براهين على اعتبارهم ولادة البنات من جملة الاهانات . ويكفي الاشارة الى ما اصاب لويس الحادي عشر ملك فرنسا ، من الغيظ العظيم ، حين ولدت ابنته حنه دو فالوا ، وما فعل (٢)

اما عرب الجاهلية فقد فاقوا سواهم في الكدر من ولادة البنات كما جاء وصفهم في الاية : « واذا بشر احدهم بالانثى ، ظل وجهه مسودا وهو كظيم ، يتوارى من القوم ، من سوء ما بشر به ؛ أيمسكه على هون ام يدسه في التراب ، الا ساء ما يحكمون »

فكبر على الاسلام هذا الامر ، وشدد في النهي عنه ، فجاء بالقران في النهي عن الوأد : « واذا المو‌ءدة سئلت باي ذنب قتلت » وكذلك « ولا تقتلوا اولادكم خشية املاق ؛ نحن نرزقهم ، واياكم : ان قتلهم كان خطأ كبيرا . » كما انه تحبيباً بالبنات ، استمر صاحب الرسالة على التوصية بهن ، ومما روي عنه :

« من كان له ابنة فأدبها فاحسن تأديبها ، وغذاها فاحسن غذاءها ، واسبغ عليها من النعمة التى اسبغ الله عليه ؛ كانت له ميمنة وميسرة من النار الى الجنة »

« لا تكرهوا البنات ، فانهن المونسات المجهزات ، والمربيات ، المبكيات »

(١) Adam Antiquités Romaines L. I P. 76

(٢) Le Gouvé Histoire morale des Femmes P 16

« ما من احد يدرك ابنتين ، فيحسن اليهما ما صحبتاه ، الا دخل الجنة »

« من كانت له ابنتان ، او اختان ، فأحسن اليهما ما صحبتاه ، كنت انا ، وهو ، في الجنة كهاتين »

« من كانت له ثلاث بنات ، او اخوات ، فصبر على لاوائهن وضرائهن ، ادخاله الله الجنة بفضل رحمته اياهن »

هذا وفضلا عن انكار الاسلام كره الامم السالفة للبنات ، والنهي عنه ، فقد كبر عليه ايضاً الحيف الشديد في معاملتهم اياهن ، من مثل تجويز اليهود واليابان وغيرهما بيع بناتهم ، بيع الرقيق ، وتسويغ الصين وقدماء الرومان ، والجرمن ، تأجيرهن لميعاد .

فجبراً لقلوبهن ، ورفعاً لمنزلتهن ، حض النبي على العطف عليهن ، بل على تقديمهن على البنين في مداعبة الاولاد وفي العطايا فقال :

« من خرج الى سوق من اسواق المسلمين ، فاشترى شيئاً فحمله الى بيته ، فخص به الاناث دون الذكور ، نظر الله اليه ، ومن نظر الله اليه لم يعذبه »

« من حمل طرفة من السوق الى عياله ، فكأنما حمل اليهم صدقة حتى يضعها فيهم . وليبدأ بالاناث قبل الذكور ، فانه من فرّح انثى فكانما بكي من خشية الله ، ومن بكى من خشيته حرم الله بدنه على النار »

هذا وفضلا عن ذلك ، فقد روي عن نبينا كثير بشأن اصلاح البنات مما يكاد يجعل القارئ يحسب ان الاسلام يفضلهن على البنين ، ولكن

ذلك لم يكن الا عن حكمة ورغبة في تعديل الافراط العام ، وحباً في التوازن بين معاملة الجنسين .



الزوجة لم تكن الزوجة في نظر الامم القديمة رفيقة الرجل ومكملة له ، بل كانت تابعة له قاصرة من جملة التابعين ، ولكن لها درجة على الرقيقات . ولذلك كان الرجل يستأثر بالسلطة ، سواء عليها او على اعمالها او على املاكها !

غير ان الاسلام اصلح كثيرا من ذلك ، ولا سيما في الاحكام المتعلقة بها ، من تملك وتصرف ، ووراثة ، وشهادة ، وغير ذلك من حيث تعدد الزوجات والطلاق ، كما سنبينه بعد ؛ ولم يهمل ايضا التوصية بمعاملتها معاملة الرأفة والرحمة :

استعبدت الامم القديمة المرأة واستبدت فيها ، حتى لم تعد تأمن شذوذها ، ولذلك تقرر لديهم ان يبسطوا عليها وصاية الرجل طول حياتها فمن سلطة والدها الى سلطة بعلها ، واذا مات زوجها فتصير تحت وصاية ابنها البكر ؛ والا فتحت تصرف اهله .

ولم تستثن مصر الشهيرة في حسن معاملتها المرأة ، من تسليط الرجل عليها ، فلقد شوهد بين نقوش المقابر ، ما يفيد ان اعتبار النساء فيها كان على نسبة تقديسهن الحقوق الزوجية (1) فضلاً عن انه قد ذكر المؤرخون

(1) G. Paturet, Lec, Cit P 37

ان المرأة المصرية منذ حكم « بوخورس » حتى داريوس « الاول » كانت متاعاً للرجل .

واما شريعة البراهمة فانها تكاد تكون اقصى الشرائع على الزوجة ، حتى ذهب (مانو) الى انها لا تتحرر من سلطة زوجها ، لا في بيعها ولا في هجرها »[١]

وقد افرط البراهمة حتى عمد الارامل للّحاق بازواجهن حرقاً بالنار ؛ واذا لم يفعلن ذلك فلم يكن يسلمن من سلطة اهل اولئك الازواج .

وما كان (كنفوشيوس) نبي الصين مخالفاً لمانو نبي الهند في استعباده المرأة : فقد اوصى بوجوب خضوعها لزوجها ، وتقديس اهله الى درجة الافراط ، وبنقل السلطة عليها من زوجها اذا توفى ولم يكن له ابناء ، الى ابويه ، حتى ان لهما ان يزوجاها ممن شاء »[٢]

وكذلك لم يشذ قدماء الغربيين عن امر استعباد المرأة ، بل ان برابرة اوروبا مثلما جعلوها تحت وصاية وليها وهي ابنة ، فقد القوها واملاكها في قبضة بعلها متى تزوجت »[٣]

وبلغ من الجرمن انهم جوزوا للزوج بيعها او تقديمها لضيوفه والتوصية بها لسواه »[٤] .

على انا اذا وجدنا لهم عذراً بما كان عليه هؤلاء البرابرة من الجهالة ، فما عذر اليونان الشهيرة بحضارتها ، وهي تعتبر كذلك الزوجة من مقتنيات

---

(١) Lois de Manou L. IX P 46

(٢) Simon, Nouvelle revue, 1886 P. 406

(٣) C. Letourneau La condidtion de la Femme P. 465

(٤) P. A. Rosler. la question Féministe P. 217

الرجل ، وتجهه السلطة عليها الى حد انها اباحت للزوج ان يوصى لمن يشاء بالسلطة على زوجته بعد موته ، ويقيم من اراد قيماً عليها .

وكذلك يقال عن الرومان الذين كانوا الى عهد الامبراطور «ديوكلتين» [٢٨٤ — ٣٠٥] يجعلونها من المهد الى اللحد في قبضة اليد حسب اصطلاحهم
in Manu

فاذا كان هذا شأن هؤلاء المتمدنين فلا غرابة بعد في امتهان عرب الجاهلية الزوجة ، وظلمهم اياها واستعبادها ، حتى انهم اعتبروها من جملة تراث زوجها

روى البخاري وابو داود انهم كانوا اذا مات الرجل فاولياؤه احق بامرأته ، ان شاء بعضهم تزوجها وان شاؤا زوجوها ، وان شاؤا لم يزوجوها ؛ فهم احق بها من اهلها

وكان اهل يثرب (المدينة) في الجاهلية اذا مات الرجل وله زوجة ورثها من يرث ماله ، وقد يعضلها ويضيق عليها ، ويمنعها من الزواج حتى تفتدي منه بمال . وكذلك كان في تهامة ، يسيء احدهم صحبة المرأة حتى يطلقها ويشترط عليها ان لا تتزوج الا ممن اراد حتى تفتدي منه ببعض ما اعطاها .

وكان بعض اهل الجاهلية يضر المرأة ويضيق عليها لتسقط عنه المهر اذا طلقها (١) ، او يبهتها بفاحشة لتفتدي منه بما اعطاها ، الى ما هنالك من الاساليب المتنوعة في ظلم الجنس اللطيف .

فلما ظهر الإسلام ابطل كل ذلك ، معظماً شأن الزوجات فارضاً لهن مثلما عليهن في الحقوق

(١) مصطفى الغلاييني الاسلام روح المدنية ص ٢٢٢ ـ ٢٢٤

وعدا الاحكام التي سنذكرها ، فانهُ نهى عن تلك التقاليد المجحفة .

فقال في منع وراثتهم النساء بعد ازواجهن « يا ايها الذين آمنوا لا يحل لكم ان ترثوا النساء كرهاً » واورد في النهي عن الطغيان والافتراء عليهن قوله « ولا تعضلوهن لتذهبوا ببعض ما آتيتموهن »

كما انه نبه للخطأ العام في فهم معنى ميزة الرجل عن المرأة ، واوضح انها والرجل من نفس واحدة فقال « يا ايها الناس اتقوا ربكم الذي خلقكم من نفس واحدة ، وخلق منها زوجها وبث منهما رجالاً كثيراً ونساء » وقال « ومن آياته ان خلق لكم من انفسكم ازواجاً لتسكنوا اليها وجعل بينكم مودة ورحمة ، ان في ذلك لآيات لقوم يتفكرون »

وفضلاً عن ذلك فان الشريعة الاسلامية طافحة بالحض على حسن معاشرة الزوجات والرأفة بهن :

فقد جاء في القرآن الكريم « وعاشروهن بالمعروف ، فان كرهتموهن فعسى ان تكرهوا شيئاً ويجعل الله فيه خيراً كثيراً » فضلاً عما هنالك من الاحاديث المتعددة ، كقوله :

« خيركم خيركم لنسائه ، وانا خيركم لنسائي » « اكمل المؤمنين ايماناً احسنهم خلقاً والطفهم باهله » و « ما اكرم النساء الا كريم ، وما اهانهن الا لئيم » و « اتقوا الله في الضعيفين : المرأة والرقيق » و « من صبر على سوء خلق امرأته ، اعطاه الله من الاجر مثلما اعطى ايوب على بلائه . ومن صبرت على سوء خلق زوجها اعطاها الله مثل ثواب آسية امرأة فرعون ،

هذا وقد بلغ من عناية النبي بالزوجة ، ان اوردها في الوصايا الثلاث التي كانت آخر ما اوصى به ، وكان يتكلم بها حتى تلجلج لسانه ، وانقطع كلامه ، وهي : « الصلاة الصلاة ، وما ملكت ايمانكم

لا تكلفوهم ما لا يطيقون ، الله الله في النساء ، فانهن عوان بين ايديكم ، اخذتموهن بامانة الله ، واستحللتم فروجهن بكلمة الله»

هذا وزيادة عما اوردناه من وصايا الاسلام في حسن معاشرة النساء ، فاننا نذكر هنا ما عمل بالفعل من الاحكام في اصلاح حالهن . اعتبر ذلك في تقديمه حقوق الزوجية في الارث على حقوق الوالدين ، وقد بين سبب ذلك الاستاذ السيد محمد رشيد رضا في تفسير المنار عن الامام الشيخ محمد عبده فقال :

« ذلك ان الوالدين ، يكونان عند زواج الولد عريقين في الاستقلال بانفسهما في المعيشة من جهة ، واقل حاجة الى المال من الاولاد وازواجهن اللذين واللواتي في سنهم غالباً ، لانصرام اكثر اعمارهما ، ولأنهما اذا احتاجا الى مال الاولاد ، كان ذلك على مجموع اولادهما .

واما الزوجان فانهما يعيشان مجتمعين ، كل منهما متمم لوجود الآخر ، حتى كأنه نصف ماهيته ، ويكون ذلك بانفصال كل منهما عن والديه لاتصاله بالآخر ، فبهذا كانت حقوق المعيشة بينهما آكد ، ولهذا تقرر في الشريعة ان يكون حق المرأة على الرجل في النفقة هو الحق الاول : فاذا لم يجد الا رغيفين وسد رمقه باحدهما ، وجب عليه ان يجعل الثاني لامرأته ، لا لأحد ابويه ولا لغيرهما من اقاربه . فصلة الزوجين اشد واقوى صلة حيوية اجتماعية . حتى ان صلة البنوة فرع منها ، وان كان حق الاولاد اقوى من جهة اخرى . » اه

وكذلك عمل الاسلام على تحسين حال الزوجة ، اذ رفع عنها (على قول) واجبات الخدمة والنفقة البيتية ، وعناء تربية الاولاد ، وجعل ما تأتيه في هذا السبيل تبرعاً وكرماً منها

سياسة بالغة لتحوير تلك الافكار التي كانت مجبولة على الاعتقاد بان المرأة بمقام الرقيق، لما في ذلك اولاً من تنبيه النساء لتدللهن على ازواجهن بما يفعلنه عادة في بيوتهن، وهو فوق الواجب، وثانيا من تعديل افكار الرجال، وسلوكهم سبيل معاشرتهن بالمعروف، احتفاظاً بسكوتهن على خدمتهن لهم ولعائلتهم:

روي ان رجلاً جاء عمر بن الخطاب يشكو اليه خلق زوجته، فوقف في بابه ينتظر خروجه، فسمع امرأته تستطيل عليه بلسانها، وهو ساكت لا يحر جواباً؛ فانصرف الرجل قائلاً: اذا كان هذا حال امير المؤمنين فكيف حالي؟» فخرج عمر فرآه مولياً، فناداه وقال له «ما حاجتك؟» فقال «يا امير المؤمنين، جئت اشكو اليك خلق زوجتي واستطالتها علي فسمعت زوجتك كذلك، فرجعت وقلت: «اذا كان هذا حال امير المؤمنين مع زوجته فكيف حالي؟» فقال: يا اخي اني احتملها لحقوق لها علي. انها طباخة لطعامي، خبازة لخبزي، غسالة لثيابي، مرضعة لولدي، وليس ذلك بواجب عليها، ويسكن قلبي بها عن الحرام، فانا احتملها لذلك. فقال الرجل «يا امير المؤمنين وكذلك زوجتي، قال: فاحتملها فانها مدة يسيرة (١).

على ان ابا بكر بن ابي شيبة والجوزجاني قالا: عليها ذلك، واحتجا بقضية علي وفاطمة: فان النبي قضى على ابنته بخدمة البيت، وعلى علي بما كان خارجاً من البيت من عمل: رواه الجوزجاني، قال: وقد قال عليه السلام «لو كنت آمراً احداً ان يسجد لاحد لامرت المرأة ان تسجد

(١) ارشاد العباد ص ١٤٤

لزوجها ، ولو ان رجلاً امر امرأته ان تنتقل من جبل اسود الى جبل احمر او من جبل احمر الى جبل اسود ، لكان نولها (اي حقها) ان تفعل ذلك .

ورواه باسناده ، قال : فهذا طاعة فيما لا منفعة فيه ، فكيف بمؤنة معاشه؟ وقال الشيخ تقي الدين « يجب عليها المعروف من مثلها لمثله » وجاء في الانصاف : « والصواب ان يرجع في ذلك الى عرف البلد » .

وبعد فقد يرد بهذه المناسبة قولهم : « اذا لم يكن على الزوجة خدمة بيتها ، وارضاع ولدها ، وتربيته فمن الزم بذلك ؟ »

اعتراض في محله ، ولكن من ينظر الى ان عرب الجاهلية بل كثير من الامم القديمة ، كانوا يرثون نساء الرجل اذا مات ، كجملة الامتعة ، يعلم كم هي الفائدة في ان يقال لهم : انها حتى في الخدمة والتربية تتفضل عليكم اذ تفعل ذلك فوق واجبها :

ولا يخشى من ان يأتي هذا الامر بتأثير سيء ، مع تأثيره الحسن ، من حيث تمسك النساء عن العمل البيتي ، اذ ان ميلهن له ، ولتربية اولادهن ، امر فطري ربما يثرن اذا منعن عنه .

وفي الاجمال فان الاسلام وان جعل الرجل سيد المرأة فهو قد جعل ايضاً الزوجة راعية بيته كما قال صاحب الرسالة : « كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته والامير راع والرجل راع على اهل بيته ، والمرأة راعية على بيت زوجها وولده ، فكلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته »[1] .



(١) صحيح البخاري . كتاب النكاح ص ٢١٦

الام : بينا في الكلام عن عهد الامومة ، وما كانت عليه الام من المنزلة الحسنة ، حينما كانت في ادوار البشر الاولى ، مرجع اولادها الوحيدة ، وكيف استأثر الرجل من ثم بالسلطة عليها ، وعلى العائلة .

غير ان المدقق في احوال الامم على اختلاف ازمانها ير الام على وجه عام احتفظت بشيء من عهد الامومة ، مما بقي لها من المنزلة عند اولادها . ولكن الرجل مع ذلك قاسمها النصيب الاكبر من تلك المنزلة ، بما جعل يتقرر في علومه القديمة بانها وعاء فقط . وانما هو المصدر والاصل ولذلك فان شرائع الهند والصين ، وفارس ، واليونان ، والرومان ، واليهود ، والعرب ، اجمعت على تقدم الاب على الام في توصية الابناء فيها :

فشريعة البراهمة ، وان قالت « احترم اباك وامك » غير انها طالما اضافت الى ذلك ، ان احترام الوالد هو وحده يفتح لك ابواب السماء (١) ومثلها شريعة بوذا ، وكذلك اليونان والرومان ، فانهما وان كانتا تفتحان للمرأة بالامومة باب الخلاص من العبودية ، الا انهما كانتا تقدمان الاب عليها في الاكرام ، والاحترام وهكذا الفرس وعرب الجاهلية فضلاً عن اليهود وقد اوردنا قول موسى حيث قدم الاب على الام .

غير ان الاسلام ، تحسيناً لحال المرأة على الاجمال ، خالف سنة بقية الامم في ذلك . فهو وان حض كثيرا على اكرام الوالدين كليهما ، على السواء ولكنه قدم الام تارة وخصها بالذكر طوراً : فمن ذلك ما ورد انه جاء رجل الى رسول الله صلى الله عليه وسلم . فقال « يا رسول الله ، من احق الناس بحسن صحابتي ؟ » قال : « امك » قال « ثم من ؟ » قال « امك »

(١) Lois de Manou Liv. III

قال «ثم من ؟» قال «امك» قال «ثم من ؟» قال «ابوك»

وقد وصى النبي بالام وقدمها في مواضع كثيرة، كقوله:

«بر امك واباك، واختك واخاك، ثم ادناك، فادناك»

«بر الوالدة على الولد، ضعفان».

«دعوة الوالدة اسرع اجابة، قيل يا رسول الله ولم ذاك؟ قال هي ارحم من الاب، ودعوة الرحم لا تسقط»

على ان الاسلام كما اوصى في البنت، والاخت والزوجة، والام، فلم يهمل الخالة ايضاً: فقد روي انه اتى النبي رجل فقال: «اني اذنبت ذنباً عظيماً، فهل لي من توبة؟ فقال «هل لك ام؟» فقال «لا» قال «فهل لك من خالة؟» قال «نعم» قال «فبرها».

وهكذا فلم يهمل دوراً من الادوار التي تمر فيها المرأة، الا حض على برها فيه، والرأفة بها، وحسبه بذلك اصلاحاً في شؤون صحبتها ومعاملتها.



اصلاح الاسلام بالعلائق الزوجية

ان الاسلام وان اثبت ما كان موجودا من العوائد القديمة التي لها علاقة بالروابط بين الرجل والمراة: مثل تعدد الزوجات، والتسري، والطلاق، والحجاب. الا انه اولا: جعل لذلك عند العرب حدودا كانت مجهولة، فقيدهم بعد ان كانوا مطلقين؛ وثانياً: اثبت للمرأة بين تلك الحدود، حقوقاً حسنت حالها نوعاً

....

الزواج : نظر الاسلام للحياة الدنيا غير نظر النصرانية اليها . فقد اعتبرها ساحة عراك ، وتنازع بقاء ، وان الفوز فيها للاقوى والانسب فكما دعا للاخرة ، لم ينس الدنيا ، فورد عدد من امثالي قوله : « اعمل لدنياك كأنك تعيش ابدا ، واعمل لاخرتك كانك تموت غدا »

وكما نهى عن اعتزال الدنيا بالتقشف ، مظهراً افضلية السعي ، واعالة العيال على مجرد العبادة والاعتزال فجاء بالقران « فانتشروا في الارض وابتغوا من فضل الله » فانه حض على الزواج كثيرا فورد في الحديث : « تناكحوا تناسلوا فاني اباهي بكم الامم يوم القيامة »

ولما كان من مطامح الاسلام الاساسية التغلب والفتح ، تأييد اللدين ، وكان تعدد الزوجات من الوسائل التي تؤدي الى بلوغ تلك المطامح فضلا عن انها تكفل املاء فراغ الرجال تجاه النساء الكثيرات ، في امة حربية كالامة العربية ، رأى الاسلام من مصلحته اثبات عادة التعدد . ولم يلبث التاريخ ان ايد ما كان للسلمين من الفائدة في تعدد الزوجات اعتبر ذلك بقول درابر « اذا كانت الخيانة ادخلت العدو (اي العرب) لاسبانيا ؛ فان تعدد الزوجات هو الذي ايد الفتح [1] »

بيد انه لما كان الاسلام بمقام المصلح الاجتماعي ، فانه جعل اولا للتعدد حدا ، واقام ثانيا لجوازه شروطاً ، واثبت فيه للمرأة حقوقاً ، فالغى بذلك فوضى الجاهلية . فانه لم يكن لتعدد الزوجات عند العرب نظام ولا حد ، حتى ان بعضهم كان له نحو مئه زوجة كما جرى في تاريخ اليهود . فالاسلام ابطل هذا الافراط بالتعدد وجعل له حدا الى اربع

(1) Jw Draper, Histoire du développement intellectuel de l'Europe T. 11 P 109

نسوة مشترطاً امكان العدل بينهن ، فورد في القران، فانكحوا ماطاب لكم من النساء مثنى وثلاث ورباع ، فان خفتم ان لا تعدلوا فواحدة . »
ثم استدرك بمقام اخر عدم امكان العدالة التامة بقوله ، ولن تستطيعوا ان تعدلوا بين النساء ولو حرصتم ، فأمر بالعدل جهد الامكان بين الزوجات بقوله عقيب ذلك « فلا تميلوا كل الميل ، اي الى واحدة منهن فتسيئوا الى سواها .

وقد استنتج بعضهم من هذه الاحكام عدم جواز التعدد لتعليق الاباحة على العدالة ، مع عدم امكان العدل ، ولا غرابة بذلك ، فطالما فسرت اقوال الشرائع حسب روح المدنيات . فكما ان المسيحيين قدروا ان يجدوا في دينهم مايحظر تعدد الزوجات ، وهو لم تعرض لذلك ، فالمسلمون يسهل عليهم ايجاد حكم بمنع التعدد ، مراعاة لروح العالم العامة ، وتطور الحياة ، وترقي النساء .

ذلك لان من قواعد الاسلام « تتبدل الاحكام بتبدل الازمان » و« درء المفاسد اولى من جلب المنافع ، و« المعروف بين الناس كالمشروط بينهم » ففضلا عن اباحة الاسلام للمراة ، ان تشترط على زوجها حين العقد ان لا يتزوج من سواها ، فقد قضى بانه اذا جرت العادة على عدم التعدد ، كانت بمنزلة شرط ، ومنع ، لمن يريد تجاوزها . قال في الاقناع « الشرط بين الناس ما عدوه شرطاً فلو تزوج من قوم لم تجري العادة بالتزوج على نسائهم ، كان بمنزلة شرط ان لا يتزوج على امرأته »

....

الملاحظة

لا يخفى ان الزواج هو بالحقيقة عقد مثل بقية العقود كالشركات والاتفاقات. بل هو اقرب شيء لتعاقد اثنين على شركة اقتصادية متساعدين متضامنين، فيتوزع بينهما العمل على حسب استعداد كل منهما. فكما ان كل عقد شراكة اما للهناء او للشقاء، ولما كان من المعقول والمطلوب وجوب انحلال كل عقد ادى للشقاوة، لان القوانين وضعت لسعادة البشر، وليس لتعاستهم؛ صار من الواجب خضوع عقد الزواج للانحلال، اسوة بغيره، متى امسى يحول دون الهناء.

فلهذا الاعتبار وضع الطلاق مذ وضع الزواج، واثبتته على شروط كل الشرائع ما عدا اكثر الكنائس المسيحية، ولكن المدنية الحديثة لم تلبث ان رأت ضرورة الهيئة الاجتماعية اليه فاوجدته في انظمتها ومنحت المرأة الحق فيه، اسوة بالرجل.

وقد جرى الاسلام مجرى بقية الشرائع في اثبات الطلاق، غير انه نهى عن اتيانه لغير ضرورة، واصلح في نظامه، وشروطه، وخول المرأة حقاً في الرجوع اليه بواسطة القاضي حين الحاجة.

جوزت الشريعة المحمدية الطلاق، مثلما اباحت المحظورات ايضاً، للضرورات والحاجة، ولكن ما كان من الطلاق رغبة التلذذ، فقد ورد النهي عنه، بقول الرسول «ابغض الى الله الطلاق» وقوله «لعن الله الذواقين والذواقات»

وقد قال الامام صاحب بهوبال عن الذواقين الذين ينقادون للشهوة فيعمدون للطلاق — «ولا فرق بينهم وبين الزناة من جهة ما يرجع الى

نفوسهم . وان يميزوا عنهم في اقامة سنة النكاح والموافقة لسنة المدنية »
وقال الغزالي عن الطلاق : « يكون مباحاً ، اذا لم يكن فيه ايذاء بالباطل ، ومهما طلقها فقد آذاها ولا يباح ايذاء الغير الا بجناية من جانبها او ضرورة من جانبه . قال تعالى (فان اطعنكم فلا تبغوا عليهن سبيلاً . »

فلذلك ولما كان الطلاق ليس يؤذي فقط بل قد يؤدي الى شقاء أولاد ، او تعاسة احد الزوجين ، كان محظوراً في الدين اذا لم يترتب على ضرورة . ومع هذا ايضاً قضت الشريعة ، قبل الفراق ان يصير التشبث في الاصلاح بين الزوجين فجاء بالقرآن الكريم « فان خفتم شقاق بينهما ، فابعثوا حكما من اهله وحكماً من اهلها ، ان يريدا اصلاحاً ، يوفق الله بينهما » وكذلك « وان امرأة خافت من بعلها نشوزاً ، او اعراضاً ، فلا جناح عليهما ان يصلحا بينهما صلحاً ، والصلح خير ؛ واحضرت الانفس الشح ، وان تحسنوا او تتقوا فان الله كان بما تعلمون خبيراً »

وزيادة على ذلك بلغ من حرص الشريعة على دوام الرابطة الزوجية ان جوزت بعد الطلاق اعادة عقد الزواج ، وحصرت الطلاق في دفعتين يباح للرجل فيهما ان يراجعها ، قبل ان تنقضي عدتها .

هذا واما ما جعله الاسلام للمرأة من الحقوق في الطلاق وما اصلحه بهذا الشأن فهو : كثير فقد منع ما كان يجريه العرب من مضارة الرجل اياها بالطلاق ، ما شاء ان يضارها كما بينا ذلك ، وصرح القرآن بالنهي عن اخذ شيء من المهر اذا كان الطلاق من الرجل فقال « واذا اردتم استبدال زوج مكان زوج ، وآتيتم احداهن قنطاراً فلا تأخذوا منه شيئاً . اتأخذونه بهتاناً واثماً مبيناً ؟ »

«الطلاق مرتان فامساك بمعروف اوتسريح باحسان ، ولا يحل لكم ان تأخذوا مما آتيتموهن شيئاً الا ان يخافا ان لا يقيما حدود الله، فان خفتم ان لا يقيما حدود الله فلا جناح عليهما فيما افتدت به ، تلك حدود الله ومن يتعدى حدود الله فاولئك هم الظالمون»

وزجر الاسلام ايضاً ، عما كان يفعله العرب ، من عضل النساء ، و ابهاتهن بالفواحش ليفتدين منهم كما قدمنا ؛ فقال « ولا تعضلوهن لتذهبوا ببعض ما آتيتموهن » كما انه نص على النهي في الزواج من امرأة الاب بعد طلاقها ، او وفاته بقوله « ولا تنكحوا ما نكح اباوءكم

---

* قال الاستاذ الامام الشيخ محمد عبده في الاحسان الى المطلقة في تفسير المنار « ان أخذ الرجل شيئاً من مال مطلقته مناف للاحسان . فالامر بالاحسان يستلزمه . وانما صرح به لمزيد رأفته سبحانه بالنساء وتأكيده تحذير الرجال الاقوياء من ظلمهن وهضم حقوقهن . وقد كرر هذا النهي ومنه قوله في سورة النساء « وان اردتم استبدال زوج مكان زوج وآتيتم احداهن قنطارا فلا تأخذوا منه شيئاً » الخ الايتين ، ومحل هذا الحكم اذا كان الزوج هو الذي اختار فراق المرأة ورغب عنها ، واما اذا كانت هي الراغبة عنه الطالبة لفراقه وخيف ان تتوسل اليه بالنشوز وسوء العشرة لكراهتها اياه او لسوء خلقها الا لمضارته لها فلا جناح عليهما حينئذ فيما يأخذه منها لاطلاق سراحها . اذ لا يكلف خسارة امرأة وماله بغير ذنب منه ولذلك قوله تعالى « الا ان يخافا الا يقيما حدود الله » التي حددها للزوجين من حسن المعاشرة والمماثلة في الحقوق مع ولاية الرجل والتعاون على القيام بامر المنزل وتربية الاولاد وعدم المضارة .

من النساء ، الا ما قد سلف : انه كان فاحشة ، ومقتا وساء سبيلا ٠

واما من حيث حق الطلاق نفسه ، فقد اباح الاسلام للمراة ان تشترط بالعقد ، ان يكون لها حق الطلاق اسوة بالرجل ٠ على انها لا تحرم هذا الحق ايضاً ولو اغفلت هذا الشرط ٠ فان لها ان تطلب من زوجها ان يطلقها ٠ ولها ان ترضيه بالمال في سبيل انفكاك العقد ، وان امتنع فتقدم شكايتها للقاضي فيفسخ بينهما ان تحقق ظلامتها ٠



الحجاب

حدث كثيرا ، لبعض الكتبة العصريين ، ان حادوا عن مقررات الدين ، في اثناء محاولتهم التطبيق بينه وبين مستحسنات التمدن الحديث ٠

ومن ذلك ما جرى في قضية الحجاب ، وذهاب بعضهم ، الى انه غير شرعي ٠ اما نحن فلما كنا بمقام المؤرخ ، معولين على تطاب الاصلاح من غير طريقة معارضة الاحكام ، وانما في مجاراة الدين ، من حيث انه قام على اسس انتخاب الاصلح دائما ، وجعل اجماع المسلمين ، قاعدة اساسية ؛ فلذلك فانا نتحرى جهدنا ذكر الاشياء على حقيقتها قدر الامكان ٠

والذى استنتجناه بخصوص الحجاب ، ان الاسلام لم يحول فيه عما كان عند الجاهلية ، قدر ما اصلح من شؤنهم الاخرى ، بل انه اثبته جرياً على سنة معظم الشرائع والمدنيات السابقة فضلا عن العرب ٠

ولما كان الحجاب يقسم الى قسمين :

١ - ما يغير الازار

٢ - ما يغير الخمر

فنجري على حسب هذا التقسيم ، في الكلام عن احكام الاسلام بهذا الموضوع ، ثم نختم البحث في ايراد حكمه بشأن رؤية الخطيبة

....

١ - « قل للمؤمنين يغضوا من ابصارهم ويحفظوا فروجهم ، ذلك اذكى لهم . ان الله خبير بما يصنعون . وقل للمؤمنات يغضضن من ابصارهن ويحفظن فروجهن ولا يبدين زينتهن الا ما ظهر منها ، وليضربن بخمرهن على جيوبهن ، ولا يبدين زينتهن الا لبعولتهن او آبائهن او آباء بعولتهن او ابنائهن او ابناء بعولتهن او اخوانهن او بني اخوانهن او بني اخواتهن او نسائهن او ما ملكت ايمانهن او التابعين غير اولي الاربة من الرجال او الطفل الذين لم يظهروا على عورات النساء ؛ ولا يضربن بارجلهن ليعلم ما يخفين من زينتهن » الى قوله « تفلحون »

٢ - « يا ايها النبي قل لازواجك وبناتك ونساء المؤمنين يدنين عليهن من جلابيبهن »

هاتان هما الآيتان اللتان وردتا بالقرآن الكريم بشأن الستار .

فذهب العلماء مذاهب في تعيين العورة من النساء ، التي امر الاسلام بسترها ، اهمها مسألة ستر الوجه واليدين . فالذين اباحوا سفور الوجه واليدين استندوا بالجملة على الآية الاولى حيث استثنت الزينة الظاهرة فجوزت ابدائها « ولا يبدين زينتهن الا ماظهر منها » ورأوا تأكيداً لمذهبهم فيما روي عن عائشة انها قالت : « ان اسماء بنت ابي بكر

دخلت على رسول الله صلى الله عليه وسلم وعليها ثياب رقاق فقال لها : يا اسماء ان المرأة اذا بلغت المحيض لم يصلح ان يرى منها الا هذا وهذا : واشار الى وجهه وكفيه ».

وممن ايد ذلك شاه ولي الله في كتابه « حجة الله البالغة » حيث يقول : « فرخص فيما يقع به المعرفة من الوجه وفيما يقع به البطش في غالب : الامر وهو اليدان وأوجب ستر ما سوى ذلك »

على ان بعضهم صرح بكشف الزراعين والقدمين ايضاً ، واما الذين انكروا سفور الوجه ، فلهم ايضاً جملة ادلة ومستندات ، منها قول البيضاوي « لا يدنين عليهن من جلابيبهن » اي يغطين وجوههن وابدانهن بملاحفهن ان برزن لحاجة . و(من) للتبعيض . فان المرأة ترخي بعض جلبابها على وجهها وتلتحف ببعض » ومنها ما اورده الخازن عن ابن عباس : « امر الله نساء المؤمنين ان يغطين رؤوسهن ووجوههن بالجلابيب ليعلم انهن حرائر »

تلك هي زبدة براهين كل من اصحاب الحجاب والسفور الدينية وماذا ترى يرجح بينها ماعدا الدين ؟

هو التاريخ : فمن يدقق بعين المؤرخ في مسألة الحجاب في صدر الاسلام ، يثبت لديه ان عادة ستر الوجه كانت موجودة وقتئذ ، ويؤيد ذلك مابيناه من وجود هذه العادة قبل الاسلام وفي الجاهلية . فاذا سلمنا مع القائلين بان نصوص الدين ليس فيها امر بستر الوجه ، فلا يمكننا التسليم معهم بقولهم ان نساء الصحابة كن يخرجن سافرات الوجه ؛ بل ربما كان ستر الوجه مرعياً من قبل الى حد لم يعد ثمة حاجة للحض عليه ، وفيما ذكرناه بعد عن الحجاب في فصل منزلة المرأة العربية بصدر الاسلام ، براهين وامثلة كافية تلخص حكم التاريخ .

على انه سيان ان صح السفور او الحجاب، فمن الثابت ان الاسلام نهى عن التبرج وابداء الزينة للأغيار، كما امر الرجال والنساء معاً بغض الطرف مراعاة لادب كان من جملة مفاخر العرب: ادب افتخر به عنترة حيث يقول:

وأغض طرفي ان بدت لي جارتي حتى يواري جارتي مأواها

هذا واما الحجاب المقصود به منع اختلاط الجنسين، فقد ورد في القرآن بحق نساء النبي اذ قال مخاطباً اياهن والصحابة:

«يا ايها الذين آمنوا لا تدخلوا بيوت النبي الا ان يؤذن لكم. واذا سألتموهن متاعاً فاسألوهن من وراء حجاب، ذلك اطهر لقلوبكم وقلوبهن وما كان لكم ان تؤذوا رسول الله ولا ان تنكحوا من بعده ابداً ان ذلكم كان عند الله عظيما»

«يانساء النبي لستن كاحد من النساء ان اتقيتن فلا تخضعن بالقول فيطمع الذي في قلبه مرض، وقلن قولاً معروفاً، وقرن في بيوتكن، ولا تبرجن تبرج الجاهلية الاولى»

فقد قيل ان هذا الخطاب لما كان خاصاً بنساء الرسول، وكانت اسباب التنزيل خاصة بهن، لا تنطبق على غيرهن، صار الحجاب ليس بغرض، ولا بواجب على احد المسلمين[1] وقال غيرهم انه وان كان الخطاب خاصاً الا ان حكمه عام.

والذي يرجح لدينا ان الاسلام منع الخلوة بين الذكر والانثى غير المحرم، ولكنه لم يحرم اجتماع الجنسين، وخروج النساء لحوائجهن

(١) حسن الاسوه ص ١٢٦

اجل منع الخلوة لما جاء في الحديث «لا يخلون رجل بامرأة الا مع ذي محرم» «لا يخلون رجل بامرأة فان الشيطان ثالثهما» و«لا تلجوا على المغيبات»* واما اجتماع الجنسين في المجالس والاسواق فاذا قلنا بعدم تحريمه فلا نشك بان الاسلام كان يرجح عدم الاختلاط كما يستفاد ذلك من خطاب الكتاب لنساء النبي «وقرن في بيوتكن» الآية. وقد روى في ذلك كثير عن صاحب الشريعة. مثل قوله «باعدوا بين انفاس الرجال والنساء» وقوله «اقرب ما تكون المرأة من وجه ربها اذا كانت في قعر بيتها. وان صلاتها في صحن دارها افضل من صلاتها في المسجد وصلاتها في بيتها افضل من صلاتها في صحن دارها. وصلاتها في مخدعها افضل من صلاتها في بيتها»

على ان النبي وان حبب المرأة بالبيت غير انه مع ذلك لم يمنعها من الخروج لحوائجها وللمساجد ولمجالس العلم الديني او في الاعياد معلقاً ذلك على رضاء زوجها الا بالعلم الديني لحاجتها اليه وذلك فيما اذا لم يفدها زوجها كما سيأتي

وقد روى عن عائشة قالت «خرجت سودة بنت زمعة ليلاً فرآها عمر فعرفها» فقال انك والله يا سودة لا تخفين علينا» فرجعت الى النبي صلى الله عليه وسلم فذكرت ذلك له وهو في حجرتي يتعشى وان في يده لعرقاً» فانزل عليه فرفع عنه وهو يقول قد اذن الله لكن ان تخرجن لحوائجكن[1]

واما مكالمة النساء للرجال فقد جاء عنها في «المنار» الاغر ما يأتي:

* المغيبات جمع مغيبة وهي التي غاب عنها زوجها.

(١) البخاري كتاب النكاح ص ٢٢١

« واما الامر الثالث وهو حكم الشرع في هذه المكالمة، فالمعروف ان الشرع انما حرم الخلوة بالمرأة الاجنبية، واخبار الصدر الاول مستفيضة بمكالمة النساء للرجال وحديثهن معهم في الملأ دون الخلوة، وكفاك ان نساء النبي صلى الله عليه وسلم — وهن اللاتي امرن بالمبالغة في الحجاب — كن يحدثن الرجال، حتى ان السيدة عائشة كانت قائدة عسكر، ومدبرة له في وقعة الجمل المعروفة. وما اخال ان مكابراً يقول انها لم تكن تكلم احداً منهم الا ذا محرم »(١)

وهنا مجال ان نذكر ان النبي وان امر بلزوم الغيرة على النساء الا انه نهى عن الافراط فيها، فمما جاء بذلك قوله « ان من الغيرة غيرة يبغضها الله عز وجل وهي غيرة الرجل على اهله من غير ريبة » فالاعتدال في كل الامور هي بالحقيقة احكام الشرائع والمعقول

.....

واما النظر للخطيبة وانتقاء الخاطب لها بنفسه، فهذا ليس مباحا فقط، بل جاء الامر به، واما العادة بتوكيل نسوة من الاهل، في اختيار العروس، فقد فشت بعد عصر الاسلام الاول. ومع ذلك فان بعض العلماء انتقدها وقتئذ: من ذلك قول الأعمش « كل ترويج يقع على غير نظر فامره هم وغم »(٢)

---

(١) المنار س ح ص

(٢) قاسم امين تحرير المرأه ص١٤٥

ويبرهن على تحبيب الاسلام النظر الى الخطيبة جملة اخبار واحاديث روى المغيرة ابن شعبة انه اراد ان يتزوج امراة وحدث النبي عنها فقال له « اذهب فانظر اليها فانه اجدر ان يوءدم بينكما » (اي ان يوءلف بين قلبيكما) وحدث ايضاً محمد بن سلمة قال « خطبت امرأة فجعلت اتخبألها في نخل لها فقيل له ٠ أتفعل هذا وانت صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ فقال « سمعت رسول الله صلى الله عليهِ وسلم يقول : « اذا القى الله في قلب امرئٍ خطبة امرأة فلا بأس ان ينظر اليها »[1]

وبعد فبالاجمال فان لعلماء الاصول قاعدة جليلة ، تغني عما يلجأ اليه بعضهم من التكلف لتطبيق احكام الدين على روح العصر وهي : المعلول يدور مع العلة وجوداً وعدماً ٠ فعليه اذا كان في شيء صالح الامة ، فيمكن ان يصار اليه عملا في تقديم الاصلح ، ذلك لان غاية الاديان الاصلاح ٠

***

(١) سنن ابن ماجه ج ١ ص ٢٩٤

-٣-

اصلاح الاسلام بحقوق المرأة المدنية

نعم اصلح الاسلام في قضية الحقوق الزوجية ، غير انا اذا قابلنا ذلك فيما فعله بحقوق المراة المدنية فازاء اصلاحاته هذه لا نجد عمله بشان تعدد الزوجات والطلاق والحجاب شيئاً مذكورا .

بل انما الذي امتازت به الشريعة الاسلاميـة من حيث تحسين حال المراة ؛ هو فيما منحته اياها من الحقوق المدنية ، التي حرمها منها كثير من الامم من قبل ، ومن بعد .

ولبيان ذلك على التفصيل ، نجري بالكلام على التقسيم الاتي :

١ المرأة بالحقوق المدنية

٢ المرأة بالواجبات المدنية

٣ المرأة ازاء القانون

ونأتي في كل فصل على خلاصة مما جرت عليه الامم الاخرى في معاملة المرأة بياناً لتطور الافكار بالتاريخ ، وبرهاناً على ما اوردناه .

وفي ذلك تتميم لهذا البحث من كل الوجوه لانه بعد ان تكلمنا فيما قبل عن نفوذ الرجل على شخص المراة ، نتكلم هنا عن سيطرته على اعمالها واملاكها

....

المرأة بالحقوق المدنية

المقصود بالحقوق المدنية ، التملك والتصرف والعلاقة في الشؤون العامة ، وما اشبه ذلك فان حال المراة ازاء هذه الحقوق تطور بالتاريخ مع تطور افكار البشر تطوراً كثيرا حتى بلغ الان مستوى المساواة.

ان الامم القديمة التي جعلت الرجل مالكا شخص المرأة ؛ ليس بمستكثر عليها ان تقول ما كان يقوله برابرة اوروبة «لابنت ازاء الابن !» وان تمد سلطة الرجل ايضاً الى حرمانها من الارث ، والتصرف ، والى التولي على اموالها . ان ملكت ، . ثم الى منعها من الخدمات العامة :

فقد بينا كيف ان الهند البرهمية ، والصين ، والجرمن ، وبرابرة اوروبة ، كانوا يحرمون المرأة من الميراث .

واليونان جرت مجراهم ، فلم تورث البنات الا حينما لا يوجد ذكور [١] وكذلك قضت شريعة اسرائيل والمسيحية ابنتها : فماورد في التوراة من كلام الرب لموسى ، بشان ما طلبه بنات صلفحاد بن حافر و« تكلم بني اسرائيل قائلا ؛ ايما رجل مات ، وليس له ابن ، تنقلون ملكه الى ابنته . [٢] »

غير ان الشريعة الرومانية ، امتازت بهذا الشأن ، اذ جعلت للبنات ، نصيباً مما ترك الوالدون ، اسوة بالبنين :

كان الرومان اصحاب السلطة المطلقة على اولادهم لا يسألون ، في

---

(١) E Legouvé Hre Morale des Femmes P 27

(٢) التوراه سفر العدد اصحاح ٢٧

البداية ، عما يفعلون من حرمانهم غالباً البنات من حق الارث . وبلغ منهم وقتئذ من الاجحاف بحق النساء ، ان شريعة (فوكونيا Voconia) قضت على الاباء الذين ليس لهم ابناء ، بان لا يوصوا للبنت ، الا بشطر من مالهم ؛ ما عدا الطبقة السادسة الفقيرة ، التي كانت بين طبقتي الاحرار والارقاء[1] . وكان الزوجات محرومات ايضاً من الارث ، حتى واذا اوصي لهن فلا يرثن الا قليلاً .

غير ان ارتقاء الرومان العقلي ، تكفل في تحوير افكارهم هذه تدريجاً ؛ الى ان صارت شريعتهم في اواسط الجمهورية* ، تلغي ما يوصى به من حرمان البنات . ثم لم تلبث ان ساوت نهائيا بين الجنسين في الميراث[2] ، في حكم (يوستنيانس) الاول ، (٥٢٧-٥٦٥ق م) بيد ان عرب الجاهلية وان عاصروا الرومان ؛ فانهم لبثوا على سنن البرابرة ، من تخصيص الارث بالرجال الكبار ، دون النساء والاطفال[3] .

فلما ظهر الاسلام ، انكر عليهم هذه العادة ؛ وساوى بين الذكور صغاراً وكباراً ؛ ولاعتباره الرجل رئيس العائلة ومطالباً وحده بالنفقات كافة ، جعل نصيب الذكر من الميراث ضعف نصيب الانثى فورد في القرآن الكريم (يوصيكم الله في اولادكم للرجل مثل حظ الأنثيين) فاشرك بذلك الاسلام النساء مع الرجال في الارث والتملك .

---

(١) Montesquieu Esprit des lois livr. XXX III .P

(٢) Laboulaye Histoire du droit de nuccessen des femmes sect. T, ch 4

(*) اعلنت الجمهورية الرومانية سنة ٥٠٩ والغيت ٣١ ق م

على ان المرأة ، وان نالت حق التملك احياناً لدى الامم في التاريخ فهل كانت مالكة بالفعل ؟ كلا ، بل انه كان من شأن اعتبارهم المراة متاع الرجل ، ان يجعلهم يعتبرونها ايضاً وماملكت يداها ، تابعين لسيدها وذلك منتهى الاستعباد . فقد قال ارنست لوكوفه « ليس من شيء يوضح الانحطاط المعنوي مثل الوصاية المالية

كيف تعاقب الشريعة المبذر ؟ — في منعه من حق التصرف باموالهِ .

كيف تقيد القاصر ؟ — في منعه من حق التصرف باموالهِ .

كيف تتسلط على غير الراشد ؟ — في منعه من حق التصرف باموالهِ .

فالحجر على الاموال ، هو اذاً موت مدني ومعنوي ، لان التصرف والاعطاء ، والمناصرة ، والعمل ، والحياة هي ابنة التملك

فبناء على ذلك فان قضية المقام الاجتماعي مرتبطة ارتباطاً شديداً في مسالة المال . وان اطلاق يد الرجل في ثروة المراة ، هو قضاء عليها ان تبقى قاصرة ابدا ، كما هو عامل على بقائه السيد المطلق على افعالها ، وحتى على نفسها تقريبا [1] »

هذا وفضلا عن الامم السابقة فان التمدن الحديث احتفظ طويلا في سنة تسلط الرجل على اموال الزوجة ، و كسبها ، وفي منعها من التصرف والعقود الا بأذنه . بل هو جعل المراة بالزيجة ، قاصرة اوفر من البنت فالشارع بفرنسا وهي ام المدنية ، جعل القرأن الاشتراكي * **Communauté**

(١) E. Le Gouvé Histoire Morale des Femmes P. 15

* المقصود بالاشتراكى ما كان يدمج املاك الزوجين ويسمونه **Mariage par Communauté** غير انهم جوزوا في العقد ان يشترطوا شروطاً خاصة بين الزوجين

هو الزواج الاصلي ، وبموجب هذا النكاح ، فليس للرجل ان يتولى على كل املاك الزوجين المشتركة فحسب، بل له ايضاً حق الولاية على عقارات المرأة الخاصة (١) وناهيك باملاك البائنة (دوطه) المختصة بالمراة (٢) واما الزوجة فليس لها حتى في اثناء غياب بعلها ، ان تبيع شيئاً من الاملاك المشتركة ، بل ولا ان تتصرف في املاكها الخاصة من غير رضاه (٣) وزيادة على ذلك فليس للزوجة على وجه عام ان تقبل هدية ايضا بغير اذنه (٤) في حين ان له الحق ان يهب ما شاء من الرياش المشتركة في بيتها (٥) فضلا عن اموالها المنقولة الخاصة (٦)

والأغرب من كل ذلك انه ليس للمرأة ان تهب شيئاً من مالها بغير اذن زوجها ، سيان في حال انفصالهما ملكياً ، اوجسدياً (٧).

هذا ومن جملة ميزة الرجل بالتملك والتصرف في قانون فرنسا ، ان ديون الرجل ، وما قد يكون عليه من جزاء ، تكفلها اموال الزوجين المشتركة . واما ديون المرأة فعليها وحدها ؛ الا ان تكون باذن الرجل (٨) . ذلك لانه لا يجوز للمراة الاتجار الا بأذنه ، وإلا فكل عقودها تكون ملغية . أما اذا اذن لها صار مسئولاً عن اعمالها (٩) .

(١) Maria Verona La Femme et la Loi P. 26

(٢) Code Civile Art. 1425, 1427 etc'

(٣) dito 1479

(٤) dito

(٥) dito 4422

(٦) dito 1954 et 505

(٧) Maria Verona, La Femme et la loi p. 21

(٨، ٩) id P. 11,27 et 28

وفي الاجمال، فبموجب قانون فرنسا المعمول به الآن؛ على الزوجة طاعة رجلها، والسكنى معه حيث اراد، واستئذانه في كل عمل، حتى في امر حضورها للمحكمة؛ فيرافقها الا ان تكون متهمة في جناية او مخالفة، فلها حينئذٍ ان تلبي الدعوة بغير اذن منه. ثم ليس لها ايضاً ان تعطي، وتبيع، وترهن، وتشترى، وتاخذ، وتقبل هدية، الا برضاه خطاً.

وعلى هذا النسق كان شان المراة في بقية القوانين الغربية، بيد ان هذا التقييد، كبر على رجال الاصلاح مثل ستويار ميل الانكليزي، و... رتن السويسري، فما برحوا ينتقدونه حتى نجح انصارهم اخيراً بواسطة الحرب العامة، بالتسوية اجمالياً بين الجنسين بالحقوق السياسية والاجتماعية، كما فصلناه بكتابنا التالي عن المرأة.

غير انهم لم يفوزوا حتى الان في التسوية بين الزوجين فعلاً، واصلاح شأن المتزوجة.

على ان الافرنسيين يذكرون مع ذلك بالخير الكلي (مدام شمبل) التي ما انفكت نحو ربع قرن تجاهد في سبيل استقلال الزوجة بكسبها.

فصدر في ١٣ تموز ١٩١٧، قانون يمنح الزوجة التي تعمل عملاً منفرده عن زوجها، ان تتصرف بثمرة اتعابها، وبما تقتصده منها.

ولكن العرب سبقوهم بذلك في اربعة عشر قرناً ونيف: فاعتبروا المرأة على كفائة في الاحوال المدنية: من تملك، وبيع، وشراء، وهبة، ووصية، وشهادة، ووكالة، وايصاء، الى غير ذلك من التصرفات والعقود، بلا اذن من ولي اوزوج. وزيادة على ذلك خولها الاسلام حق الاستقلال في كسبها، وموردها، وبالولاية على اموالها؛ وناهيك في الترخيص لها بالاتجار واتخاذه مهنة حين الحاجة. ومما ورد في جواز مبايعة النساء

قول الرسول لعائشة « اشتري واعتقي[١] » ومما استند عليه علماء الاسلام في اشتراك الجنسين باحكام الشريعة ما عدا ما ورد به الاستثناء كلبس الحرير مثلاً والتحلي بالذهب والفضة للنساء؛ قول الرسول ايضاً « انما النساء شقائق الرجال[٢] ».

.......غ

ومثلما ان التولي على اموال المرأة ، والاستئثار بها دونها ، يشيران الى قدر امتهان حقها ؛ فثم ما يدل هكذا بوضوح ، على اعتبارها كشيء من الاشياء . — تلك هي المساومة على البنات ؛ وتزويجهن من غير استشارتهن !

عادة ما اظلمها وما اضرها ؛ مشت بين البشر ، مذ توسع نطاق السلطة الفردية ؛ فاستعبد الرجل المرأة ، والاب الاولاد ، والقوي الضعيف ، استعباداً فادحاً .

فلقد بينا كيف ان المدنيات الاسيوية ؛ من هندية ، وصينية ، وأشورية ، وفارسية ، ويهودية ، كانت تمنح الاباء تارة : بيع الاولاد ، وطوراً ايجارهم لميعاد . وكيف انها كانت تسمح لهم في تزويج بناتهم على نسق بيع السلع ، واوردنا فضلا عن ذلك عن عادة تزويج البنات في اشور ، ببيع الكاهن اياهن .

---

(١) صحيح البخارى ج ٤ ص ٧

(٢) ابن امير حاج . التقرير والتحبير شرح ابن همام ج ١ ص ٢٤١

وعلى طريقة آسيا هذه جرت الامم الاوروبية القديمة ؛ حتى انه عدا البرابرة وبقية الامم المتوحشة ؛ فـأن دولتي التاريخ : اليونان ، والرومان ، ما كانتا خيراً من سواهما بهذا الامر :

فالأب في اليونان كان مطلق التصرف في زواج ابنته ، من غير ان يكون لها حق ما في معارضته . واما عند الرومان فلم يكـن له ذلك فقط ، بل كان له ان يفصل بين ابنته ، وبين زوجها الذي اختاره بنفسه قبل ؛ ولو كان لها اولاد ، ثم ولو توطد قلباهما على المحبة ! [١]

وتأصل هذا الاستئثار في نفوس الرومان الى حد ان الامبراطور انطوان (١٣٨ — ١٦١ م) الذي كان اول من فكر في اجحافه ، لم يتجرأ على ان يأمر في منعه ، بـل صرح برأيه فيه بطريقة النصيحة ، [٢] حسبما رواه لابولاي .

وجرى المسلمون في معظم الازمنة ، والامكنة ، مجرى الامم القديمة في المساومة على البنات حين خطبتهن من غير ان يرجعوا لرأيهن ؛ وكان ذلك من تراث قديم احتفظ به معتنقو الاسلام . اما الدين الاسلامي فهو يشترط لصحة العقد استشارة البنت في رفيق حياتها . بل هو جعل الايم ايضاً ، اولى بنفسها من وليها . قال صاحب الرسالة : « الايم اولى بنفسها من وليها ، والبكر تستأمر »

. . . . . .

(١) Revue de legislation, Octobre 1845

(٢) E. Le Gouvé, Histoire Morale des Femmes P, 87

* في نفسها . قيل يا رسول الله ان البكر تستحي ان تتكلم، قال أذنها سكوتها . » وفضلاً عن هذا الامر، فان النبي علّم المسلمين بالفعل انه يشترط لصحة الزواج ارتضاء الزوجين : ففسخ عقودا لم تجزها النساء . من ذلك ان خذا ما الانصاري انكح ابنة له ، فكرهت ، فأتت الرسول فرد عليها نكاح ابيها ، وتروجت ابا لبابة بن عبد المنذر .

على انه احتياطاً لما قد يؤدي للشبهات ، اشترط النبي وجود ولي للمرأة في عقد النكاح ، وشاهدين فقال . « لا تروج المرأة المرأة ، ولا المرأة نفسها ، فأن الزانية هي التي تروج نفسها . »

هذا ودقق الاسلام في كفالة حقوق المرأة ، حتى قيل بان الخليفة عمر بن الخطاب ، امر بقصاص رجل اشتكته زوجه بأنه غشها ، أذ أخفى شيبه بالخضاب لما خطبها .

ولا غرو ، فان الزواج هو من قبيل عقود الشركات السائرة ، ينكر فيه الغش ، كما يشترط به تراضي الشريكين أنفسهما ، واستفتاء قلبيهما ، مع عقليهما ، وعقول اهلهما . وما كان العلم الا ليثبت صحة استفتاء القلوب . فهو قد يوحي للانسان عفواً ما لا يدركه بالتفكير

......

وان الامم القديمة التي كانت تساوم على بناتها ، وترث نسائها في جملة الامتعة ، ما كانت بالطبع لتركن الى الجنس اللطيف ، ولا لتثق به ، فتشركه في خدمات الهيئة الاجتماعية ، الا ان يكون احياناً من قبيل وراثة عرش .

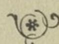
* حدث غلط في وضع العلامة الفاصلة بنهاية الوجه السابق مع ان الحديث متصل بهذا الوجه كما لا يخفى

ولقد استمر هذا الحرمان حتى التمدن الحديث . بل حتى حين من هذا التمدن .

ولكن الاسلام مثلما منح المرأة حق الشهادة فقد جوز لها ان تتولى القضاء والنظارة على الوقف ، والوصاية على اليتيم (١)

وروي ان عمر بن الخطاب ولى امرأة على الاسواق . على أنا لم نر نصاً صريحاً باستثناء المرأة من غير ذلك من الحقوق المدنية ، اللهم الا ان يكون من ولاية السلطنة والامامة الكبرى :

فقد استدل علماء الشرع بحرمان المرأة من الامامة ، والامارة ، مما جاء في الحديث « لن يفلح قوم ولوا امرهم امرأة . » (٢)



المرأة بالواجبات المدنية

الغرم بالغنم : قاعدة شرعية عادلة تقضي بالتوازن بين الحقوق والواجبات ، فكان بموجبها على المرأة واجب ، مثل ما لها من الحق على الهيئة الاجتماعية :

المرأة هي نصف العائلة البشرية المعروفة بالهيئة الاجتماعية ، فلذلك ، فكما عليها التعاون مع رجلها على حفظ كيان عائلتهما ، فعليها مثل ذلك للهيئة الاجتماعية ايضاً : عائلتهما الكبرى .

وفضلاً عن اشتراكها معه في واجب خدمة الانسانية ، وعمل

(١) الدر المختار ورد المحتار ج ٤ ص ٣٩٢

(٢) شرح العزيزي للجامع الصغير ج ٣ ص ١٩٠

المعروف ، كان عليها واجبات تقسم الى قسمين (١) فروض كفاية اذا قام بها فريق من النساء سقط عن الباقي (٢) فروض عين تطالب بها كل واحدة . ومن تلك الفروض ما يختلف باختلاف الازمان :

-- ماذا تتطلب الهيئة الاجتماعية من الجنس اللطيف في هذ العصر ؟

- فلو فرضنا ان الضرورة تستدعي بان يقدم لها مربيات ، وطبيبات وممرضات ، وقابلات فنيات ومعلمات ، وصناعيات مختلفات ، لخدمة بنات جنسهن خاصة ؛ صار على النساء فرض ان يهيئن فريقاً منهن على قدر الحاجة لطلب هذه العلوم والفنون ؛ والا فالكل آثم شرعاً .

- وماذا يتطلب الشرع ، والعائلة من النساء ؟

- يتطلب الشرع من المرأة ان تعرف امور دينها من عقيدة وعبادات ومعاملات ، لتعلم وتعمل بها وتعلمها اولادها .

وتتطلب العائلة من المرأة ان تعرف ادارة المنزل كافة ، وتربية الاولاد .

كل ذلك حسب الاصول المرعية في عصرها كيلا تكون الامة الاسلامية دون سواها ترتيباً في حياتها ، وتربية لاولادها

فما اقتضاه الشرع ، وما استدعته العائلة ، هو فرض عيني ، يجب على كل مسلمة ان تعرفه : فالاسلام الذي لو جوّز السجود لغير الله لامر المرأة به لزوجها ، تراه وقف عند العلم العيني ، وسمح للمرأة ان تخالف بعلها ، وتعصيه اذا منعها من الخروج لطلبه ، بحكم ان لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق : هنا

فلما فسر الشيخ المليباري النشوز استثنى منه عصيان المرأة زوجها

في تعليم امور دينها ، وسائر العلم العيني ، وقال « يحرم عليه منعها عنه ان لم يكن عالماً ، والا علمها وجوباً » (١) ومثله قول الغزالي « فان لم يكن ذلك (اي يستطيع زوجها تعليمها امور دينها او الاستفتاء لها) فلها الخروج للسوأل ، بل عليها ذلك ويعصي الرجل ان منعها » (٢) هذا وفي كتب الاحكام كثير من ذلك كما في الدر المختار (٣) والدر المنتقي (٤) والفتح القدير (٥) وشرح القسطلاني (٦) وغيرها

وما احسن ما اورده الاستاذ صاحب المنار عن الامام الشيخ محمد عبده من هذا القبيل في جملة تفسيره الآية « ولهن مثل الذي عليهن بالمعروف » حيث قال :

« اذا كان الله قد جعل للنساء على الرجال مثل ما لهم عليهن الا ما ميزهم به من الرياسة (اي المحدودة) فالواجب على الرجال بمقتضى كفالة الرياسة ، ان يعلموهن ما يمكنهن من القيام بما يجب عليهن ، ويجعل لهن في النفوس احتراماً ، يعين على القيام بحقوقهن ، ويسهل طريقه . فان الانسان بحكم الطبع يحترم من يراه مؤدباً ، عالماً بما يجب عليه عاملاً به . ولا يسهل عليه ان يمتهنه او يهينه ، واذا بدرت منه بادرة في حقه رجع على نفسه بالائمة ، فكان ذلك زاجراً له عن مثلها .

(١) المليباري . ارشاد العباد الى سبيل الرشاد ص ١٣٩
(٢) الغزالي . احياء علوم الدين ج ٢ ص ٣١
(٣) الدر المختار ورد المحتار ص ٣٩٠ و ٧٢٠
(٤) الدر المنتقي بشرح الملتقى ج ١ ص ٣٧٤
(٥) فتح القدير ج ٢ ص ٥٢٠
(٦) القسطلاني في شرح البخاري ج ٨ ص ١١٩

« خاطب الله تعالى النساء بالايمان ، والمعرفة ، والاعمال الصالحة ، في العبادات ، والمعاملات ، كما خاطب الرجال ، وجعل لهن عليهم ، مثل ما جعله لهم عليهن ، وقَرَنَ اسماءهن باسمائهم ، في آيات كثيرة ، وبايع النبيّ (ص) المؤمنات ، كما بايع المؤمنين ، وامرهن بتعليم الكتاب والحكمة كما امرهم ، واجمعت الامة على ما مضى به الكتاب والسنة ، من انهن مجزيّات على اعمالهن ، في الدنيا والاخرة. افيجوز بعد هذا كله ، ان يحرمن من العلم ، بما عليهن من الواجبات ، والحقوق ، لربهن ولبعولتهن ، ولاولادهن ، ولذى القربى وللامة وللملة ؟

« العلم الاجمالي بما يطلب فعله شرط في توجه النفس اليه . اذ يستحيل ان تتوجه الى المجهول المطلق ، والعلم التفصيلي به المبين لفائدة فعله ، ومضرّة لتركه ، يعد سبباً للعناية بفعله ، والتوقي من اهماله . فكيف يمكن للنساء ان يؤدين تلك الواجبات ، والحقوق مع الجهل بها اجمالاً وتفصيلاً ؟ ، وكيف تسعد في الدنيا ، والآخرة ، امة نصفها كالبهائم لا يؤدي ما يجب عليه لربه ، ولا لنفسه ، ولا للناس ؟ . والنصف الاخر قريب من ذلك لانه لا يؤدي الاّ قليلا مما يجب عليه من ذلك ، ويترك الباقي ؟ . ومنه اعانة ذلك النصف الضعيف على القيام بما يجب عليه او الزامه به بما له عليه من السلطة والرياسة

« ان ما يجب ان تعلمه المرأة من عقائد دينها ، وآدابه ، وعباداته ، محدود . ولكن ما يطلب منها لنظام بيتها وتربية اولادها ، ونحو ذلك ، من امور الدنيا كاحكام المعاملات . — ان كانت في بيت غني ونعمة — يختلف باختلاف الزمان ، والمكان ، والاحوال ؛ كما يختلف بحسب ذلك الواجب على الرجال .

« الا ترى الفقهاء يوجبون على الرجل النفقة ، والسكنى ، والخدمة اللائقة ، بخدمة المرأة ؟ ، الا ترى انّ فروض الكفايات قد اتسعت دائرتها : فبعد ان كان اتخاذ السيوف ، والرماح ، والقسى ، كافياً في الدفاع عن الحوزة ، صار هذا الدفاع ، متوقفاً على المدافع ، والبنادق ، والبوارج ، وعلى علوم كثيرة ، صارت واجبةً اليوم ولم تكن واجبة ولا موجودة بالامس ؟ الم ترَ ان تمريض المرضى ، ومداواة الجرحى ، كان يسيراً على النساء ، في عصر النبي (ص) وعصر الخلفاء ، رضى الله تعالى عنهم ، وقد صار الان متوقفاً على تعلم فنون متعددة ، وتربية خاصة ؟ ايُّ الامرين افضل في نظر الاسلام ؟ اتمريض المرأة لزوجها اذا هو مرض ، ام اتخاذ ممرضة اجنبية تطلع على عورته ، وتكتشف مخبآت بيته ؟ وهل يتيسر للمرأة ان تمرّض زوجها ، او ولدها ، اذا كانت جاهلة بقانون الصحة ، واسماء الادوية ؟ نعم قد تيسر لكثيرات قتل مرضاهن ، بزيادة مقادير الادوية السامة ، او بجعل دواء مكان آخر ! ...

« روى ابن المنذر والحاكم وصححه وغيرهما ، عن عليّ كرّم الله تعالى وجهه انه قال في تفسير قوله تعالى « يا ايها الذين آمنوا قوا انفسكم واهليكم » « ناراً اعلموا انفسكم واهليكم الخير وادبوهم اه »

فترى ان الاسلام لم يعتبر المرأة عضوا مهملا في الهيئة الاجتماعية ؛ بل اعتبرها احد جناحي تلك الهيئة ، والاّ فيخل التوازن ، ومهما صفق الجناح الاخر ، فلا يقوى على حمل اعباء الامة وحده ، فتسقط .

تعرف الفروع بمعرفة الاصول. وعلى ذلك يسهل على المفكر الوصول لمعرفه اختلاف احكام الامم القديمة، في عقوبات الجنسين، بعد معرفة ما خصصن كلا منهما من المرتبة في الهيئة الاجتماعية.

اجل يحكم حالا، ان الرجل كان يتميز عن المرأة في الجزاء، تبعاً لتميزه بالمكافاة. غير ان التمدن الحديث كاد ان يلاشي هذه الميزة بالقانون، ولكن اثار الماضي لا تزال راسخة لدى بعض اركانه من مثل ما في الشريعة الانكليزية؛ انه اذا تعرضت امرأة لرجل عدت جانية، واما الذي يسبب ولادة الطفل وقتله فلا يعد جانياً (١)

على انه وان كان بالامكان ان يقال بوجود مساواة اجمالية، في شرائع اوروبة، بعقوبات الجنسين، ولكن يستثنى من ذلك حكمها في الزنى. اليك القانون الافرنسي، فانه يصرح في عذر الرجل الذي يقتل امرأته، والجاني معها، ان أشرف عليهما وقتئذ؛ ولا يسمح ذلك للمرأة التي تقتل بعلها في ظروف كهذه. كما ان ذلك القانون يميز بين عقاب الزاني والزانية. فيحكم على الزوجة بالسجن، من ثلاثة اشهر الى سنتين، او بجزاء نقدي من الف الى الفي فرنك. واما الزوج فلا يواخذ الا ان يتخذ صاحبة في في بيته(٢).

وقد عزا دوفريير « De Ferrière » سبب الميزة بالعقاب، في هذه الجريمة، الى ان زنى المرأة يؤدي للشك في القرابة بين اولادها،

(١) المقتطف مجلد ٣٩

(٢) Maria Vérone, La femme et la loi P. 42

ويرى اولادها الشرعيون على اثر ذلك، جانباً من ارثهم يصير لسواهم ظلماً، فضلا عن ان جريمة الزوجة تمس شرف زوجها. (٣)

اما الشريعة الاسلامية فكانت احكامها عامة بين الجنسين في سائر القصاص ومتساوية، ولم تفرق بين الجاني ان كان رجلا او امرأة، فلديها (النفس بالنفس) فتقتل قاتل المرأة مثلما تعدم معدمة الرجل، كما انها لم تميز بين المرأة التي تعتدي على الرجل وبين الرجل الذي يعتدي على المرأة.

وخلاصة القول ان الاسلام وان نظر للمرأة نظر بقية الاديان، فجعلها تابعة للرجل، غير مساوية له مساواة مطلقة، وجرى مجرى سائر الشرائع في التوصية بمعاملتها والرفق بها، ولكنه أتى زيادة على ذلك من الاصلاح في حقوق المرأة المدنية ما يقدر له.

هذا وعقب ان انهينا الكلام في المرأة تجاه الدين الاسلامي، سنشرع فيما يلي بتوضيح الادوار التي تمشت عليها في حياتها الجديدة بالتمدن العربي؛ ثم في التمدن الحديث، على غاية من الاختصار؛ مرجئين الاسهاب في هذا البحث، لحلقتين من سلسلة هذا التأليف تظهران بعد هذا الكتاب.

---

(٣) **Fernand Mitton, Les femmes et l'adultère P. 11**

الجزء السابع

المرأة في التمدن العربي

= عهد الأبوة =

تحرك الثورات الاجتماعية طبقات الناس، مثلما تختلط السوائل بقوة التدفع في زجاجة اذا ما انقلبت. ولذلك فان الانقلاب العظيم الذي حدث عقب الدعوة الاسلامية في جزيرة العرب، اشرك، بمساعدة ما كان للمرأة هناك من الاستعداد الفطري، الجنسين في الحركة القومية؛ فكان للمرأة في هذا الاشتراك، وفيما اصلحه الاسلام من حالها، رفعة لها في نظر قومها. ولكن نجم حظها كان قرب الافول، فما عتم ان اختفى في ظهور شمس الاعاجم على الحضارة العربية:

فتح العرب الامصار الشاسعة في مدة وجيزة، فاوصلوا في مملكتهم بين مختلف الامصار، وجمعوا بين متباعد الافكار؛ فكان هذا التواصل والاختلاط للنهضة العربية من قبيل العناصر الاربعة للبذرة، فارتوت وتغذت بهما حتى ترعرعت وحملت من كل زوج بهيج.

ولكن حضارة العرب، وما فيها من الترف والرخاء، وما شابها من افكار الاعاجم وتقاليدهم، اعادت قيوداً كانت المرأة تخلصت منها في صدر الاسلام، فوق قيود اقتبسها العرب من الدخلاء في مدنيتهم.

ولا يخفى ما يفعل التضييق والاستئثار في اضعاف المواهب الفطرية، واسقاط الاخلاق.

كان العصر الاموي عصراً عربياً صرفاً، تتغلب عليه طهارة الاخلاق
ب الجنسين، رغماً عن توفر الثروة فيه توفراً عظيماً، وتدفق اسراب الاماء،
بعاً للفتح واتساعه؛ وما ذلك الا لانصراف الخلفاء، وكافة رجال
لدولة، الى توطيد الملك، وانشغالهم في لذة الفتح. وما عدا يزيد بن عبد الملك،
ابنه الوليد، فقد كان للامويين بالسياسة شاغل عن اللهو

ولكن مع ذلك لم يكن الظن حسناً بالنساء؛ فعمد العرب الى
تضييق في الحجاب عليهن، والحذر منهن كلما ازدادوا حضارة.

اما من حيث العلم، فلما كانت صبغة العصر الاموي دينية عربية،
ازاء ما نشأ فيه من الرجال في العلوم الدينية، واللغوية، فقد قام فيه من
نساء طبقة من الزاهدات، عرفن غالباً بالعلم مع التقوى، وساعد على
جودهن قرب العهد من صاحب الرسالة، وما في فطرة النساء من التدين،
اشهر هذه الطبقة رابعة العدوية «١»

وتلك الطبقة مع جمهور الاماء اللاتي كانوا يعنون باتقان تعليمهن
لاداب: من شعر، ورواية، وموسيقى، كانت تمثل الجنس اللطيف
لمياً في العصر الاموي.

ويوجد عداهما وقتئذ من المتأدبات فريق من نساء البيوتات وجمهور
ن نساء البادية؛ ومن لم يسمع بسكينة ابنة حسين بن علي «٢» التي قال
نها المستشرق الفرنسي بيرون: «سيدة سيدات عصرها، واجملهن وأرقاهن

«١» توفيت رابعة سنة ١٣٥

«٢» توفيت سكينة سنة ١٢٧ ه

واسماهن صفات واخلاقاً .»؟

فمنزل سكينة كان في العصر الاموي كعبة الادباء والعلماء؛ مثلما صارت (صالونات) كل من الآنسة لسبوناس في القرن ١٧ ، والسيدة جيراردن ، ومدام انسلو، في القرن ١٩ .هذا وكما صار كريم ،و كندرست، وتركو ، وسن لابر ،وكانديليان ،وسوارد ، وديدرو ، وهولباغ ، يحجون دائماً الى دار مدموازيل لسبوناس ؛ فكان جرير والفرزدق، و كثير عزة ، وجميل بثينة ، ونصيب زينب ، فضلا عن اشعب، يؤمون نزل سكينة حيث تتناجى الارواح .

وكما كانت سكينة بين اهل الحضر، كانت زينب بنت الطثرية بين اهل الوبر .

العصر العباسي

غير ان نضوج النهضة النسائية لم يحدث على وجه اعم الا في العصر العباسي ؛ولكن على غير الشكل السابق : فان الصبغة الفارسية شرعت من ثم تتغلب على الحضارة العربية ، وبمساعدة ما حصل من الثروة ،والراحة السياسية ، زخر بحر الترف ، واعتزت حيات القصور .

وما ادراك ما حياة القصور ؛ هي جنة الارض ، فيها ما تشتهي الانفس وتلذ الاعين؛ بل هي مملكة الحسن ، عمالها الحسان .

عني بها العباسيون منذ الرشيد ، حتى قيل بان هذا الخليفة اتخذ الفي جارية في قصره ، لكل منهن صنعة ، وفن ، وميزة ، في الادب ، والموسيقى والطرب .

وبالنظر لرغبة الناس، اسوة في ملوكهم، بالجواري، ولا سيما المتأدبات؛ ولما كانوا يبذلونه، تنافساً في شراء النابغات المتفننات منهن، جرياً على ما كان لدى الصين واليونان قبلهم؛ تهيأ قوم من التجار عمدوا الى اعداد الجواري وسائل كسب باتقان تربيتهن وتعليمهن، فنتج عن هذه المزاحمة نشوء طبقة كبيرة من الاماء، بلغت في الاداب والموسيقى، اوفيهما معاً، مبلغاً جسيما. فاذكر عنان، وفضل، وقطر الندى، في الادب. وبذل، وعريب، ودنانير، في الموسيقى. وما المجال بواسع لتعداد مئات من امثالهن، ولا نبذ من اخبارهن؛ وحسبنا ان نقول بان بذل كانت تغني ثلاثين الف صوت، ولها كتاب يجمع اثني عشر الف صوت.

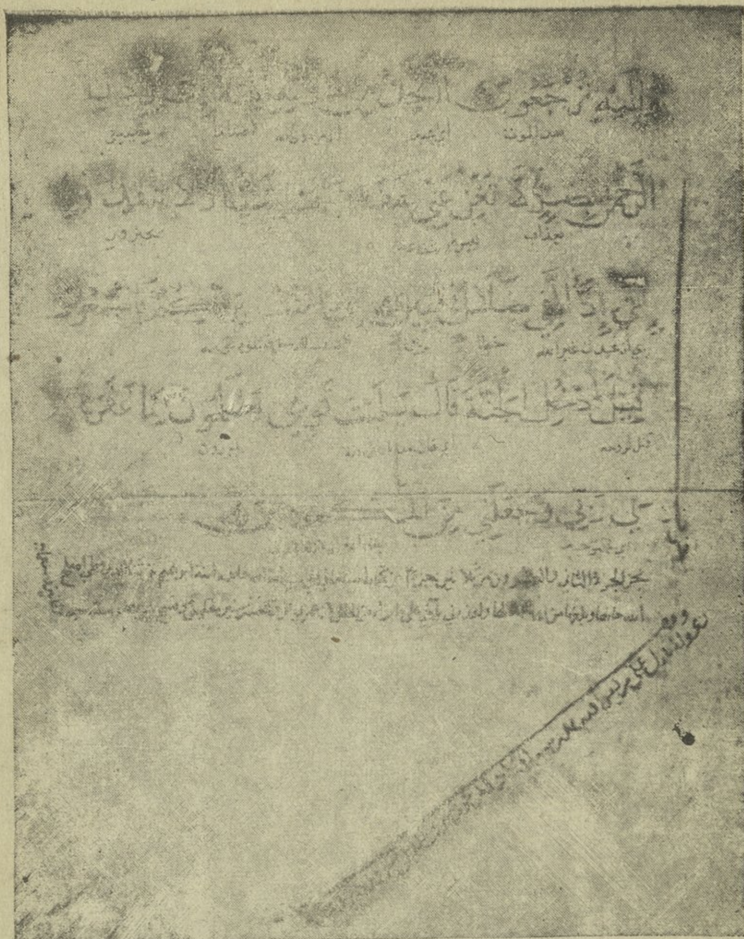
فبأمثال تلكن المتأدبات النابغات من الجواري، افتخر الجنس اللطيف بالعصر العباسي؛ ولكن افتخاره كان اتم في طبقة اخرى من بنات البيوتات، تسربت اليها العدوى الادبية، فما لبثن ان صرن عماد النهضة النسائية. ويحق لذلك العهد ان يباهي منهن بادبية، وفي عالمة، من خيرة نساء الاسلام:

١ – العباسة بنت المهدي (ولدت ١٦٠ توفيت ٢١٠ هـ)

٢ – السيدة نفيسة (،، ،،، ،، ٢٨٨ هـ)

كما يحق له ان يرفع رأسه بموسيقيتين من احسن الموسيقيات؛ وهما: ريطة زوجة الامين، وشعانين امرأة المتوكل

وهكذا فان تقدير الرجال للعلم والادب والفن، في العصر العباسي الاول، حرك الحياة النسائية، نحو ما قدره الجنس القوي، فأصابت منه شطرا جعلها زاهية زاهرة.



رسم صفحة من القرآن الكريم وتفسيره، نسخته ابنة مصرية قروية في القرن الثامن الهجري اتحفنا به الاستاذ احمد باشا زكي السكرتير السابق لمجلس النظار في مصر، وفيه اشارة الى شأن المرأة الادبي في حضارة العرب. وقد خط في اسفل الصفحة مايأتي:

« نجز الجزء الثاني والعشرون من ثلاثين جزءا من كتاب الله تعالى على يد امة الله فاطمة ابنة ابرهيم بن ثنا الديروطي اصلح الله حالها وبلغها من الدنيا آمالها واعذرني يااخي على ما تراه من الخلل اذ عمري فوق العشر سنين بقليل ونسخ بديروط في سنة سبعة وثمانين وسبعماية »

العصر الاعجمي

لما تغلب الترك على العالم الاسلامي وكانوا رجال حرب لم تسكن بهم البلاد ساعة ، اضمحل شأن الادب عند طبقة الجواري ، وصار الناس يذهبون في تقدير اثمانهن الى الجمال فحسب ، بعد ان كان الجمال في العصر العربي في المقام التالي ، بالنسبة للادب او صنعة الموسيقى .

بيد ان سياسة ملوك الاعاجم في استمالة الناس وقتئذ ، قضت بتنشيط طلاب العلم ، وبقوة الاستمرار ، لبثت المدنية العربية على اتم ازدهار ، واستعاض الجنس اللطيف من بعد عن طبقة الاديبات ، من بنات البيوتات ، او الجواري ، في طبقة من العالمات العاملات . فظهر من ثم فريق من النساء ، تضلعن في العلوم حتى عقدن مجالس التعليم ، ومنحن الاجازات : من مثل بنت الشعرى ، وشهدة ، وابنة الخشاب وغيرهن .

ولا شك ان امثال تلكن النابغات ، عملن بالواسطة على رفع منزلة بنات جنسهن

متغلبات النساء

لا جرم ان صعود فريق من النسوة الى المستوى العلمي ، حسن مقامهن مباشرة ، ومنزلة بنات جنسهن بالواسطة . على ان التمدن العربي في الشرق ، ضم نساء تحررن بغير الادب ، وتسيطرن على رجالهن في الهيئة الاجتماعية بما كان لهن من العقول الكبيرة : فاذكر كلاً من ام سلمة امرأة السفاح ، وزبيدة زوج الرشيد ، وخيزران جارية المهدي ، وقطر الندى ام المقتدر ، في الدولة العباسية ، وست الملك في الدولة الفاطمية .

اما حالة النساء في التمدن العربي الأندلسي ، فكانت على الاجمال خيراً منها في الشرق . ذلك لان نضوج التمدن هناك مستقلا عن الفرس ، حفظ لنسائهم حرية اوسع ، ومنزلة ارفع ؛ فكن اكثر حظاً ، واختلاطاً في الهيئة الاجتماعية .

غير ان النهضة النسائية في الاندلس كانت ادبية محضة ، وتمتاز عن نهضة بنات الشرق في ان اركانها غير الجواري . اما وجه الشبه بين النهضتين فهو في اختمارهما بعد ان دالت دول العرب الكبرى ، وصار الامر لملوك الطوائف .

وانا لا نمر من غير ان نورد اسماء بعض شهيرات ذلك العصر . وما ذكر حمدة بنت زياد ؛ وحفصة ابنة حمدون ؛ وحفصة ابنة الحجاج ، في الشعر ؛ ونزهون الغرناطيه ، وولادة بنت المستكفي ، واسماء العامرية ، في الادب ، والعروضية ، وسعدونة في العلم ؛ الا من قبيل المسك يتعطر به الكتاب .

على ان طبقة الجواري وان كانت في التمدن الاندلسي اقل اهمية ، ولكنها ، في ذلك العهد النير ، لم تكن محرومة من الازدهار ، وممن اشتهر منها العبادية ، والعجفاء ، وغاية المنى .

بيد ان دوام الحال من المحال . فما اصاب العرب بالغرب من المحن في اثناء حروبهم المتصلة مع الفرنجة ، فضلا عن انشقاقهم ، وما حاق بهم بالشرق من الحروب الصليبية ، وناهيك بتأثيرات المتغلبين على البلاد ، قضيا على التمدن العربي . فقضي بذلك على ما استمر من استقلال

للمرأة، او عرفان

العصر العثماني

ولما صار الحكم للسلطنة العثمانية، وكان التعصب الديني قد استحكم بين المسلمين والمسيحيين بعد الحروب الصليبية؛ قامت سياستها على قاعدة الفتح، فانصرفت في بداية الدولة الى توسيع نطاقها في بلاد اوروبة الشرقية، ثم لجأت الى الدفاع عما فتحته؛ فقضت حياتها منصرفة بالحروب، بين الفتح والدفاع.

وما انتبهت لتمدين البلاد، بل للاقتباس من اوروبة، الا بعد ضياع الفرص، واستأساد اخصامها.

ولكن العدوى العلمية والمدنية، تسربت لبلادها مع الجالية الاجنبية، فعملت على انقلاب الحالة الاجتماعية، وتقاليدها، طوعاً، اوكرهاً، وكان للجنس اللطيف نصيب من هذا الانقلاب.

وكان الفضل للسلطان محمود المصلح في انشاء المدارس النسائية؛ وبالنظر لمقام تركيا - اوروبة الجغرافي، والسياسي، ووفرة اختلاط العناصر فيها، ولا سيما الجالية الافرنجية، اصبحت النفوس مستعدة استعداداً كبيراً للاصلاح النسائي، فما عني في نشر التعليم الا وتهافت البنات عليه تهافتاً غير يسير، وحصلن منه في زمن قصير نصيباً وافياً.

وقد اشتهر في ذلك بالقرن الثالث عشر (هـ) كل من حبيبة هانم بنت علي باشا الهرسكي، وسرى خانم، وعائشة غصمت، وفاطمة عليا، وفطنت بنت احمد باشا والي طرابزون، وغيرهن.

ولولا سياسة السلطان عبد الحميد الثاني المحافظة، لاستفحل امر

النهضة النسائية ، ولكن مع ذلك كان عهده ، بدافع روح العصر ، عهد تجدد ، فكان في مدارس العاصمة ما يزيد على الفي طالبة ، يتخرج ١٣ منهن سنوياً من دار المعلمات . فضلا عن دور الصنائع الوافرة .

ومجاراة لروح العصر ، وازاء مدارس التبشير ؛ نشطت الحكومة الحميدية ايضاً لفتح المدارس النسائية في سائر مدن المملكة المعروفة ؛ فاصبحت النهضة عامة ، وزادها ظهوراً حكومة الاتحاديين نصيرة المرأة .

وفي اثناء ذلك اصبح جيش المتعلمات لا يكاد يحصى ، ولا يكاد يدفع عن ساحة من ساحات العلوم ، والفنون ، واللغات ؛ وظهر لهن على اثر ذلك كثير من المؤلفات المفيدة

وان سوريا تعرفت في الحرب العامة من تلكن المؤلفات الشهيرات ، في نيكار عثمان ، وخالدة اديب ، وقد قال صديقنا الفاضل طه بك المدور عن ثانيتهما في مقال عن المرأة التركية ، سينشر في كتاب ، قال « وقد احصينا هنا من مؤلفات هذه المرأة العالمة احدى عشر مؤلفاً . » .

هذا وقد جارين ايضاً نساء الغرب في المعترك السياسي ومن لم يسمع في جهادهن في سبيل الدستور ثم في الحرب العامة ؟ وما صوت مندوبتهن السيدة عزيزة كريمة مصطفى بك التبريسي في المؤتمر النسائي ١٩٢٠ بجنيف ببعيد

وهذه خالدة اديب وزيرة المعارف في حكومة الكماليين ، لا تزال تسمعنا صوتها ، وهي تنادي بنات جنسها ، وتقودهن احياناً لمعالجة جرحى الحرب . فحبذا ذكرى عهد الصحابيات .



السلطان مراد الرابع

ولد ١٠١٨ — ١٦٠٩ تولى ١٠٣٢ — ١٦٢٣ توفى ١٠٤٩ ﻫ — ١٦٤٠ م

تسيطر عند حكمه جيش الانكشارية على العثمانية واختل فاختلت تبعاً له

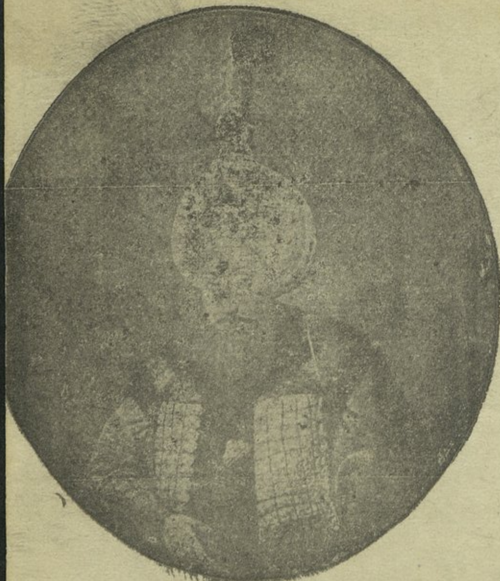


السلطان عبد الحميد الثاني

ولد ١٢٥٨ — ١٨٤٢ تولى ١٢٩٣ ﻫ — ١٨٧٧ م

خلع ١٣٢٧ — ١٩٠٩ توفى ١٣٣٧ ﻫ — ١٩١٨ م

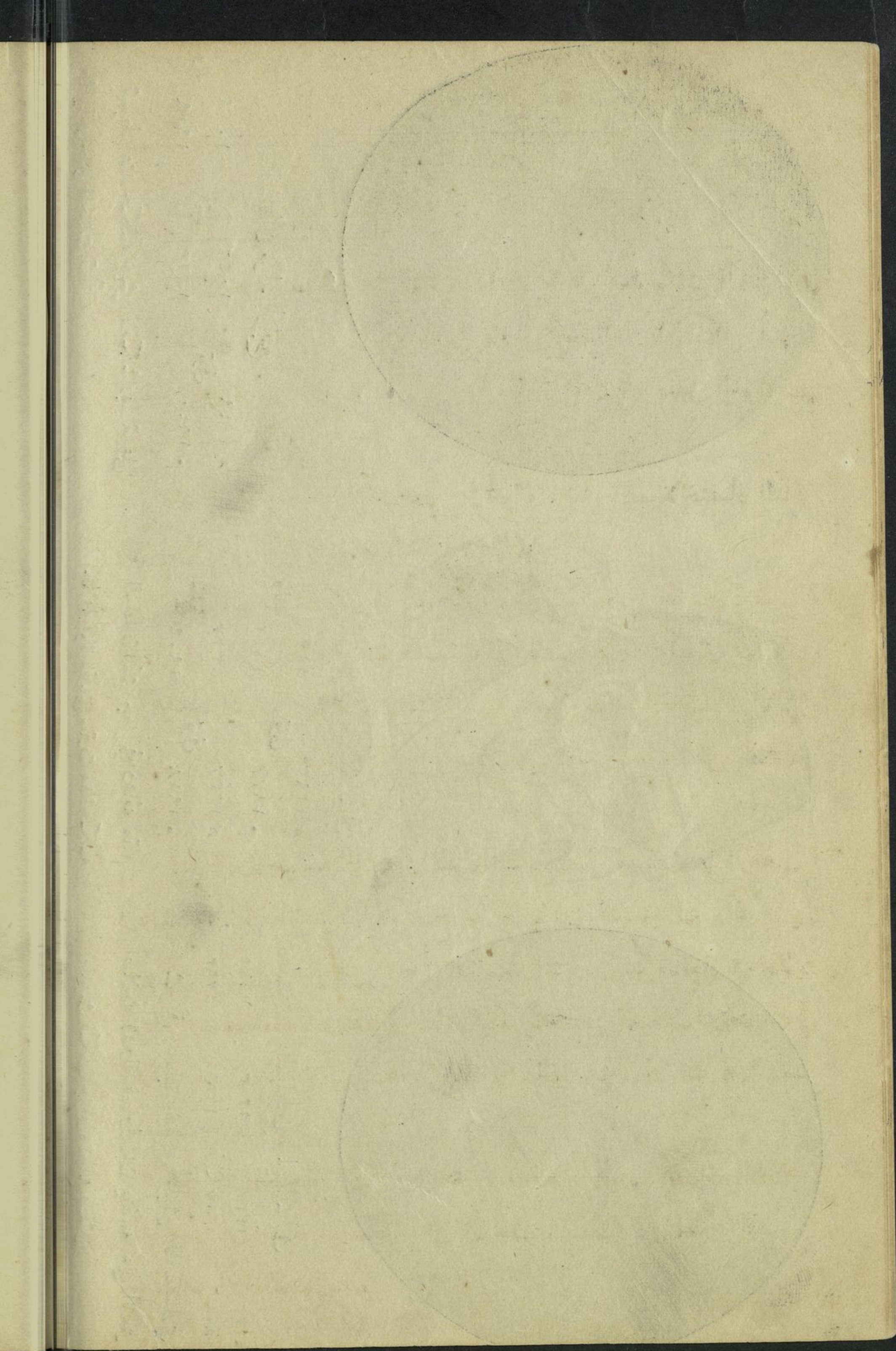
السلطان الذي جعل في دهائه مقام الخلافة قوة عظمى سترت مدة حكمه



السلطان سليم الثالث

ولد ١١٧٥ — ١٧٦٢ تولى ١٢٠٣ — ١٧٨٩ خلع ١٢٢٢ — ١/٠٧ قتل ١٢٢٣ — ١٨٠٨

شعر في وجوب اصلاح الجيش الانكشاري اصلاحاً للدولة فحاول ان ينظمه على النسق الحديث فكان جزاؤه الخلع فالقتل



النهضة العربية الحديثة

ان الامصار العربية واسعة فيأحة، تمتد كما هو معلوم - شرقاً وغرباً - من المحيط الاطلانتيكي، حتى خليج فارس؛ ولذلك كان لكل منها عوامل خاصة على النهضة النسوية، وان اشتركت في بعض العوامل العامة.

فحباً في الاحاطة بهذا الموضوع؛ فمع التزامنا جانب الاختصار التام؛ نلم بكل من تلك العوامل، خاصة، او عامة:

قضى الغرب، والشرق عمرهما بالتحارب، حتى اذا تمت الغلبة للاول في القرن الثامن عشر، بعد تقليم اظفار الاسد العثماني؛ وكانت دعائم هذه المدنية، الاعمال الاقتصادية؛ ابكرت أمم الغرب الى الشرق الادنى، غير مبقيات؛ ولا غرو، فكان في الشرق عدا عن الكنز الدفين؛ حياة فوق القانون.

ولما كانت سياسة الفتح في القرن التاسع عشر، توكأت على الراهب؛ وكانت فكرة (التبشير) قد نضجت؛ لم يلبث الشرق ان رأى بين ضيوفه الغربيين، ثنيا من الرجال، والنساء، يمتازون عن التجار في طلاقة الوجه، وبسط اليد، والتنازل للاختلاط بكل الطبقات؛ وناهيك في نزولهم حيث لا ينزل التجار، بالجبال، والفيافي. اولئك هم اعضاء البعثات الدينية.

ولما كانت صحائف كبار الناس، سودها الدهر بمداده الثابت؛ فقد عمدوا الى مداحلة الصغار ذوي الصحف البيضاء؛ واتخذوا المدارس شباكاً لهم؛ والاحسان طعماً.

غير ان اهل البلاد وان كانوا بذلك بمثابة الطعومة ؛ فقد استفادوا من مزاحمة الغربيين هذه ، استفادة مزدوجة :

استفادوا من حيث كثرة معاهد العلم المتنافسة في اوطانهم ؛ ومن حيث تنبيههم الى دفع سيل اماانيها العرم ؛ بانشاء المدارس الوطنية ، استجماعاً للاولاد خوفاً من شرودهم

ولكن ما كان تخبط الشرق الان في ادوائه الانشقاقية ، الا نتيجة تلك التربية المختلفة اللاوطنية .

.....

نهضة مصر : تقمصت روح التجدد من الخيديوي محمد علي باشا الى الخيديوي اسماعيل باشا* ؛ ولكن كانت مظاهر تلك الروح في كل منهما شيئاً آخر ، تبعاً للحاجة المختلفة :

ظهر محمد علي بمظهر المؤسس الدولي ؛ ثم ظهر اسماعيل بمظهر العمراني ، فخلف كلاهما آثاراً كبيرة ، في جملتها العناية بالتربية والتعليم .

عني محمد علي في تهيئة رجال الدولة ؛ واهتم اسماعيل بتثقيف الامة متمثلا بحكومات الغرب ، ومندفعاً عن تأثير البعثات الدينية ؛ ففتح جملة من المدارس ، منها اربع للاناث . وفضلا عن ذلك فقد اكرم وفادة

---

* تولي اسماعيل باشا سنة { ١٢٧٠ وخلع ١٢٩٣ هـ
١٨٥٣ - ١٨٧٦ م }

اهل العلم والادب ، حتى تكاثروا حوله من كل صوب ، ولا سيما من سورية .

ثم ازدادت الهجرة الى مصر ، عقب الاحتلال الانكليزي سنة ١٣٠٠ هـ = ١٨٨٢ م ، فأدى اختلاط المصريين بضيوفهم زمناً ، الى تطور افكارهم ؛ فشرعوا من ثم يتسامحون تدريجاً بادخال اولادهم الذكور والاناث ، المدارس الاجنبية ؛ فضلاً عن اقبالهم على البعثات العلمية لاوروبا .

ومنذ ذلك بدأ يسمع في مصر صرير اقلام الجنس اللطيف ؛ ولكنها كانت اقلام سوريات ، اينعتها تربة مصر الخصبة . وكأن الثورة الاجتماعية التي كانت تتسرب الى النسوة ، كانت تجعل المتأدبات ؛ وهن بمقام المربي ، يهتممن في تخفيف حدتها ؛ فلذلك طالما اسمعننا وقتئذٍ نغمات تقرير حقوق الرجل ؛ فأطربنه . ولكنهن لم يلبثن ان تطرقن للبحث في مواضيع راقية ، وما عهد ابحاث السيدة ياقوت ، زوجة الدكتور صروف ، في المقتطف ، ببعيد .

وفي سنة ١٣١٠ هـ = ١٨٩٢ ظهرت اول مجلة لفتاة ، وهي : (مجلة الفتاة ،) لهند نوفل ، السورية . وتلاها جملة كان اكثرها للسوريات ايضاً : نذكر منها مجلة فتاة الشرق ، للكاتبة الناضجة ، السيدة لبيبه هاشم .

وفي اثناء هذا التلاطم الفكري ، اقدم قاسم بك امين ، ورفع صوته في تحرير المرأة ، ورغم انه درج الى ذلك من باب تأييد حجته بالنصوص الدينية ، اوجد في مصر رجفة كبرى ، ما فوقها رجفة .

روت الكاتبة الممتازة الآنسة مريم زيادة من مقال في نهضة مصر النسوية

اتحفت به كتابنـا التالي ما يأتي : « قال لي احـد اصدقائه ، انه اراد ان يهدي كتابه الاول (تحرير المرأة) الى سمو الخديوي عباس باشا ؛ فأبى هذا خوفاً من الرأي العام . »

غير ان الشدة التي قوبل بها قاسم امين ، دفعته لنشر كتاب ، اوفر حرية ، وهو كتابه (المراة الجديدة) : كما ان هذا الجدل دفع انصار المرأة لتحديه بالجراة

سد قد انصدع ، فانهمر منه الماء ؛ وابث يتوسع الصدع ، حتى تلاشى السد . وظهر من مقدرة الكاتبات حينئذ ، حتى لقد ظن كثيرون ، بان الكتاب رجال ، استعاروا اسماء النساء ، تأييداً لحجتهم . ولكن امثال السيدة ملكة الباسل ، عدلت الظنون ، واثبتت ان الانشاء لا جنسية له .

هذا واما المراة القبطيـة ، فانها وان كانت مثل مواطنتها المسلمة محافظة ، ولا تزال الاكثرية منها تحتجب ، ولكنها كانت مع ذلك ، اسبق الى النهضة الحديثة ، للاختلاط اكثر مع الجالية الغربية ، ولاعتناق فريق من قومها البروسطانتية ، والكثلكة ؛ مما وثق ارتباطهم بالتمدن الحديث

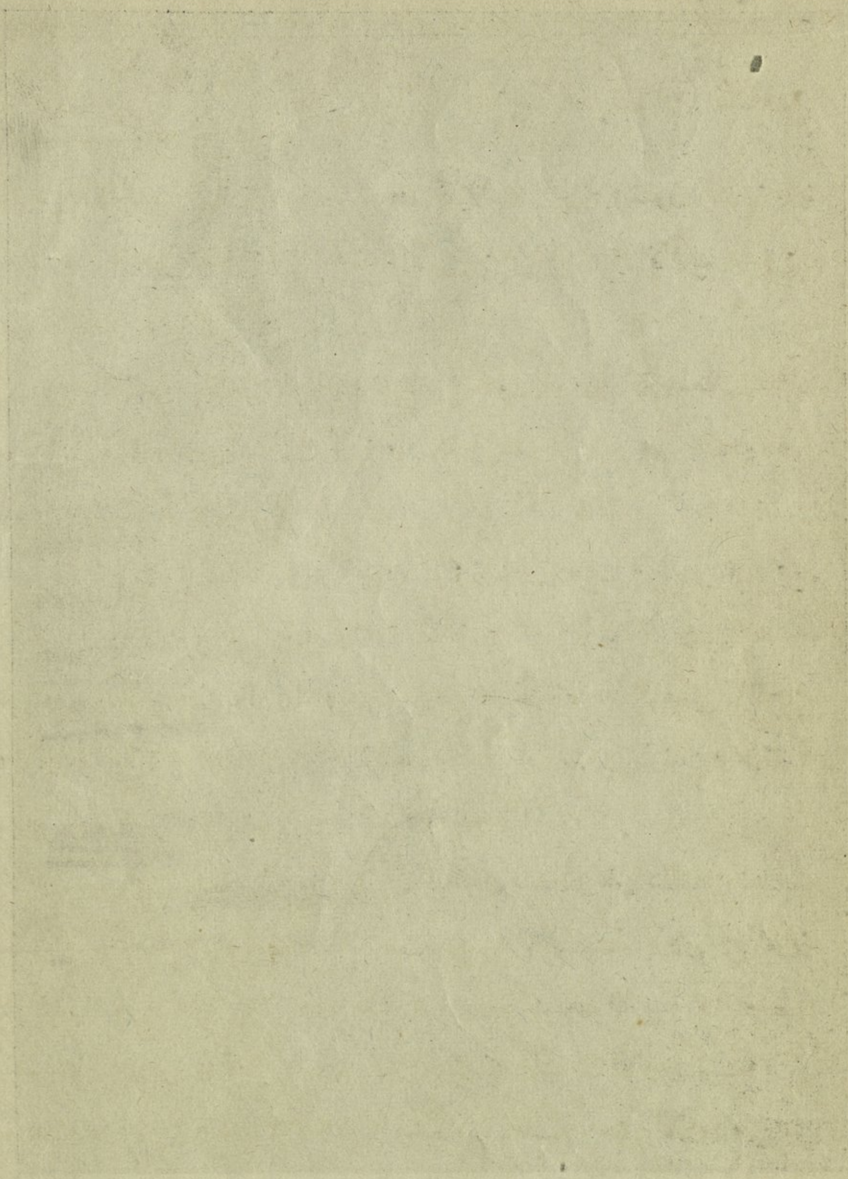
وقد اورد الكاتب الفاضل توفيق افندي حبيب ، في مقال عن المراة القبطية اتحف به كتابنا الآخر ، ما مفاده : « ان عدد الطالبات سنة ١٩١٢ – ١٩١٣ من الاقباط ١٠١٣١ ومن المسلمات ١١٢٨٠ مع ان نسبة الاقباط الى المسلمين في مصر ١ : ١٤ »

غير ان الحركة النسوية الاسلامية تنشطت عقب ذلك ؛ وبلغ عدد الطالبات عموماً بعد الحرب ، حسب الاحصاء الرسمي ، نحو ثمانين الف طالبة . وكان مظهر نضوج النهضة ، التأثر الفعلي الذي شمل الجنسين سواء ، في ثورة مصر الوطنية الاخيرة بطلب الاستقلال .



ملك (حفني بك ناصف) الباسل

ولدت ١٨٨٦ وتوفيت ١٩١٨ م



نهضة سورية : (١) وفادة الاجانب والاختلاط بهم (٢) تنافس المدارس الاجنبية (٣) تحدي الحكومة ، والوطنيون الاجانب في مدارسهم ، دفعاً لهدفهم (٤) الهجرة لامريكة (٥) رواج الادب بسوق مصر ، لا سيما بعهد اسماعيل .

كل ذلك اشترك في تكوين النهضة السورية . ولما كان لمعظم تلك العوامل ارتباط بالمسيحيين اكثر ؛ فقد سبق هؤلاء غيرهم للنهضة ، ونخص منها بالذكر النسوية .

وربما ان الاستاذ بطرس البستاني ، كان اول نصير للجنس اللطيف في سورية : دعا الى العناية بتربيته ، وتعليمه ، يوم لم يكن يجرأ احد ان يتعرض لاسمه . وان التاريخ لا يزال يحفظ خطابه النفيس ، الذي القاه في سنة ١٢٦٦ هـ = ١٨٤٩ م . ويقال انه كان ينوي انشاء مدرسة للبنات اسوة بمدرسته للذكور ؛ المعروفة بالوطنية .

ولكن ابت حالة سورية ، الا ان تكون السابقة الى ذلك البعثات الدينية الانكلوسكسونية : فانها شرعت تنتشر منذ النصف الاول من القرن ١٩ ، في سورية ، ولا سيما بلبنان ، جاعلة تجارتها التربية والتعليم ، واسواقها المدارس للجنسين . ولا تزال مدرسة البنات الاميركية التي تأسست سنة ١٢٧٩ هـ = ١٨٦٢ م في بيروت باقية حتى الان وهي من ارقى المدارس

على ان السياسة ابت على الامم الاخرى ، ترك المكاسب للانكلوسكسون ، فتزاحمن على انشاء المدارس ، واستجلاب الزبائن .

اما السوريون ، فكانوا قد شعروا بالحاجة الى العلم ، ولما لم يروا منهلا يردونه ، سوى المؤسسات الاجنبية ؛ تدفقوا اليها ، فتياناً ، وفتيات ؛ فنشئوا بذلك فضلا عن اختلافهم بالصبغة الدينية ، طوائف بالقومية ؛ بين انكلوسكسون ، ولاتين ، وجرمن ، وسلاف ، وترك .

ولم يشعروا شعوراً محسوساً بغبة هذه التربية ، الا على اثر افتقادهم الرابطة القومية ، عند جلاء العثمانيين ؛ ولا يزالون .

على انا لاحظنا ايضاً من نتائج تلك الفوضى التدريسية في بلادنا ، ان النهضة العلمية السورية ، شبت على الاكثر لدى المسيحيات ، بين متخرجات المدارس المجانية ، فكانت ربيبة الطبقتين : الوسطى ، والفقيرة . اما بنات البيوتات الرفيعة ، فقد تحولن الى اتقان اللغات ، ثم لهون بزخارف التمدن الحديث ؛ الا نفراً ، بذلن من اوقاتهن شطراً ، للمؤسسات الخيرية .

واذا ذكرت تلك المؤسسات ، فلا يسعنا الا الاشارة لمدرسة زهرة الاحسان الارثوذكية ؛ التي انشأت منذ سنة ١٨٨١ واصبحت من خيرة المدارس النسوية .

هذا ومهما كان من نتائج ، ومغبات تلك المدارس الاجنبية ، فلا ينكر انها كانت المبكرة الى تكوين النهضة ؛ حتى اذا ما دخل القرن العشرون ، اصبح صرير الاقلام النسائية ، يدوي في سماء سوريا ، فيسمع انغام ، يطرب لها اناس ، ويتذمر منها آخرون . ثم ما لبث الجنس اللطيف ، ان طمع بمشاركة القوي ، بالاختصاص في الصحف : فتقدم بعض الفاضلات ، وانشأت سليمة ابو راشد ، (فتاة لبنان) وماري يني ، (منرفا) ونجلا ابو اللمع (الفجر) ،

وماري عجمي ، (العروس) ، وجوليا طعمة دمشقية ، (المرأة الجديدة) ؛ وذلك عدا عما انشأه الرجال من المجلات النسائية .

واذا اقتصرت الان ، عن ايراد اسماء مجيدات كاتبات سورية المسيحيات ؛ فما ذلك الا لتكاثرهن على خاطري حتى كان مثلي كما قول الشاعر

تكاثرت الظباء على خراش فلا يدري خراش ما يصيد

على اني لن اقصر في حقهن بكتابي التالي . ولكن يجب ان لا اختم هذا الفصل دون ان اذكر الآنسة ماري كساب ، ومدرستها السورية الاهلية ، التي تأسست سنة ١٩١٧ .

فانها وان كانت لا تزال ابتدائية ، غير انها في عنايتها بطالبتها الاناث والذكور ، وفي اضطراد سيرها ، تبشر بانها ستصير بدراً كاملا

.....

اما النهضة النسائية الاسلامية ، في سورية وفلسطين ؛ فانها ، وان لم تحصل عن المدارس الاجنبية مباشرة ؛ فقد حدثت عنها بالواسطة ؛ وكانت بيروت مهدها بما توفر فيها ، من تلك المدارس ؛ ومن الجالية الاجنبية .

فلما انتشرت مدارس البعثات الدينية ، في الشطر الثاني من القرن ١٩ ؛ وكان العطف للتعلم قد تمكن من نفوس مسلمي بيروت ، اسوة بسواهم ؛ شرعت تلك المدارس تستقبل افراداً من فتياتهم ؛ جاء فريق منهن ، تقديراً للعلم ، واقبل اكثرهن ، وهن من الفقيرات ، رغبة بالاحسان .

فما اتى على ذلك الا ردح من الزمن ؛ حتى بدرت تأثيرات تلك المدارس على نفوس الفتيات ؛ وعلم بتنصير ، وتسفير اثنتين منهما ؛ وشاع بان مصير فئة من الفقيرات سيكون كذلك عاجلا .

فاضطرب المسلمون لذلك ، وقر رايهم على تاليف جمعية المقاصد الخيرية سنة ١٢٩٦ هـ = ١٨٧٨ م لتعليم وتربية الناشئة من الجنسين .

وكانت غرة اعمال هذه الجمعية ، انها عدا عن مدارس الذكور ، انشأت مدرستين للأناث ؛ وعهدت بامر التعليم فيهما غالباً ، الى فريق من المتخرجات في المدارس الاجنبية ؛ ثم عززتهما بمدرستين ثانيتين ؛ حتى بلغت قريباً جملة معاهدها هذه للجنسين ، تسعة ، منها واحدة عالية .

• ولا يزال البيروتيون يذكرون بالخير كلًّ من محرم بك ، واحمد بك دريان ، ومحمود افندي رمضان ، وغيرهم ، الذين امتازوا بالاشراف على هذه المدارس .

وكان حكومة عبد الحميد التي كانت تتحسب من كل الاجتماعات ، تخوفت من هذه الجمعية ، فما اتتها وشاية ، الا وبكرت لالغائها ، والتولي على مواردها ، ومدارسها ؛ فاضمحلت جميعاً .

ولما كانت مدارس الاناث التي انشأتها الحكومة غير وافية ؛ لم يلبث البيروتيون ، ان انتبهوا ايضاً لمساعي مدارس البعثات الدينية ؛ وتاثيراتهن على فتيات الفقراء ، اللائذات بهن ؛ فقر راي بعض اهل الغيرة على انشاء مدرسة سموها (ثمرة الاحسان) في نحو سنة ١٣٢٠ = ١٩٠٢ م ووكلوا امر ادارتها الى السيدة القديرة ، ألس أدلبي ؛ وعملوا على سحب البنات من المدارس الاجنبية .

ثم لما اعلن الدستور العثماني ، تنشطت الافكار ، لاحياء (جمعيـة المقاصد الخيرية) واسترداد مواردها ، ولكن توالي التقلبات التي طرأت ، لم تمكن القائمين من الاطراد بعمل ، او خطة ، الى ان تالفت هيئـة من بعض الوجهاء في ١٥ رمضان سنة ١٣٢٦ = ١٩٠٩ انتخبت للرآسة سليم افندي علي سلام ، فصحت العزيمـة على العمل بكل ثبات ، ونشاط .

وقد قدّرت هذه الهيئة تقديم العناية بالفتيات ، فاقتصرت عـلى ثلاث مدارس للذكور ، معدة اربع للاناث ، كما انها قدرت وجوب الاستفادة من المربيات الوطنيات غير المسلمات ، فكلفت نفراً منهن ، ومانخص بالذكر السيدة جوليا طعمة دمشقية ، ألا لما كان لهـا من حسن الادارة ، في رئاسة احدى المدارس ، حتى امتازت عن البقية ، بل لان كثيرات من اديباتنا المعروفات هن تلميذاتها

وقد كنت عضواً في هذه الجمعيـة ، وفي اللجنة المشرفة على مدارس الاناث ، ولا زلت اذكر انه لحسن الثقـة العامة في مدارس الجمعيـة صـارت مورداً ايضاً لبنات الاغنيـاء ، من المسلمات ، مثلما كان وقتئذ كل من مدرسة مار يوسف الافرنسية ، ومدرسة الاميركان

ولما شبت الحرب العامـة ، وقفت حركة التعليم على وجه عام ، ولكنها عوضت النهضة النسوية ، بما بثته بالفتيات من النشاط ،

اطلقت الحرب يد الاتحاديين ، فبادروا الى رفع الحجاب عن نواياهم ، من حيث تحرير المرأة ، وقام عنهم بتمثيل هذا الدور : جمال باشا القائـد العام في سورية ، وعزمي بك والي بيروت . واوفدوا تحقيقاً لذلـك ،

ولغاية التتريك ايضاً ؛ اسراباً من المعلمات التركيات برآسة كل من الاستاذتين : خالدة اديب ، ونيكار خانم. ولكن لقلة عناية البيروتيات بتعلم اللغة التركية ، ولما بدا من تبرج تلكن النسوة ، غير المألوف عندنا ، لم يقبل على مدارسهن التي بُذل عليها الالوف ، الا القليل من الناس.

غير ان اهل اليسار ، وان تجنبوا تلك المدارس ، فان فريقاً منهم شعر شعور الاتحاديين ، بضرورة الاصلاح النسائي. ، ورغبة في تنشيط الفتيات ، وتنوير مدار كهن ، انشوءا في بيروت ، ودمشق ، ناديين لهن ، كانا يكتسبان كل فرصة ، لعقد المحاضرات ، والاحتفالات .

وزيادة على ذلك فقد فتح نادي بيروت مدرسة للبنات كان عضواته في جملة المتبرعات للتدريس فيها

على ان السيدات لم يظهرن نشاطاً اقل ، بادارة دور الصنائع ، والاعمال الخيرية .

وهكذا فكانت النهضة النسائية في كافة سوريه ؛ وفلسطين ، عامة ؛ فصرنا نسمع من كل صوب ، صرير اقلام فتياتنا ، وخطبهن ، بل قد رأينا لاول مرة في سورية مجلة نسائية تصدرها فتاة مسلمة ، لما اصدرت الآنسة الفاضلة نازك عابد في دمشق (نور الفيحاء) في غرة سنة ١٩١٩ .

هذا وما اضربنا هنا عن ايراد اسماء كاتباتنا ؛ وخطيباتنا ؛ الفاضلات ، الا ليتسنى لنا التوسع في خبرهن بعد ، بيد أنا لا نمر من غير ان نذكر فقيدنا احمد مختار بيهم العامل الاكبر بهذه النهضة النسائية ؛ فقد كان لوفاته ؛ تاثير على فتورها .

على ان عواطف الاكثرية لبثت تغالب تلك النهضة، حتى اذا انتهت الحرب، وانقشعت سيطرة الاتحاديين، كانت الغلبة للاكثرية عليها، فكادت ان تعود حركتها الى نسبة ما كانت عليه قبل، لولا القوى الجديدة التي ادخرتها في الحرب.

هذا، ومما يلاحظ ان النهضة النسوية الاسلامية، ظهرت في سورية، بين الطبقة الغنية بالاكثر، خلافاً للمسيحية.

.....

واما اليهودية، فقد اشترك فيها كل الطبقات، ولا سيما في فلسطين، حيث يشتد الاختلاط مع الاجانب: ففيها من بنات البيوتات، ومن نسوة الشعب، من لا يتميزن عن بنات الغرب بالتمدن، وعن نسوته في الاقدام، والنشاط، كما لا يزال فيها جمهور خامل، نساؤه احط شأنا من قرويات فلسطين.

وتمتاز اليهودية عن نساء سورية، بكثرة العاملات الكاسبات، فهي قد باشرت ذلك، قبل ان اضطرت الحرب العامة فريقاً من نساء سائر الاديان للكسب الذاتي.

ولكنها اهملت اللغة العربية وآدابها، حتى ليندر ان يقرؤ مقال لاحداهن بالصحف، وانما تستثنى السيدة الفاضلة استير مويّال: فقد انشات مجلة (العائلة) في مصر، واشتركت في تحرير بعض الصحف في فلسطين

.....

واما الدرزية ، فبواسطة البعثات الدينية الانكلوسكسونية ، دخلت المدارس بمقدمة السوريات :

فان مسز ضدج انشأت لهن منذ سنة ١٢٥٠ هـ = ١٨٣٤ م مدرسة في عاليه ، (لبنان) ، ثم تكاثرت امثال هذه المدرسة في انحاء الشوف ، ولا سيما في اوائل النصف الثاني من القرن ١٩ ، وتوفر اقبالهن عليها ولا سيما الفقيرات . فتخرجن على معرفة اصول من العربية والانكليزية ، مع بعض المبادىء العلمية . بيد انهن لم يعتنين بالتعليم والانشاء الا من زمن قصير ، اذ انشأت تركيا في اثناء الحرب مدارسها ، فاشتغل منهن فريق بالتعليم . وباشر فريق آخر بمواصلة الصحف بالمقالات ؛ كما ان كتاباتهن لم تتوفر الا بعد الحرب ، ثم ما لبثنا ان رأينا (مجلة الخدر) للآنسة الاديبة عفيفة فندي صعب ، تخرج من بين تلكن المخدرات .

......

نهضة العراق . لا تزال المرأة بالعراق ، دون اختيها في مصر ، وسورية بدرجات .

وهناك ايضاً ، كان السبق للمسيحية : بما توفر لها من المدارس الاجنبية ، التي لم يحل دون تهافتها عليها ما حال للمسلمة ، ولكن المسيحية مع ذلك لا تزال ضمن منطقة ضيقة من المعارف ، ولا تتقن الا اللغات ، والازياء .

واما المسلمة ، فلا لغات ، ولا علوم ، غير ان بينهن جمهوراً درس

اصول العربية ، والتركية ، فوقف عند المبادي ، وفريقـاً عاشر نساء الترك ، او قدر له السفر الى مستوى اعلا بنهضته ، فامتـاز في ترتيب حياته ، وتنور مدار كه .

واما اليهودية ، فقد كانت السابقة الى الازياء ، ومظاهر التمدن ، ولكنها تناولت القشور ، دون اللباب فانطلقت ، ولا قيد ، حتى طالما تلطخت من عثاراتها .

.....

نهضة سائر العربيات . وهل يقال ان في ما عدا مصر ، وسوريـة ، من الامصار العربية ، حسيساً للنهضة النسوية ؟

لا لعمري . اللهم الا في بعض مدن سواحل افريقية الشمالية ، حيث اختلط الوطنيون تماماً بالجالية الغربية . كالجزائر ، وانا سنتوسع بهـذا البحث ، حيث لم نعاهد نفسنا على الايجاز .

.....

نهضة المهجر . وما امريكة الا مدرسة ، اعتاض بها معظم مبارحاتنا ، عما فاتهن من المدارس بالصغر ، حتى كدن يتقدمن على المتخلفات ، بل قد اكتسبن فيه ، ما لا يتاح لهن اكتسابه بالمدارس

فمثلما ان السوري ، اقتبس من الاميركيـين : النظام ، والنشاط

بالعمل ، والحياة ، فهي قد شاركته بذلك ، وعاونته في معترك تلك الحياة ، اقتصادية كانت او ادبية ، او خيرية .

وكأي من سورية بالمهجر ، تشغل من الاعمال الاقتصادية ، صغارها وكبارها ، منفردة او مشتركة . وان جريدة (الهدى) ومطبعتها في نيويورك ، اللتين تعدان بمقدمة الجرائد ، والمطابع العربية ، تشهدان على كفائة الجنس اللطيف ، وحسبنا ذكر الفاضلة السيدة عفيفة كرم .

على انا قد علمنا ايضاً ان الاميرة المفكرة روز ابا اللمع ، زوجة الاستاذ نعوم افندي مكرزل ، منشئ تلك الجريدة تشرف بنفسها على اعمال زوجها الكبيرة .

وذكرت (مرآة الغرب) الغراء ، ان الآنسة جوليا رياشي ، الكاتبة في معمل البواخر ، في حوض نيوبورغ ، نالت ٢٠٨٤ صوتا مزاحمة ثلاثا من اترابها ، لم تنل المجلية منهن غير ١٢٧٦ صوتاً ، وذلك لتعمد الباخرة مونرو حين تعويمها بالحوض . وقد مدحها خطيب الحفلة ، وأهدي اليها ساعة ثمينة ، ومحفظة فضية ، والطاسة التي عمدت بها الباخرة .

وذكرت ايضاً ، ان الانسة مريم نعمة مرقص ، نالت الجائزة الزراعية في معرض (دوسن) ، وعدة جوائز في الصنعة اليدوية .

هذا وفضلا عن ذلك فقد تولى فريق منهن اعمالاً ادبية على استقلال ، فاذكر السيدة الفاضلة سلوى سلامة اطلس : صاحبة مجله الكرمة في (سان باولو) : فان لها وللسيدة عفيفة كرم وللسيدة جمال ابي اللمع حلو ، في كتابنا التالي افكاراً سديدة عن المرأة . هذا وما ادب السيدة ماري عزيز ، في نيورك ، بمجهول . وعنايتها لجمع المساعدات لمنكوبي سورية ، ابان الحرب ، بمنكورة . وقد علمنا اخيراً ان السيدة الفاضلة



الاستاذ نعوم مكرزل صاحب جريدة الهدى
والسيدة عقيلته الاميرة روز ابو اللمع



السيدة نيكار خانم
احدى زعيمات النهضة التركية الحديثة

حبوبة حداد تظهر في هذا الشهر (حزيران ١٩٢١) مجلة (الحياة الجديدة) في باريس .

واما اذا ذكرت المنابر ، فيكاد الفكر يشردتوا الى الانسة سمية متى عطية ، بالولايات المتحدة ، ابنة المؤلفة فريدة عطية ، فهي المفوهة النابغة باللغتين العربية والانكليزية . وحبذا لو تثابر على استعمال قوتها في خدمة أمتها العربية

وان سورية لتفتخر بالعاملين والعاملات من ابنائها المهاجرين ، ولا سيما بالذين يعملون على تأييد الصلة بيننا ؛ في خدمة اللغة العربية .

.....

تلك هي خلاصة ، من تطور النهضة الجديدة ، بالعالم العربي . وما احسنها حركة تبشر بمستقبل .

كتبت السيدة الفاضلة سلمى صايغ كساب :

« في العالم العربي اليوم . كاتبات يرسلن افكارهن بلغة فصحى جميلة . ولكن هذا العالم فقير بالنساء المتمكنات من العلوم . المتبدعات الاساليب الحديثة . فما تكتبه نساؤنا يجيء خلابا اذا نحن نظرنا الى الصورة البارزة . ولكنه يجيء فقيرا . اذا نحن تقصينا الجوهر . »

وما اصدق ما قالت ؛ ولكن ليس اطراؤنا هذه النهضة ألا لمجرد نشاطها ؛ وليس استبشارنا بها الا للبوادر التي شرعت تبدر منها .

فهناك في مصر تتبع فريق من النسوة دروس الجامعة المصرية ، منهن كاتبتنا الممتازة الانسة مريم زيادة (مي) : فأنها تتبعت دروس تاريخ الاداب الانكليزية ، ودروس الفلسفة العامة ، والفلسفة الادبية ،

وعلم الاخلاق . وحسبها بمقالاتها في المقتطف دليلا على معارفها .

وفي معاهد اوروبة وأمريكة ، العلمية ، بعض الطالبات السوريات ، منهن الآنسة ادال نسيب مزهر الدرزية ، فهي تدرس الطب بكلية في سويسرة .

وهنا في بيروت تزاول الطب بمهارة الدكتور أنس باز وناهيك بما يتخرج كل عام من الجامعة الانجيلية السورية من الممرضات .

وفضلا عن ذلك ، فكأي من جمعية ادبيـة ، او خيريـة للجنس اللطيف ، في العالم العربي .

وقد ترحبنا ، واستبشرنا في كل من جمعية « جامعة النساء » « وعصبة الادب » في بيروت : الاولى ، لجمعها بين نساء الطوائف ، والمـذاهب سواء ؛ وما احوجنا لاتحاد المربيات ، . والثانية ، لاشراكها بعضويتها الجنسين . ولا غرو فليس للادب جنسية .

فهذه الحركة المطردة تبشر بمستقبل حسن ؛ لا سيما اذا دارت حول محور الاخلاق .

وما اخال العاملين على تربية هذه الامة ؛ الا حريصين على الاحتفاظ بالفضائل العربية ، حرصهم على التجدد .

فعقب الكلام عن (المرأة بالتمدن العربي) ، لا بدلنا من كلمـة نختم بها هذا الجزء ؛ لما قد يرد من ملاحظة على ادخالنا فيـه البحث عن (العصر العثماني) ؛ و (النهضة العربية الحديثة) .

اجل ليس العصر العثماني ، ولا النهضة الحديثة ، من التمدن العربي ؛

ولكن ، ما كان تسامحنا في ادماج الكلام عنهما معه بجزء واحد الا، اولاً لما لجأنا اليه من الايجاز بهذه المواضيع ، حتى لم تعد تستحق القسمة على اجزاء ؛ وثانياً لما بينهما من الارتباط :

فالعصر العثماني ، مرتبط بالتمدن العربي : لان السلطنة العثمانية ، لم تنشأ مدنية ما ، بل جرت ، كل حياتها على التمدن العربي الاسلامي. فهي في الدين ، والاخلاق ، والتفكير ، والتقاليد ، ربيبة هذا التمدن ؛ ولولا اللغة ، لكادت ان لا تتميز في شيء من العناصر التي جمعها الاسلام فانتجت ذلك التمدن .

واما النهضة الحديثة : عربية كانت ، ام تركية ، فعلاقتها بالتمدن العربي ، من حيث انها كناية عن نتيجة تغالب بينه وبين الحضارة الغربية

على انا سنفرق بين هذه الابحاث في كتابنا التالي حيث استوفى البحث حقه .

الجزء الثامن

عهد الذات

= تطور المرأة في التمدن الحديث =

في اثناء ما كان نساء العرب، في العراق، والشام، ومصر، والقيروان، والاندلس، في تلك القرون التي يسميها الافرنج الوسطى؛ يناظرن الرجال في العلم والادب، ويجارينهم في عقد حلقات التدريس، ومنح الشهادات العلمية؛ كان الجهل مخيما على اوروبا الى حد انهم كانوا يرون في تعليم الرجال ضرراً، اذ يتوهمون انه يؤدي الى التخنث.

كبر على شارلمان هذا الجهل العام، ونشط لاقتفاء اثر معاصريه: صديقه هارون الرشيد في بغداد، وهشام بن عبد الرحمن في قرطبة؛ ولكن الفوضى التي خلفته قضت على امانيه الاصلاحية. كما ان مقاومة الكنيسة من بعد لكثيرين من العواهل انصار التجدد اخرت التمدن الحديث.

ولكن الحروب الصليبية التي انتشبت وقتئذ ودامت منذ القرن ١١ الى ١٣ ميلادي، ساعدت على تغلب حزب الاصلاح بما نتج عن اختلاط الفرنج بالمسلمين، من التحوير الاخلاقي، والرقي العلمي.

وكانت الاندلس في اثناء ذلك لا تزال تمد الغرب في الافكار الحرة،

وتنفث في حياته روح النهضة، فتتمكن من جيرانها فما بعد، حتى بلغ من ملك اراكون (جاك الثاني ١٢٩١ - ١٣٢٧ م) حسبما رواه شارل لوتورنو، انه تمثلاً برقة العرب واحترامهم للجنس اللطيف، امر ان لا يوقف رجل في تهمة، وهو يصحب امرأة.

وكان الحظ الاوفر من التمدن العربي لايطاليا، اذ لم تصرفها الحروب مع العرب، كاسبانيا، عن الاستفادة من حضارتهم؛ ونخص بالذكر صقلية لدخولها زمناً في حكمهم.

ففي ايطاليا بدأت النهضة، فقامت المدارس الكبرى على نسق مدارس قرطبة ومصر وبغداد، وعززها اساتذة العرب. وتعززت فيها لغتهم. وفي ايطاليا نبتت البذرة الديمقراطية، فاخذ التنور العرفاني يشمل كل الطبقات.

وساعد على نضوج النهضة تغلب السلطنة العثمانية على الامبراطورية البيزنطية الحافلة بالعلم اليوناني، ودخول قسطنطينية في حوزتها، وهجرة فريق كبير من علمائها الى ايطاليا وسائر اوروبا، ثم نجاح فن الطباعة في المانيا.

وكأن ما حدث في ذلك العهد الانتقالي من الفساد الذي رافق فكرة تحرير المرأة، اهاب في الناس الى تأييد الحزب المحافظ، فعمدوا منذ ذلك الى الرجوع لتوثيق قيود المرأة. وفي اثناء ذلك سمع صوت لوثر الاصلاحي، فسمع خلاله رنات قلبه توحي الى الناس وجوب تأييد هذا الحزب

فشرع من ثم شأن المرأة منذ القرن ١٧ م، في التدهور علمياً، واجتماعياً، ما عدا نفراً ولا سيما من نساء الاعيان، وغالباً في ايطالية لبث محافظاً على

الاشتهار بمقام، او علم

وما كان نضوج التمدن الحديث في القرن الثامن عشر الا ليثبت فكرة تقييد المرأة. فمنتسكيو، وروسو، وموليير، وڤولتير، وديدر، وواوكست كمت، وكوت، وبوب، اركان ذلك القرن، كانوا كلهم اخصام تحريرها

غير ان تضارب الافكار المتطرفة، من اخصام وانصار المرأة، ادى الى قيام حزب وسط جمع معظم علماء ذلك القرن، وبعض ملكاته، غايته الاقتصار على العناية بالمرأة في التربية والتعليم.

وعلى اثر ذلك تهافت البنات على طلب العلم والادب، ولم يغادروا العلوم العالية، حتى نبغ منهن كثيرات، نذكر منهن الفيلسوفة بورا باسي، والرياضية صوفيا جرمن، والفلكية دوشاتليه

المرأة اللاتينية

لما توطدت فكرة التعليم النسائي، واظهر الجنس اللطيف امثلة كثيرة على استعداده العلمي، اشتد في اواخر القرن ١٨ حزب العاملين على تحرير المرأة. وهكذا شأن البشر كلما بلغوا غاية طمحوا لاسمى منها.

وساعد هذا الحزب انقلابان حدثا في اواخر هذا القرن، ولا بدع فمن شأن الانقلابات، كما قلنا، اشتراك كافة طبقات الامة في الحركة.

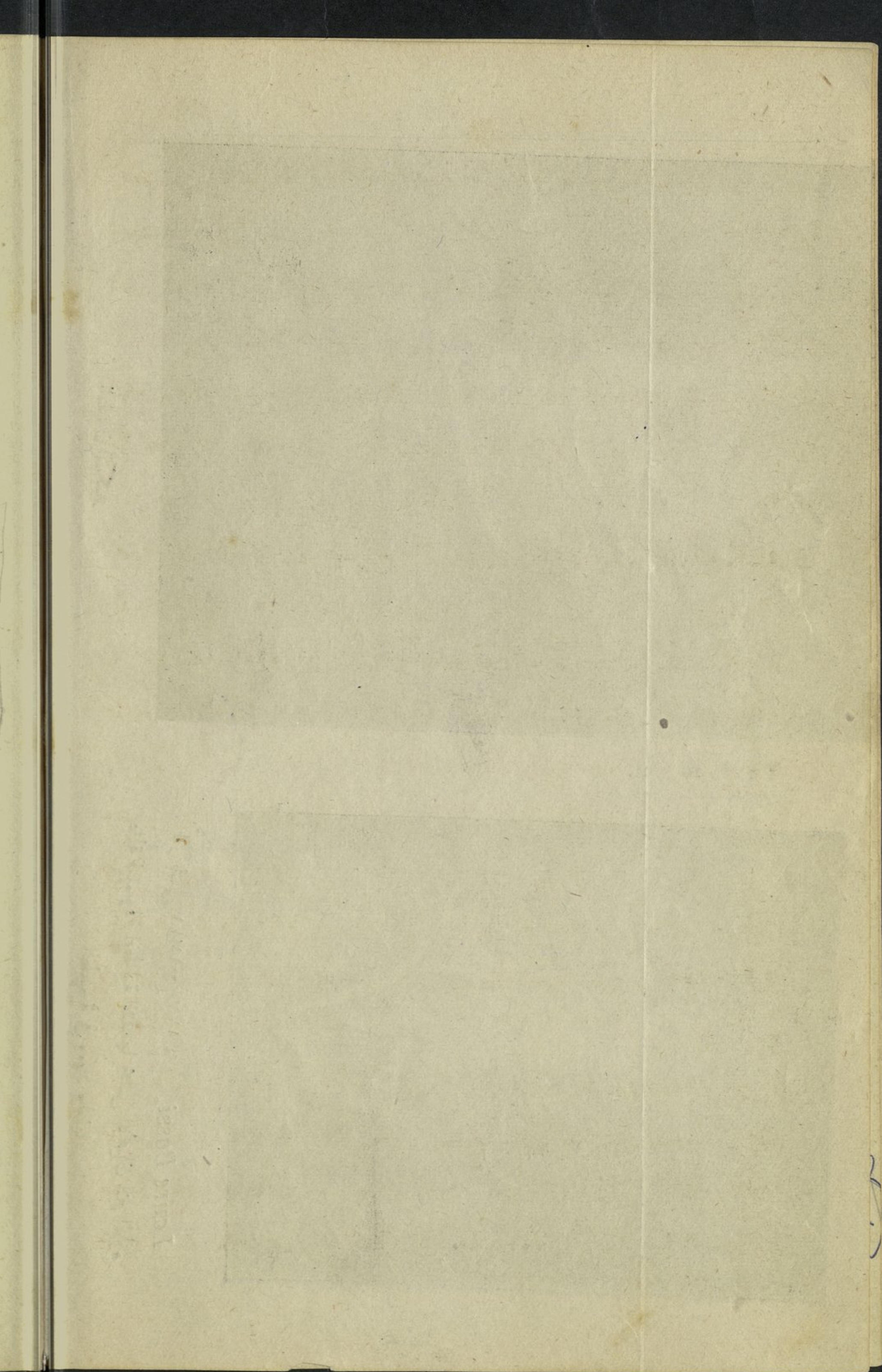
حرب الاستقلال الاميركي، والثورة الافرنسية، اظهرتا للعالم نشاطاً، واستعداداً، للجنس اللطيف الذي اشترك مع الجنس القوي افراديا بالحرب والمؤامرات، وفي الاضطهاد، كما انهما نبهتا المتعلمات المفكرات الى الافتكار



نابليون الكبير



لور باسي ١٧١١—١٧٧٨ م *Laure Bassi*
عالمة فيلسوفة ايطالية انتدبها مجلس الاعيان لمنبر العلوم
الطبيعية في معهد بولونيا



بحقوقهن ، ومجاراة الرجال المناصرين لهن ، فازاء كندرست ، وسيياس ، وستويارميل ، وغيرهم ، نهض كل من ماري ولستنكرفت ، واولامب دي كوج ، وتيوريجين دي ماريكورت ، وسواهن.

ولكن القاء مقاليد الجمهورية الافرنسية الى نابليون بونابرت ، اخفت صوت انصار المرأة عموماً في فرنسا : ذلك لاعتقاده بضرورة اعتزالها الاعمال ، واعتبارها متاع الرجل للذة والولادة.

بيد ان روح الامة كان منطلقاً الى عكس هدف نابليون ، فما افل نجمه ، الا وقد طلعت شموس العاملين والعاملات على تأييد النهضة النسائية ، ولا سيما من حيث العلم.

فمنذ شريعة كيزو ١٨٣٣ م اصبح التعليم النسائي ميسوراً لكل طبقات الامة ؛ ومنذ ١٨٦٧ م صار التعليم المجاني شاملا كل القرى ؛ وشرعت من ثم المدارس العالية تفتح مصاريعها للطالبات اسوة بالطلاب. وصار يزداد اجمالا عدد المدارس النسائية ، والتلامذة ، زيادة تذكر ؛ لاسيما في اوائل هذا القرن :

ففي سنة ١٨٩٤ لم يكن موجوداً في فرنسا الا ٩٦٦ مدرسة نهارية و ٨٠٠٠ ليلية ؛ فبلغت سنة ١٩٠٤ ، بحسب الاحصاء الرسمي ١٦٦٥٩ نهارية ، و ٤٠ الفاً ليلية .

وتبعاً لكثرة هذه المدارس ، ووفرة العالية منها ، توفر عدد المتعلمات ، والعالمات ، والمؤلفات ، والمخترعات ، حتى في العلوم التي كانت معدودة فوق طاقة النساء ، وحسبنا الاشارة الى الفلكية الرياضية ، مريم لالند ، والطبيبة مدام دومون ، والكيماوية المعاصرة مدام كوري السلافية الاصل

وبلغ من تقدير الجنس اللطيف للعلم والنهضة، ان كثيرات منهن اوقفن الاوقاف الثمينة، ليمنح ريعها، مكافآت للعاملين النابغين، اعتبر ذلك في البارونة داموازو، ومدام كه رينو، ومدام ده لوس، وسواهن.

هذا ولقد تمشت على اثر فرنسا بقية الممالك اللاتينية ما بين لاحقة ومتأخرة؛ واما الامة الانكلوسكسونية فقد توفرت لها اسباب السبق في ميدان اصلاح المرأة

المرأة الانكلوسكسونية

قلنا ان لوثر، مؤسس المذهب البروسطانتي، كان اقرب للحزب المحافظ، منه للمتجدد في شأن الاصلاح النسائي، ولكن لما كان في مذهبه قوة معنوية للارادة الذاتية؛ فقد ادى الى تحريك عاطفة التحرر في الجنس اللطيف، والى تنمية عاطفة التساهل في الجنس القوي.

فالتربية الاستقلالية، وفضيلة الانصاف؛ مع اتساع الامبراطورية الانكليزية، وتدفق الثروة اليها في القرن الماضي، بالاضافة الى دوران الحركة الاقتصادية، دورانا تطلب مساعدة المرأة؛ كل ذلك كان عاملا على سرعة النهضة النسائية، وتحرر المرأة اجتماعياً، واقتصادياً، في انكلترا.

وان انكلترا المحافظة، ما كانت الا مساعدة لتلك النهضة، فانها منذ منتصف القرن الماضي فتحت معظم ابواب مدارسها العالية بوجوه الجنسين على السواء، وفي سنة ١٨٩١ اصدرت قانوناً يقضي بالتعليم الاجباري على كل منهما. فتهافتت الانكليزيات على المدارس ولا سيما

العالية منها حتى سبقن سائر الامم. وماريم سمرفيل الفيلسوفة، ومسز ثوت الاقتصادية، وهاريت مارتينيان الكاتبة الكبيرة، وشارلوت اسكوت الاستاذة الرياضية؛ الا قائدات جيش كثيف من النساء العالمات، والمؤلفات، والمخترعات.

واما الاميركية، فانها وان تاخرت في المباشرة بالتحصيل وطلب التحرر، ولكنها لم تلبث ان سارت امام نساء العالم، لعدم ارتباط الاميركان بالتقاليد القديمة القومية ارتباط بقية الامم التاريخية

ولما كانت النهضة النسائية الاميركية تصح ان تكون امثولة لنا ونحن في الخطوات الاولى من طريق التجدد؛ وبحكم ان رب البيت ادرى بالذي فيه، تقدمنا الى مواطنتنا الاميركية الدكتورة في الفلسفة (مسز كات تشمبرز سيلي) * طالبين اليها ان تتحفنا بخلاصة من تطور نهضة بنات جنسها في العالم الجديد؛ فارسلت الينا المقال التالي المفيد معرباً بقلم الفاضل جرجس بولس خياط ب. ع قالت:

« انه لضرب من الجهالة ان احاول معالجة هذا الموضوع الواسع في فصل واحد من هذا الكتاب، بيد اني اؤمل ان الملخص الذي اسرده، يحمل الى الاذهان شيئاً عن تهذيب المرأة الاميركية في الولايات المتحدة، وتاثير هذا التهذيب على الوسط الاميركي، رغم

---

* مسز كات تشمبرز سيلي هي زوجة المستر سيلي استاذ الفلسفة بالقسم العلمي من الجامعة الانجيلية السورية الاميركية في بيروت، وهي من خريجات كل من كلية (Bryn Mawr) ولها منها شهادة بكالوريوس علوم، وجامعة Colombia Uuiversity وحائزة منها على لقب دكتور فلسفة

اضطراري لحذف كثير من النفائس والكماليات . وساتوخى ان تنبعث من اسطري القلائل، روح تحمل القراء على التعمق بحثاً في هذا الموضوع، فيستفيدون من الاراء الحديثة همة ونشاطاً يحثانهم على الكفاح في سبيل تربية المرأة في غير امريكا من البلدان.

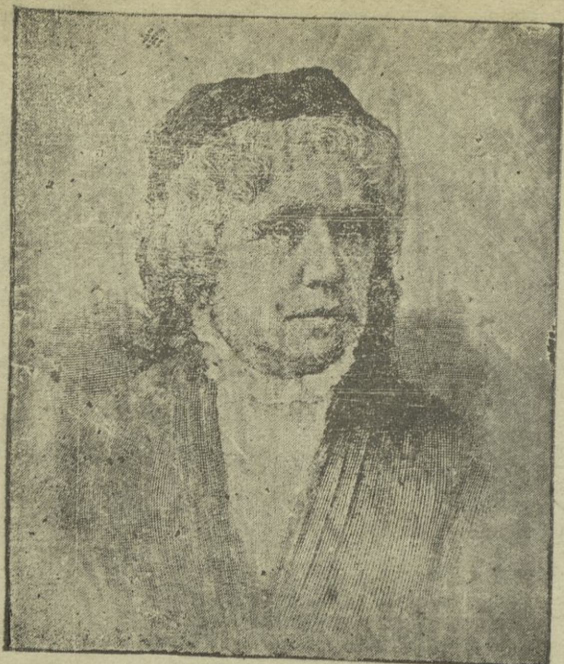
«وبما اني اروم البحث في حال المرأة الامريكية اليوم، ساقتصر على ذكر لمعة من تاريخ سعيها الحثيث لنيل حقوقها . فقد كان الزواج قبل مئة عام، الضالة الوحيدة التي تنشدها الفتاة الامريكية ضماناً لمستقبلها وتاميناً لآتيها مع امكان استخدامها معلمة في احدى المدارس. غير ان معارفها المحدودة وعلمها القليل، كانا يمنعانها من التوسع في تعاطي هذه المهنة الشريفة . لان مجمل العلم كان ذهاب بنت الغنى واليسار الى مدارس ابتدائية عدداً من السنين ومنها الى المدارس «التكميلية» حيث تجلى وتُمد للحصول على الزوج المنشود بتعلمها شيئاً من الرسم والموسيقى واللغة واداب المعاشرة ليس الا. اما اختها بنت الطبقة الوسطى والفقيرة فكانت تنهي دروسها الابتدائية ثم تنصرف بجملتها الى مساعدة والدتها في تدبير المنزل حيث تتقن الطبخ والترتيب البيتي فتعود نفسها على ذلك لكي تتمكن من ادارة بيتها المقبل

«هذا مجمل التعليم لان الاعتقاد الراسخ كان ان الفتاة التي تتعلم علوماً اعلى مما ذكرنا لا تعود اهلا لان تصبح زوجة، واماً وان المرأة بمشاركتها الرجل في حياته الفكرية تمسي لا جنس لها وتعدم لطفها وسحرها و«انثويتها» وتحت سيطرة هذا الاعتقاد نهضت سليلة اولئك المهاجرات اللواتي رافقن ازواجهن نازحات عن الوطن الى بلاد سحيقة كالولايات الامريكية ووقفت كل قواها باذلة جهدها رغم ضعف استعدادها



مريم سومرفيل ١٧٨٠ — ١٨٧٢ م Mary Somerville

رياضية انكليزية شهيرة لها مؤلفات عديدة في مواضيع مختلفة



مريم متشل ١٨١٨ Maria Mitchell

رياضية فلكية امريكية اكتشفت نجماً سمي باسمها ولها تآليف مفيدة

لتجعل عائلتها مدرسة تهذب بنيها وبناتها في خوف الله وتقواه وتعدهم الى حياة واسعة ما استطاعت بتهذيبها القاصر اليهاسبيلا. وقام من هؤلاء السيدات من لم ترض بهذه القسمة الضيزى من التهذيب وانكرت ان يكون اخوها مثقفاً عالماً يجني ثمار ادبه الوافر وهي بجانبه مكتوفة اليدين لا تستطيع حراكا. وما كان بالامر السهل معارضة هذه الانفس الطموحة التي حرمت نصيبها من التحصيل الذي تتوق اليه في المدارس فاخذت تجنيه بقراءة الكتب والمؤلفات وباقتباسه من درر المعلمين والوالدين الذين شعروا شعورها واعتقدوا اعتقادها. وقد كان دون ذلك خرط القتاد حين قامت ماري متشال تسعى وهي فتاة ذكية الفؤاد حديدة الذهن وكان ابوها فلكياً يدير احد المراصد على شواطي انكلترا الجديدة فبذلت اقصى جهدها الى ان تمكنت من معاونته في ادارة المرصد الفلكي وما اتيح لها ذلك حتى توفقت الى اكتشاف نجم جديد فكان داعياً الى شهرتها شهرة طبقت البلاد الراقية جمعاء فعينت استاذا للفلك في اعظم الكليات التي انشئت اذ ذاك.

«ولنا مثل آخر بعلو الهمة في ماري ليون التي ذاع صيتها وامتد خبرها في الاصقاع الامريكية طولاً وعرضاً فهي التي عرفت بنجابتها وقوة باصرتها عظيم الحاجة الى معلمات قديرات ذوات خبرة واسعة ومعرفة صحيحة حتى في المدارس «التكميلية» وشعرت بضرورة ترقية تعليم البنات ورفع شأنه مادة واسلوبا ولم يمنعها فقر حالها وحطة ذويها وصعوبة تلقي العلوم من احراز حظ وافر وبلوغ شأو بعيد فيه مما اهلها ان تغدو على حداثة سنها رئيسة مدرسة «تكميلية» واثرت بعجيب شخصيتها وعلو همتها على تلميذاتها لكي لا يكتفين من العلم بما يُرضي الزوج بل بما يؤول الى تحسين البيئة وترقية الوسط وخدمة افراد المجتمع. وكان

همها الوحيد ان تنشيء مدرسة عالية للبنات لا يقتصر العلم فيها على ذوات الثروة واليسار بل حيث تقدر الفتاة البائسة ان تعول نفسها بنفسها مدة الدراسة والتحصيل . وقد تحقق حلمها الذهبي اخيراً وأنشيء سمنار « مونت هيليوك » اولاً وتحول اخيراً الى كلية عظيمة تشغل المكان الرفيع بين كليات امريكا

«وما كان الشعور بضرورة التعليم العالي للمرأة مقتصراً عليها بل شاركها الرجل في تحبيذ الفكرة والدأب على انمائها وتقويتها فمن مميزات هذه الحركة شعور جمهور كبير من الجنس النشيط ان تهذيب الرجل وحده لا يبرد لظى . ولا يروي غلة وان المرأة لا يجب ان تكون زوجة للرجل ومديرة لمنزله فقط، بل يجب ان تكون رفيقة لحليلها وشريكة له في افكاره وامياله وزد على ذلك شعورهم انها لا تكون اهلاً لمحبة اولادها واحترامهم اذ لم تنل بعد الدراسة الابتدائية نصيباً وافراً من من التعليم العالي والتهذيب الراقي . ولولا مساعدة هؤلاء الرجال ما امكن الفتاة ان تنال معشار ما نالت في اواسط القرن المنصرم حين كانت مدرسة (مونت هيليوك » سمناراً اخذ الرجال ينشئون كليات الفتيات فأسس ماثيو واسار « كلية واسار » و « كلية ولسلي » ولا تزال هاتان المدرستان في طليعة بيوت العلم ومثلها « كلية سمث » و « كلية برن مار » اللتان انشأهما الرجال الذين اخذوا بناصر المرأة ورغبوا في تعليمها وترقيها

«ولا يغرب عن الاذهان ان المجموع الامريكي كان ينظر الى الفتاة التي تؤم دور العلم بعين الشفقة وقد خالطها شيء من الازدراء ظناً منه انها من المحتاجات الرقيقات الحال وقد سلكت المسلك العلمي انتجاعاً

للرزق وارتيادا للمعيشة . او انها من المثريات اللواتي يرغبن في تقليد الرجل في كل اطواره . فكانت العقبات في طريق الفتاة الراغبة في العلم عديدة لا تحصى من معارضة والديها واصدقاءها وندرة وجود المؤسسات التعليمية حتى بعد انشاء ما ذكرت من الكليات، وكم من فتاة وهنت قوتها وثبطت عزيمتها لدى المقاومة الشديدة لهذه الفكرة فانثنت عنها مكرهة مخافة ان ترمي بالخروج عما يليق بالمرأة (وانثويتها.) وهكذا بقي المجموع بين محبذ ومقبح فسلم بوجوب تعليم الفقيرة المحتاجة ورأى وجه الصواب في مساعدتها على الارتزاق وكسب اسباب المعيشة. ولكن لم يرَ معنى لطلب سواها العلوم والفنون . انما اخذت هذه المقاومة تتناقص رويدا بظهور السيدات العظيمات مثل السيدة هاريت بيچرستو والسيدة لوسي موط والسيدة هلن هنت جكسون اذ اتضح جلياً ان المرأة تقدر تخالط الرجل وتتداخل في الشؤون العمومية مثله معتلية المنابر ومخاطبة جماهير غفيرة من الجنسين دون ان ينقص ذلك ذرة من رقة جانبها ورقة شعورها وشريف خصالها كامرأة؛ فالسيدة هاريت بيچرستو ملأت قلبها بحب العبيد الارقاء واخذت تناضل في سبيل نصرتهم خطابة وكتابة وعملا وحذت حذوها السيدة لوسي موط . اما السيدة هلن هنت جاكسون فهي الدافع العظيم والعامل القوي الذي حمل الحكومة على وضع القوانين القاضية بتحسين حال هنود امريكا. ولم تكن هذه السيدات من المشتغلات بالعلم بل كن ربات بيوت ومدبرات منازل وامهات بنين وبنات قمن بواجبهن العائلي خير قيام مما اقنع الجميع ان المرأة تقدر ان تفي بخدمتها العمومية دون ان تهمل واجباتها البيتية . فتعدت شهرتهن الاوقيانوس واصبح تأثيرهن عالمياً واسعاً مما حطم القيود

التي اغلت الجنس اللطيف عن العلم وبدد السحب التي حجبت ضياء العلم عنهن

«ومن النساء اللواتي خدمن الحركة العلمية مباشرة السيدة ماري ليون والآنسة أليس فريمان پالمر التي بعد ان بذلت النفس والنفيس في تثقيف عقلها وتوسيع معارفها ترأست وهي في السادسة والعشرين (كلية ولسلي) ثم استعفت بعد خدمة ست سنوات بداعي زواجها غير ان ذلك لم يمنعها من مثابرة الجهاد لاجل تعليم النساء فما برحت من امناء «كلية ولسلي» ولم تكتفي بذلك بل احسنت الى «كلية ردكليف» وادارت فرع النساء في جامعة شيكاغو مدة وكتبت من الفصول رائعها والقت من الخطب شائقها في نصرة المبدأ والفكرة التي مازجت نفسها وعواطفها الى اخر نسمة من حياتها

«ومن الغريب كيف تعددت كليات البنات في الولايات المتحدة بمدة وجيزة، وكيف بات من الطبيعي ان تتعلم اي فتاة كانت في احداها ولا يعني ذلك زوال المقاومة بتاتاً، ففي الولايات الامركية اليوم اناس يعتقدون اعتقادا راسخاً ان المرأة لا يجب ان تتوسل الى مباراة الرجل في المطالب العلمية مطلقاً وابدا ولكن عدد هذه الفئة يتناقص يوماً بعد آخر، وسيأتي زمان وما هو بالبعيد حين يصبح الامر المعتاد ان تدرس الاخت العلوم العالية في الكليات كما يدرسها اخوها

«ولو رجعنا بافكارنا الى ماقبل ربع قرن وتأملنا المهن العلمية التي جاز للنساء احترافها وجدنا انه لم يكن لديهن في الدرجة الاولى سوى التعليم في المدارس حيث اظهرن معارفهن وتفوقهن وشغلن المراكز الاولى فيه وما برحن كذلك حتى اليوم واحترف بعضهن التمريض

والطب والشريعة، واثنتان درستا اللاهوت، غير ان ميدان العمل كان محصورا في هذه بادي، بدء ثم اخذت الوسائل تتعدد تدريجاً وانفتح امامهن باب الحرف الواسع فكتبت احدى السيدات الشهيرات في اوائل الحرب مقالا شهدت فيه ان المرأة الامريكية خلافاً لباقي نساء العالم تقدر ان تختار لنفسها اي مسلك شاءت يلائم ذوقها وميولها فتبرع فيه وتظهر مواهبها الكامنة . اما الحرب العامة الاوروبية ومشاكلها المتعددة فقد حققت ذلك القول بالفعل واوسعت للنساء مجالا عظيما مما حير المرأة نفسها اذ اوصلتها الى شغل مراكز لم تكن تحلم بها وابانت مقدرتها على القيام بالاعمال الهامة واملاء المراكز العظيمة

« وارجح ان السر في ذلك تربية الكليات الامركية التي ترمي الى انماء « المقدرة العملية » في الطالبات اكثر منها في تعليمهن الفنون العديدة وحشو ادمغتهن بالعلوم الصرفة ولا اعني ان المستوى العلمي في كليات البنات عندنا احط منه في غيرها كلا بل اعني ان التربية الفعلية التي تحرزها الفتاة في دروسها والموقع الذي تشغله في الممارسات الدينية والتربية العضلية وباقي الجمعيات المدرسية تولد فيها مع الثقة في نفسها مقدرة عملية تمهد لها مزاولة اشغال لم تألفها واعمال لم تمارسها بفائق الدقة والاتقان.

« امريكا بلاد واسعة الارجاء ممتدة الاطراف ومع اختلاف الطباع والعادات في اقاليمها المختلفة فالمرأة الاميركية هي هي اينما وجدتها وحيثما قابلتها لان تحصيلها العلمي فتح عينيها لمشاكل العالم الحالية وبسط لديها الوسائل المختلفة التي يمكنها ان تساعد بها لحل تلك المشاكل كما انه اراها فوائد التعاضد والتعاون والعمل يداً واحدة بواسطة

الجمعيات فنتج عن ذلك ان الوفاً من السيدات والاوانس انتظمن في سلك جمعيات عظيمة يعملن معاً لتحسين الاحوال الحاضرة ومع ان معظم الزعامة في ايدي خريجات الكليات فبين الاعضاء كثير ممن لم يدخلن كلية ولم يدرسن علوماً عالية . وها انا ذاكرة نبذة عن كل من هذه الجمعيات العظيمة

١ اتحاد السيدات المسيحي لمقاومة المسكرات
٢ اتحاد الشابات المسيحيات
٣ تعاون منتديات السيدات الوطني
٤ عصبة النساء للمساواة في التصويت

« اتحاد السيدات المسيحي لمقاومة المسكرات . جمعية من اقدم مؤسسات الولايات المتحدة وقوامها النساء اللائي عولن على محاربة السكر والسعي لمنعه وابطال استعماله . وقد احرزت هذه الجمعية فخراً كبيراً اذ كانت اولى الجمعيات في بلوغ امنيتها واتمام مقاصدها التي طالما ناضلت لاجلها وذلك حين اصدرت الولايات المتحدة سنة ١٩١٩ القانون القاضي بمنع المسكرات منعاً باتاً .

« اتحاد الشابات المسيحيات هي الجمعية المنتشرة في جميع انحاء البلاد تديرها النساء فقط وغايتها دينية بحتة ولها فرعان فرع الكليات وفرع المدن . وللجمعية عدد كبير من امينات السر يتجولن من مدينة الى اخرى ويزرن المدارس المختلفة يرتبن حياة التلميذات

الدينية ويعددن اعضاء الجمعيـة للاجتماع السنوي الكبير الذي تحضره جموع غفيرة من جميع الكليات يسمعن الخطب البليغة وينظمن صفوف درس الكتاب المقدس والدروس الدينية ويبحثن معاً في مشاكل كلياتهن المتعددة . اما فرع المدن فهمه الاعتناء بالعامـلات يعدلهن في بنايات الجمعية الفخيمة وسائل شتى للراحة والتسليـة ووسائط للـدرس العقلي والشغل اليدوي في ساعات الفراغ ومع اني مضطرة ان اضرب صفحاً عن كثير من اعمال الجمعية آسفة لضيق المقام لا بد من ذكر كلمة عن موتمرها العظيم الاخير . (تعقد هذه الجمعية موتمرا عاماً كل ثلاث سنوات) ففي شهر نيسان سنة ١٩٢٠ في كليفلند اوهايو اجتمع الوف السيدات والاوانس يضمهن المؤتمر الوطني السادس لهذه الجمعية . وقد كتب مراسل احدى المجلات ذاكرا شيئاً عن المؤتمر قال :—

« من البديهي ان يقابل المرء بين هذا المؤتمر وغيره من موتمرات الرجال فسواء كان الامر نتيجة جديد الحركة بين نساء او نتيجة ميل المرأة بطبيعتها للترتيب والانتظام فالحق يقال ان هذا الموتمر كان غاية في الهدوء والسكينة وان الوف المندوبات كن يلاحظن بنظرة اشارة لرئيسة ويطعن اوامرها في حقوق الكلام وكان الدافع الشخصي لحرية القول والاخلاص في الكلام وصدق النية شيمة كل مندوبة خلافاً لموتمرات الرجال ولم يقم قط شيء من قبيل التزاحم والتلاعب في الاقتراع على انتخاب اللجان المختلفة او تقرير الاشغال المتعددة »

« وما كان في وسع الناقد الذي يتتبع حركات المؤتمر وسكناته يوماً وآخر — في امر هو أهم ما في حياة الجمعية وان شئت فقل حياة المرأة الاميركية — الا وان يوخذ بجالي الوحدة الفكرية التي كانت رائدهن

ابدا رغم انقسامهن الى حزبين فقد سعي كل منهما بدافع الاخلاص والايثار لينهج الطريق القويم توصلا للغاية الحميدة المنشودة ولم يكن الخلاف الا على طريقة الوصول لتلكم الغاية الواحدة)

« تعاون منتديات السيدات الوطني · ترى الناس اليوم منقسمين بين موافق ومعارض فكرة (منتدى السيدات) زاعمين انها كالعلوم تمنع المرأة من الاهتمام بامور منزلها وتدبير عائلتها · واعظم ما وجدته في تحبيذ الفكرة والموافقة عليها قول سيدة نبيلة هي ربة منزل فخم وام بنين وبنات شغلت وظائف مهمة في هذه المنتديات مدة طويلة · اما قضيتها فمعقولة مقبولة واليكم هي : — (الرجل يخوض معترك الحياة يومياً فيسبر غورها ويطلع على ما يجري في العالم حوله لعلاقاته الشديدة مع زملائه التجار والصناع · والولد في المدرسة يفتح ذهنه وينير عقله بكل جديد من الاكتشافات والاختراعات وهو موضع تأثير المبادي القويمة والافكار السامية كل مدة الدراسة · والمرأة المنزوية في بيتها المنشغلة بتدبير منزلها وتربية اولادها — ولا سيما اذا لم تكن من سكان المدن — تكون مقطوعة عن العالم الفسيح غافلة عن ماجرياته باسرها فهذا المنتدى ينير سبيل الفتاة فتوسع معارفها في الفرع الذي تختاره من موسيقى وادبيات واجتماعيات الى آخر ما هنالك من الفروع او في كلها فتنمو معارفها وتسمو مداركها وتعد نفسها بالانتماء للمنتديات لتكون زوجة اصلح لرجلها واماً ابقى لاولادها منها جاهلة قاصرة محدودة المعارف عديمة الاختبار) وبرهاناً على ما تقدم اذكر مثالا لنشوء احد هذه

المنتديات في بلدة من بلاد الجنوب لم يكن في شوارعها من الانوار ما يضيء حالك الليالي الداجية فاجتمعت النساء وقررن ان تضع كل سيدة في احدى نوافذ بيتها المطلة على الشارع مصباحا يرسل اشعة فيقي العابرين عثرات السبيل . فانيرت البلدة وجعل المنتدى الذي جمع شمل العقائل يجبي رسوم العضوية وينفقها على تحسين الحالة العامة الى ان لبست البلدة حلة من الرونق والبهاء بعناية بضع مئات من سيداتها .

«ولبعض المنتديات اهتمام خاص في حمل الحكومة على وضع القوانين لحماية الامومة اي ان تسهل للام العناية بنفسها وبطفلها . ومع سعي هذه المنتديات الحميد لسن تلكم القوانين فهي تبذل ما في وسعها لحماية الامهات بتعليمهن وتسهيل اسباب الراحة لهن ولاطفالهن ريثما تاخذ الحكومة الامر على عاتقها .

« هذه نبذة عن المنتديات افراداً والان اذكر شيئاً عن تعاون هذه المنتديات كلها . فحين يبلغ عدد الاعضاء في احد المنتديات حداً معلوماً يطلب الدخول في جمعية تعاون المنتديات وعندها يُصرح له ان يرسل مندوبات لمؤتمر الجمعية وان يطلب المعونة والارشاد منها . وفي اتحاد هذه المنتديات التي تجمع الوف الالوف من نساء اميركا وفي مقرراتهن طلباً للاصلاح اصبحن قوة لا يستهان بها في سبيل التحسين الاجتماعي وها كم راي مكاتب احدى المجلات ممن حضروا المؤتمر النصف السنوي في ربيع سنة ١٩٢٠ حيث قال :—

« ان الولايات المتحدة الاميركية في حاجة قصوى لاعضاء منتدياتها الادبية وقد برهنت على ذلك الحرب الكبرى حين استنجدت الحكومة وجمعية الصليب الاحمر وغيرها من المؤسسات سيدات

منتدياتها ليقمن باعمال شتى كانوا بحاجة اليها فسجلت اعمالهن بماء الذهب لما احرزته من الموفقيات المجيدة سابقاً ولايزلن يسعين اليوم غير مباليات بمشاكل العالم الحاضرة ليجعلن السنين المقبلة دور سعي وجهاد لانماء القوى وتعمير ما خربته الحرب الطاحنة باتحادهن الوطيد الاركان ، ومن الامور التي يفكرن في ايجاد دخل مناسب لها امر التربيــة . ففي تقارير ثلاثين من رئيسات هذه المنتديات الثمانية والاربعين عبارة واحدة وفكر واحد وهو ضرورة الاعتناء بمدارس البنات وتحسين حال معلماتهـا وزيادة معداتها وعزمهن الاكيد على وقف قواهن ومواهبهن في سبيل هذه الحاجة الماسة والغاية العامة ..

« اتحاد النساء لمساواة التصويت » وقد مضت مدة من الزمن وجماعة من النسأء يطالبن بحقوق الاقتراع والتصويت والمساواة فيها وقد انتظمن في جمعية هذا اسمها وشعارها وانتصرت هذه الفئة اخيراً اثر عنائها الشديد وجهادها المستمر واصبح للمرأة الاميركيــة الحق في مساواة الرجل في الانتخاب وقد اجتمع في مدينة شيكاغو السنة الفائتة للاحتفال بيوبيل الجمعية ماينيف على الالفي سيدة يتبادلن التهاني على انتصارهن المجيد ويعددن العدة لمثابرة العمل في الاتي ولم يكتفين بنيل المساواة بل فكرن في وجوب القيام بتهذيب عامة النساء واعداد عقولهن الى ماذا ؟ ومن ينتخبن ؟ ولذلك انحلت جمعية اتحاد النساء لمساواة التصويت وحل مكانها « وحدة تصويت النساء » وفي عداد المرامي التي نص عليها دستور هذه الجمعية الامور التالية :—

« منافع الاطفال · واهم ما في ذلك العناية بالاحداث الذين يشتغلون في المعامل تحصيلاً للرزق رغم ضررها العظيم لصحتهم

« حماية النساء العاملات · وذلك لحمل الحكومة على وضع دستور يقضي بزيادة اجور العاملات وانقاص ساعات عملهن وتحسين حالهن عموماً في المعامل

« الوطنية الامريكية والتربية · وذلك لتهذيب المرأة حتى تغدو اهلاً لتسمى من وطنيات امريكا ولا سيما النساء المتجنسات حديثاً منهن

« حفظ الصحة الاجتماعية · وذلك عبارة عن مقررات شتى في صيانة العفة والطهارة وحماية الامومة واليكم جملة اثبتها عن شاهد عيان قال :

المرأة المنتخبة تعزم عزماً صادقاً ان تستخدم قواها الجديدة لتحسين حالة جنسها السياسية والعدلية والاجتماعية وبذلك تضمن تقدم الجنسية والقومية عموماً · فليس من ينكر ان واجب المرأة هو في رفع شأن القومية وترقية الامة عموماً حتى ان الذين قاوموا حقها للتصويت اقروا ان لها مقاماً رفيعاً في تدبير منزلها وتربية اولادها ...... ان لفي تلك الهيئة الناضجة قوة عظيمة كامنة كمون النار في العود وكان من الواجب ان يشعر بها قبلاً ولكن سيظهر تأثيرها جلياً في كل الولايات اذ بقي على الجنس اللطيف ان يبرز قوته وقوله الى حيز العمل وانا لكذلك مؤملون :

« اما هذا المؤتمر الذي عقد في شيكاغو للاحتفال باليوبيل فكان مؤلفاً من خريجات الكليات وذوات الاعمال وربات المنازل اللواتي رأين في حق الانتخاب مجالاً لخدمة البلاد انعش ارواحهن وملأ قلوبهن

برداً وسلاماً . وكان بين الأمهات من اصطحبن فلذات اكبادهن ومن تركن اولادهن لعناية الاقارب واتضحت بذلك قوة العائلة واواصر القرابة وروابط الامومة وبان سمو العاطفة باجلى مظاهره حين كانت السيدات تنسحب من المؤتمر بعد انقضاء الغاية من الاجتماع لان واجبهن العائلي دعاهن للاعتناء بالاطفال والرضع

« واختم بمشهد اخر من مظاهر النساء الامريكيات بنظرة القيها على الدور الذي مثلته المرأة في « المؤتمر الجمهوري الوطني » فكانت النساء اللاتي حضرنه نائبات النساء المنتخبات وماثلن الرجال الذين في المؤتمر في كثير من اطوارهن اذ عرفن الغاية التي اجتمعن لاجلها والمرمى الذي تقصده منتخباتهن حق المعرفة وتوسلن باسمى الوسائل للوصول لمقاصدهن الشريفة وهذا ما قلنه بكل حكمة وتعقل « غايتنا ان نعمل معكم يداً واحدة ايها الرجال . ها نحن خذوا قوانا واستعملوها . اوسعوا لنا مجالا نقدر ان نخترم بلادنا به فعندنا القوة الضرورية والسكينة اللازمة والحكمة التي لا غنى عنها ونحن قوة منظمة اليوم خذوا بناصرها تناصركم وتعمل معكم دائبة للخير »

« فمركز المرأة السياسي هو ان تربي اولادها التربية الوطنية الحقة وان تقمع المفاسد التي تهدد كيان الحياة العائلية وان تنتشل الامة من جهلها ورذيلتها وان تجعل همها الوحيد ان يكون النسل المقبل صحيح الجسم نشيط القوى ثابت العزم ذكي الفؤاد – » اهـ / نشرت

المرأة الجرمنية

في اثناء ما كان نساء العالم يملأن الفضاء صراخاً في طلب الحقوق

السياسية بالقرن ١٩ ، كانت الجرمنية منصرفة تمام الانصراف ، وعلى هدوء وسكينة ، لطلب العلم ، ولا سيما العملي منه .

انهم اوصدوا طويلا في المانيا بوجهها ابواب الجامعات ، وحرموها من العلوم العالية ، ولكنهم لم يغفلوا عن العناية في تعليمها وتربيتها العلوم المفيدة ، والتربية الاستقلالية المعتدلة ، فلذلك لم تقصر المانيا عن سواها في النهضة النسائية العلمية ، بل اسوة ببقية الامم قدمت للحضارة الحديثة جيشاً من العالمات ، والمؤلفات والمخترعات ، نذكر منه لويز غوتشد الرياضية ، ومدام رومكر المكتشفة الفلكية ، وحنه طومركن الفيلسوفة

وقد رأى القرن العشرون نمواً عجيباً بزيادة عدد الاستاذات والطالبات بالمانية : فكانت نسبة المعلمات للمعلمين ، سنة ١٩١١ ، بالماية ٢٧ ، فبلغت ٥٤ ، سنة ١٩١٤ ، وكذلك كان عدد الطالبات ٢٧٩٥ سنة ١٩١١ ، فبلغ بعد عام واحد ٣٢١٣ ، ثم حصل في احصاء سنة ١٩١٤ اربعين الفاً .

وشرعت ايضاً الجامعات الالمانية في فتح ابوابها كافة للطالبات ، فبلغ اللاتي فعلن منهن ذلك حتى سنة ١٩٠٩ سبع مدارس

غير ان الحرب العامة صدمت النهضة العلمية النسائية في المانيا الى حين ، ولكنها افادت كل الفائدة الاقتصادية منها والحقوقية .

المرأة الاسكندينافية

وعلى خطة المرأة الالمانية من حيث العناية في العلوم العملية ، جرت الامة الاسكندينافية ، ويرجع تاريخ نهضتها هذه ، الى عودة فردريكا برمر

الاسوجية من امريكا، ودعوتها قومها الى التشبه بالعالم الجديد في تعليم وتحرير المرأة .

ولما كانت الامة الاسكنديناڤية ، ليست أمة عريقة في التاريخ ، وغير مقيدة في تقاليد قومية اصيلة ، فسرعان ما تيسر تجددها كما حدث للولايات المتحدة .

ولذلك فان افكار فردريكا برمر وجدت قوماً صاغياً ، وبفضل كل من البارون ادلسبار ، والسياسي هادين ، والعالم ميلدلبرنس ، توفرت لاسوج نهضة نسائية تمشى فيها العلم مع الاقتصاد والعمل . ومنذ ١٨٤٥ شرعت كفائة الاسوجية تبلغها تدريجاً من الحقوق ما يغبطها عليه كثير من الامم ؛ وعلى خطوات اسوج درجت بقية البلاد الاسكنديناڤية .

المرأة السلاڤية

واما المرأة السلاڤية فانها تذبذبت زمناً في ارجوحة السياسة ؛ ما بين صعود وهبوط ؛ ولكن البولونية منها ، فانها وان نكبت سياسياً ، غير انها استفادت من الاختلاط بالامم السابقة بالتمدن ، ما خولها سبق بنات جنسها في مضمار النهضة ، وكم بين عالمات ، وعاملات التمدن الحديث من البولونيات ، او ذوات الدم البولوني ؛ كمدام كوري

اما الروسية ؛ فانها همت في النهوض من كبوتها في القرن الثامن عشر اسوة بسائر الغرب ، ولكن فت في عضدها القيصر اسكندر الاول في بداية القرن التالي ؛ ولما صار الامر الى اسكندر الثاني في اواسط

ذلك القرن، وكان ميالاً للتجدد، مسكها من يدها وحاول رفعها، فانشأ لها المدارس. وما زال حتى رأت الحكومة في المتنورات خطراً فاقفلت تلك المدارس.

اقفلتها ولكن روح العصر كانت تنكر الرجعة والجمود، فما هي الا سنون حتى عادت لفتحها سنة ١٨٨٩. وهكذا فبفضل المهاجرة، وكليات اوروبة، فان السياسة لم تبلغ كل امنيتها من الروسيات، بل نلن نصيباً وافياً من العرفان والتنور، وحسبنا الاشارة الى كل من صوفيا كووالفسكي الرياضية، والكنتس بوبنسكي الفلكية، ومدام تيكوميروف النباتية

المرأة بالتنازع الاقتصادي

وكان من نتيجة مشاركة الجنس اللطيف الجنس القوي في تحصيل العلم، ومجاراته في التأليف والاختراع، ان تتطرق للعمل بعلمه، ومزاحمة زميله اقتصادياً.

ولقد تنبه بعض المصلحين منذ اوائل القرن التاسع عشر الى مغبة هذه المزاحمة، فعمدوا الى صرف النساء الى اعمال صناعية خفيفة، يعملنها في منازلهن ولا تضر في صحتهن، ولا بتربية اولادهن، ولكن عبثاً حاول المحاولون، فان المزاحمة الاقتصادية الشديدة بين الافراد وبين الامم، عملت على دفع النساء الى المعترك الحيوي، مغمضات القلوب، غير مراعيات ما يلائم حياة جنسهن، وحالة اجسامهن. وما انتهى القرن التاسع عشر، الا بلغ عدد الكاسبات عند الامم مبلغاً جسيماً.

وحسبنا توضيحاً لذلك ان ندرج الجدول التالي

المملكة	تاريخ الاحصاء	مجموع عدد النساء بالمملكة	عدد الكاسبات	نسبة الكاسبات الى مجموع نساء المملكة
المانيا	١٨٩٥	٢٦،٣٦١،١٣٠	٦،٥٧٨،٢٥٠	٢٥٫٠
انكلترا والغال	١٨٩١	١٤،٩٤٩،٦٢٤	٤،٠١٦،٢٣٠	٢٦٫٨
ايكوسيا	١٨٩١	٠٢،٠٨٢،٩٣٠	٥٥٦،٥٦٤	٢٦٫٧
ايرلندا	١٨٩١	٢،٣٨٥،٧٩١	٦٣٤،٩٤٨	٢٦٫٦
النمسا *	١٨٩٠	١٢،٢٠٦،٢٨٤	٥،٧٧١،٧٣٤	٤٧٫٣
بلجيكا	١٨٩٠	٠٣،٠٤٢،٣٦٧	٧٩٧،١٤٣	٢٦٫٢
دنيمرك	١٨٩٠	١،١١٢،٢٢٣	٢٣٣،٤٥٣	٢١٫٠
فرنسا	١٨٩٦	١٩،٣٤٦،٣٦٠	٦،٣٨٢،٦٥٨	٣٣٫٠
هولاندا	١٨٩٩	٠٢،٥٨٣،٥٣٥	٤٣٣،٥٤١	١٦٫٨
ايطاليا	١٨٨١	١٤،١٩٤،٢٤٥	٥،٧٠١،٢٧٥	٤٠٫٣
اسوج	١٨٩٠	٢،٤٦٧،٧٩٤	٤٨٦،٨٧٢	١٩٫٧
نروج	١٨٩٠	١،٠٣٧،٣٨٤	٢٤٤،٧٤٧	٢٣٫٦
سويسرا	١٨٨٨	١،٥٠٠،١٨٠	٤٣٥،١٩٠	٢٩٫٠
الولايات المتحدة	١٩٠٠	٣٧،٢٤٤،١٤٥	٥،٣٢٩،٨٠٧	١٤٫٣

* زيادة عدد الشاغلات بالنمسا لامتياز المرأة فيها بالتهافت على الزراعة

وشرع عدد الكاسبات العاملات في الازدياد المطرد بالقرن العشرين، وفي التسرب الى مختلف المهن : في مصانع الطنافس، ومعامل الاجزاء، والمعادن، والورق، والتجليد، والحيل (الميكانيك) والبواخر، وحتى في المصانع الزجاجية المشهورة بإذاها للصحة وامثالها؛ فضلاً عن الاعمال التي تحتاج لسواعد الرجال كسوق العربات، ووظيفة الشرطة وغيرها، صار النساء يزاحمن الرجال غير ملتفتات الى تقاليد، وغير مشفقات على صحة وجمال. واذا بالحرب العامة قد اشتعلت، فالتهمت الرجال، وبقدر ما زادت في الحاجيات، انقصت من العمال.

حينئذ استأسد ظباء النساء، وبدافع الحاجتين الذاتية، والوطنية تقدمن غير هيابات ولا وجلات، من كل الاحزاب الفكرية على السواء لسد الفراغ اياً كان ومهما كان، وفضلاً عن الممرضات، والموظفات، والعاملات، والصانعات، رؤي منهن حمالات، وبحارات، وسائقات سيارات، وميكانيكيات، وحدادات، وامثال ذلك

وربما ان نساء الدول المركزية كن اوفر تهافتاً على الكسب الذاتي بدافع الحاجة؛ واليكم جدولاً عن تقرير صندوق الامراض الالماني المؤرخ في ١٦ اب ١٩١٧ وفيه كل من نسبة الزيادة السنوية ونسبة العمال من الجنسين مدة الحرب

سنة	١٩١٤	١٩١٥	١٩١٦
عاملة	٣،٥٠٦،٠٠٠	٣،٨٣٩،٠٠٠	٤،٧٩٣،٠٠٠
مجموع العمال	٩،٦٦٦،٠٠٠	٩،٠٩٣،٠٠٠	١٠،٠٨١،٠٠٠
النسبة بالمائة	٣٦،٣	٤٢،٢	٤٧،٥

ويترجح لدينا ان نساء النمسا هن اكثر تهافتاً على العمل من المانيا، فان نسبة العاملات للعمال فيها بلغت منذ ١٩٠٠ بالماية ٤٤؛ فكم زادت ترى بعد، ولا سيما مدة الحرب؟

هذا وان اتعاب النساء في مدة الحرب العامة لم تذهب سدى، بل انها على ما فيها من الاجهاد، حققت لهن آمالاً ما كن ليبلغنها بقرن لولا الحرب؛ وهي امانيهن في الحقوق السياسية.

حقوق المرأة

كان لبعض النسوة من الاشراف في عهد الاقطاعات باوروبا وما يليه امتيازات خاصة قضي عليها بالقضاء على هذا العهد؛ فامسى الجنس اللطيف في غرة التمدن الحديث متاعاً للهو الرجل. غير انه لما شرع العلم بالنضوج، واصبح تحصيله (موده) لدى نساء الاشراف، نبت من الجنسين كتاب جريئون اظهروا اسفهم لسوء حال المرأة؛ وانطلقوا في نصحها بطلب العلم. ولكن أنى لنساء الشعب ذلك، والدرس كان وقتئذ يستدعي كثير الانفاق؟

فلذلك لبثت المرأة في جهالة وسوء حال، حتى تأيدت الفكرة الديمقراطية؛ فصارت الحكومات تعني بسائر طبقات الشعب على السواء؛ وتأسست المدارس المجانية، فالاجبارية.

وفي اثناء ذلك اضطر جهاد العالم الاقتصادي النساء ان يشتركن مع الرجال فيه؛. كما ان المدارس اخرجت مفكرات ساءهن مقام المرأة السافل بالهيئة الاجتماعية؛ واوجدت خبيرات قديرات نجحن في اعمالهن

الذاتية ، فكان من اقتران العلم والعمل ، واعتماد جمهور النساء على اشخاصهن باعالة انفسهن ، ان نمت فيهن عاطفة الاستقلال من ربقة الرجل ، فاجتمعن حول المدافعين عن حقوقهن وقاموا في صرخة واحدة الفت اذاناً صاغية. ثم شرع بعد انصارهن في الازدياد المتصل.

بدأ انصار المرأة بالمطالبة بتحريرها ، ثم تطرقوا الى حقوقها الاجتماعية والسياسية . وساعد على نجاح دعوتهم اشتداد الاحزاب الاشتراكية التي أسست على مبدأ نصرة الضعيف .

فقد كان اجداد الاشتراكيين ، ما عدا پرودون ، من انصار تحرير المرأة : فسن سيمون ، واتباعه ، مثل بازارد ، وانفنتن ، وكابت ، وله رو ، وفوريه في فرنسا ، وروبرت اون ، في انكلترا ، وببل في المانيا ، ولاوروف في روسيا ، وڤاندرڤلد وديستره في بلجيكا ، كانوا كلهم عاملين على منحها حقوقها .

وعلى سنة هؤلاء تمشت الاشتراكية بالعصر الحاضر في تأييد مطاليب النساء الاقتصادية والسياسية ، الا نادراً حيث يخشى في اشراك النساء بالاقتراع من شد ازر الحزب المحافظ الاكليريكي

هذا وبالنظر لما صار للمرأة من الانصار الكثيرين ، ولما حصل لديها من الاستعداد ، شرعت تنال حقوقها الاجتماعية تباعاً ، فاشركت بالجمعيات الخيرية ، والنوادي ، ثم بالمحاكم التحكيمية بين العمال واصحاب العمل ، (محكمة برودون) فمجالس البلدية ، وغيرها.

ولكن الانسان مطبوع على الطموح ، ففي اثناء ما كانت تفوز بذلك ، صار فؤادها يهوى للاشتراك في المجلس التشريعي ، محتجة بانها ادرى بسن الانظمة الماسة بها ، وان الشرائع المدنية لا تؤسس على المساواة الحقة بين الجنسين ، الا

اذ اشترك كل منهما بسنها ؛ الى غير ذلك من البراهين الاخرى .

غير ان الرجل الذي تساهل معها في منحها كثيراً من الحقوق المدنية؛ والاجتماعية ، نهض متظاهراً في معاكستها بالحقوق السياسية ؛ الا انهم ما عتموا في البلاد الجديدة التي لم تؤسس على قاعدة الاريستوقراطية؛ والتي كان للنساء فيها جهاد اقتصادي ، كالولايات المتحدة ، وبعض مستعمرات انكلترا ، وغيرها ، ان اقتنعوا بلزوم منحها تلك الحقوق . ثم كانت الحرب العامة ، وما حصل فيها من الانقلابات الفكرية ، باعثة على نجاح المرأة بأمانيها في بقية الممالك الاوروبية وسواها

هذا ومن يتبصر في المسألة النسائية ، ير ان السواد الاعظم من اخصامها هم اشهر رجال العالم ؛ في العلم ، والسياسة ؛ ويخال لنا ان تغلب النساء بالرغم عن الاكثرية المخالفة بالفعل ، في قضية المساواة ، حدث عن تأثيرهن الشخصي ، على افراد الرجال ، حتى استعبدن كثيراً منهن للدعوة لهن . كما صار جمهور يناصر هذه الدعوة زلفى ، الى ان اصبح ذلك (مودة) ثم روحا عامة؛ واخيراً في اثناء ما كان المنتصر والمنكسر بالحرب العامة في سكرتي الفرح او الترح ، اقدمت الدول تباعاً ، مدفوعات بالاعتراف في الجميل للمرأة بما كان لها من الخدم في تلك الحرب ؛ على المساواة السياسية ، وكان اعتراف احداها يؤثر على البقية ، ويدفعها لعدم التردد .

وبالنظر لهذه الخطوة الكبرى توطد الامل بان تلك المساواة ستصبح عما قريب تامة بين الجنسين في الغرب ، وانها ستشمل هناك الممالك التي لا تزال محافظة . وهي تجربة لا ندري اذا كان البشر سيثبت عليها . والله اعلم .

انتهى



مندوبو السن فن الايرلنديون في لندن

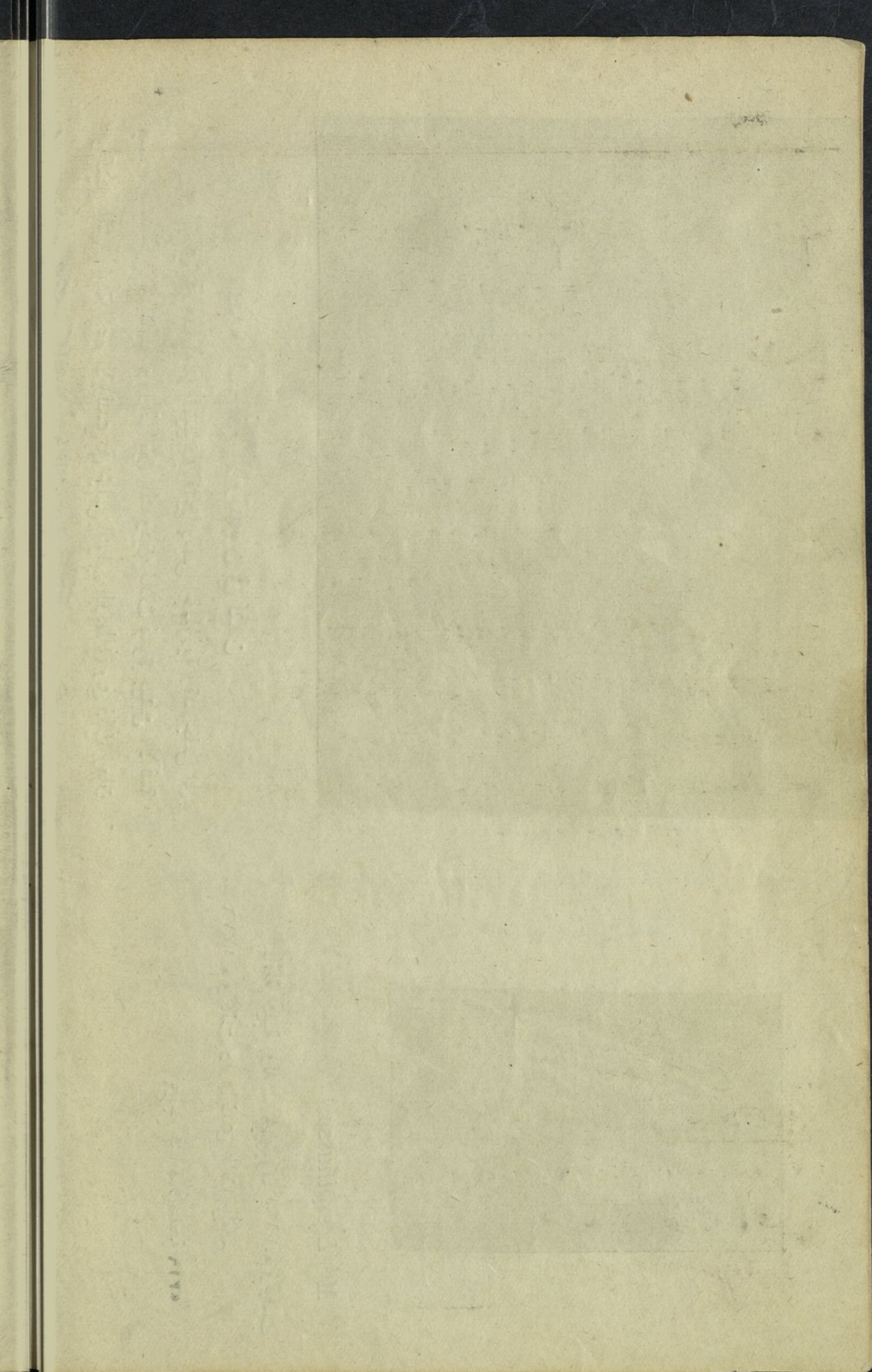
يرى القارئ في هذا الرسم المسيو دي فاليرا رئيس الجمهورية وقد جلس الى يساره المسيو غريفث نائبه وورائهما بين المندوبين ثلاث نسوة بينهن الآنسة او كنغيل بالشمال ابنة الزعيم الايرلندي في مجلس النواب البريطاني وفي ذلك برهان محسوس على ما بلغته مكانة المرأة في الغرب



الآنسة لسبيناس M^{le} Lesspinasse

عاقلة اديبة ولدت في ليون ١٦٣١ م وتوفيت ١٧٧٦ م وكانت دارها ندى افاضل العصر

«يراجع عنها قبلًا صفحة ٢١٩»



فهرس مواضيع الكتاب

صفحة

صفحة

الجزء الثالث

= عهد الابوة =

صفحة

الجزء الرابع

= المرأة الاوروبية =

(في عهدي الامومة والأبوة)

الجزء الخامس

= المرأة العربية قبل الاسلام =

(في عهدي الامومة والابوة)

الجزء السادس

— المرأة في الشريعة الاسلامية —

(عهد الابوة)

الجزء السابع

— المرأة في التمدن العربي —

عهد الابوة

الجزء الثامن

— عهد الانحلال —

تطور المرأة في التمدن الحديث

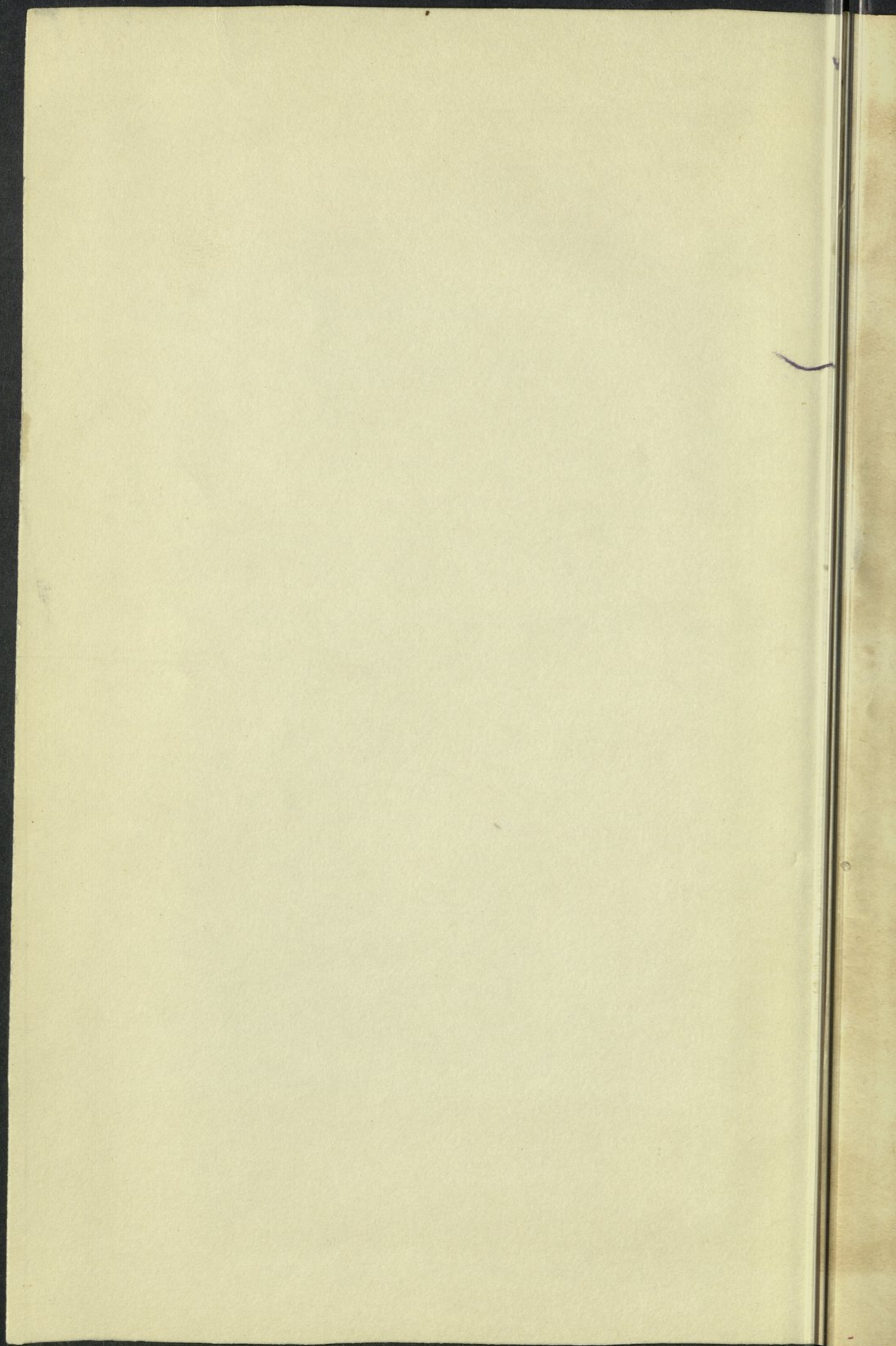
صفحة

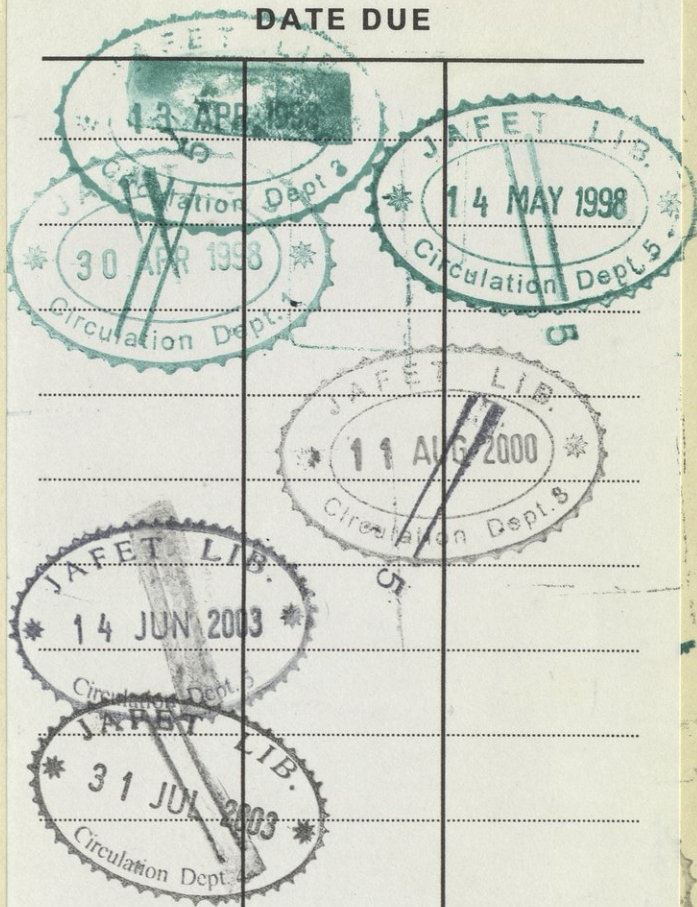
تصحيح الخطأ

صفحة	سطر	خطأ	صواب
٢	١٤	من طبائع	على طبائع
٦	١٠	حربا	حرب
٧	١٠	بالاحتفاظ	باحتفاظ
٣١	١٣	واحدى مصادر	وأحد مصادر
٤٢	٠٢	فحب	فحسب
٤٨	١٥	كانت عنهم	كانت عندهم
٥٣	٠٢	المسيحة	المسيحية
٦١	٠٦	كل بالآخر	كلاً بالآخر
٧٠	١٦	اضمملت	اضمحلت
٩٣	١٠	برهان ساطع	برهاناً ساطعاً
١٠٣	١١	ثلاثا	ثلاث
١٠٧	٠١	قامت	فأمت
١١١	١٩	اعلان المرأة	اخلاق المرأة
١٣١	٠٥	فيها الجنسين	فيها الجنسان
١٣٥	٠٢	حضيناهم	حضضناهم
١٣٥	٠٦	ضنين	ضنينين
١٣٩	٢	سلقية	سليقة

صفحة	سطر	خطاء	صواب
١٣٩	٢٠	تميهم	تميم
١٤٠	٠٦	السناء	الثناء
١٤٨	٢	على	عايه
١٩٢	٩	حكماً من اهلها	حكما من اهله وحكماً من اهلها
١٩٣	٤	ومن يتعدى	ومن يتعد
١٩٦	٩	لايدنين	يدنين
١٩٧	١٨	عاماً	عام
٢٢٤	١٤	احدى عشر	احد عشر
٢٢٩	٠٢	والوطنيون	والوطنيين
٢٣٢	١١	كل من	كلاً من







DATE DUE
JAFET LIB.
13 APR 1998
Circulation Dept 3
JAFET LIB.
30 APR 1998
Circulation Dept. 1
JAFET LIB.
14 MAY 1998
Circulation Dept. 5
JAFET LIB.
11 AUG 2000
Circulation Dept. 8
JAFET LIB.
14 JUN 2003
Circulation Dept. 5
JAFET LIB.
31 JUL 2003
Circulation Dept. 2



